الإمارات العربية المتحدة
وزارة التربية والتعليم

رحلات عجيبة في البلادِ الغريبةِ

سونيا نمر

مدرسة شعم للتعليم الأساسي والثانوي للبنين
المكتبة
مركز مصادر التعلم

رحلات عجيبة في البلاد الغريبة

سونيا نمر

نسخة خاصة بوزارة التربية والتعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة، قام الناشر بتعديلها وطباعتها بناء على طلب الوزارة

مدرسة شعم للتعليم الأساسي والثانوي للبنين
الرقم العام : .....
الرقم الخاص : .....
تاريخ الورود : .....

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education

Publisher:

Tamer Institute for Community Education

P.O Box: 1973, Ramallah- Palestine

Tel: 02 2986121/2

Fax: 02 2988161

E-mail: tamer@palnet.com

Website: www.tamerinst.org

الناشر:

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

ص.ب 1973، رام الله- فلسطين

هاتف: 02 2986121/2

فاكس: 02 2988161

البريد الإلكتروني: tamer@palnet.com

الموقع الإلكتروني: www.tamerinst.org

لوحة الغلاف للفنان رؤوف الكراي

ISBN 978_9950_26_095_5

النسخة الأصلية من هذا العمل حصلت على جائزة اتصالات لكتاب الطفل عن فئة كتب اليافعين للعام 2014

© جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر باللغة العربية

لا يجوز إعادة طباعة الكتاب أو ترجمة أو نقل أي أجزاء منه بأي شكل من الأشكال إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

الطبعة الأولى بالعربية 2013

الطبعة الثانية بالعربية 2015

الطبعة الخاصة بوزارة التربية والتعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة 2016

الإمارات العربية المتحدة
وزارة التربية والتعليم

الإخراج الفني: أضواء للتصميم. هاتف: 02 2980552

رحلات عجيبة في البلاد الغريبة

عندما وصلتني الدعوة لحضور مؤتمر في المغرب كدتُ أطيرُ من الفرحة، فقد كانت إحدى أمنياتي العزيزة أن أزور هذا البلد العربي الغني بحضاراتهِ وثقافتهِ، ولم أكن أدري حينها أنني سأبدأ مغامرةً ستقلب حياتي، ولا أن القدر سيضع بين يديَّ تفاصيل حياةِ امرأةٍ مجهولة.

ولأبدأ من البداية.

بعد استعداداتٍ طويلةٍ ومعقدةٍ للسفر وصلنا إلى مرّاكش الجميلة، وسار كلُّ شيء على ما يرام. كان المؤتمر جيدًا وشائقًا، وأتيحت لي فرصة تعرّف كثيرٍ من المتخصصينَ في مجال الفن الإسلامي، والاطلاع على إبداعاتِ الحرفيين.

عندما نزلتُ عن المنصة بعد إلقاء كلمتي، تقدم مني أحد الحاضرين وسلم عليّ بحرارةٍ، كان أسمر البشرة كتلك التي يتميز بها سكان شمال إفريقيا، قصيرَ القامة ونحيلاً جداً، يحمل في يده حقيبةً جلديةً منتفخةً تبدو أثقلَ منه وزناً. عرَّف نفسه على أنه «البروفسور أحمدي»، متقاعدٌ من جامعة الرباط ويسكن في طنجة، ويعكف على الكتابة في الفن الإسلامي.

بعد هذه المقدمة وتبادل المجاملات، سأل البروفسور أحمدي إن كان بإمكانه دعوتي على فنجان قهوةٍ في بهو الفندق حيث يقامُ المؤتمر، قائلاً إن لديه شيئاً يود إطلاعي عليه.

بعد أن شربنا القهوة وتبادلنا الأحاديث العامة، أزاح البروفسور فناجين القهوة الفارغةَ من أمامنا، وأبعد منفضة السجائر، وشرب ما تبقى من كأس الماء ووضعه على الطاولة المجاورة، قام بهذه الإجراءاتِ ببطءٍ شديدٍ كأنه يمارس بعض الطقوسِ أو يماطلُ لكسب مزيدٍ من الوقت قبل البدء بالحديث. زادت هذه

الحركات من فضولي وبدأت التساؤلاتُ تزنُّ في رأسي. تنحنح البروفسور بصوت عالٍ، ودون مقدماتٍ وبلهجةٍ أكاديميةٍ صرفةٍ قال:

"قبل حوالي ستةِ أشهرٍ جاءني رجل قال إنه اشترى بيتاً بجانب البحر، وأثناء عمليات الإصلاح وجد جرةً مدفونةً في الرمل تحت البيت، ظنَّ أنها كنزٌ ففتحها ولكنه وجد فيها رزمةً من الأوراق مربوطةً بخيطٍ حريريٍّ بعنايةٍ، ولم يدرك الرجل ماهيةَ هذه الأوراق فأحضرها لي". لم ينظر البروفوسور إلى وجهي ليرى وقع كلامه علي، انحنى فوراً والتقط حقيبته الجلدية ووضعها على فخذيه، وبعد أن بدأ بفتحها ببطءٍ شديدٍ رفع بصره إليّ ليراقب تعابيرَ وجهي التي انتقلت من الفضول إلى الدهشة إلى الانفعال الشديد. مدَّ يده إلى داخل الحقيبة وأخرج مغلفاً بنياً سميكاً ووضعه على الطاولة، ثم أعاد حقيبته إلى جانبه على الأرض ووضع يده على المغلف.

"عرفتُ أن كاتبة هذه الأوراق جاءت من فلسطين، موطنك".

أصبحتُ في غاية الانفعال! فالموضوع كلُّه أصبح مثيراً جداً ولم أستطع أن أمنع يدي من أن تتقدم فوق الطاولة لتتلمس ظهر المغلف، وتساءلتُ في نفسي: "ماذا يوجد في هذه الأوراق؟ من هي كاتبتها، وكيف وصلت الأوراق إلى طنجة التي تبعد آلاف الأميال عن فلسطين؟ ما هي الأسرار التي تخفيها في طيّاتها؟"

دفع البروفسور المغلف باتجاهي قائلاً: "لقد تردَّدتُ كثيراً قبل أن أعطيها لك، فالباحث منّا لا يجد فرصةً نادرةً كهذه! أقصد هذه المخطوطة، ولكني كما ترين كبرتُ كثيراً في السن، وخشيتُ أن يحدث لي شيءٌ وتضيع هذه الأوراق، أو ألا تجد من يهتم بها بعدي"، ثم مدَّ يده إلى جيب قميصه وأخرج بطاقة تعريفٍ أعطاها لي وهو يقول: "أرجو أن تكتبي لي، سأظل في شوقٍ لمعرفة رأيك"، ومدَّ يده مرة أخرى فوق المغلف يتحسَّسهُ وكأنما يودعهُ، ثم نظر إلى ساعته وهبَّ

واقفاً: "لقد اقترب موعد الجلسة التي سألقي فيها كلمتي، اعتني بالأوراق جيداً، أرجو لك التوفيق".

حمل حقيبته الفارغة ومشى بسرعةٍ نحو القاعة، وكأنه يخافُ أن يتراجع ويعود ليأخذ الأوراق، أما أنا فقد بقيتُ جالسةً في مكاني مذهولةً أنظر إلى المغلف، أتحسَّسه بيديَّ دون أن أجد الجرأة على فتحه.

طلبتُ فنجاناً آخرَ من القهوة، وبدأت بفتح المغلف ببطءٍ وأنا أتحسس ورقه كمن يخاف أن تقفز الأوراق من بين يديه، داعبت الورق الأملس بيدي ثم أخرجته من المغلف: كومةٌ من الأوراق الصفراء المستطيلة والمرتبة بعنايةٍ والملفوفة على شكل مجموعاتٍ أسطوانيةٍ، كل أسطوانةٍ منها مربوطةٌ بخيطٍ زهريٍّ اللون. فتحت الرزمة الأولى، فطالعني في صفحاتها خطٌ أنيقٌ وأحرفٌ صغيرةٌ، أحرفٌ في غاية الجمال والتناسق، وفي ذيل الصفحة توقيع بخط رقيق: "عجيبة".

بدأت أقرأ وقلبي يسابق عيوني فوق السطور:

الأسئلة

1. هذه القصة عبارة عن مخطوطة، من مالك المخطوطة؟
2. لماذا سلمها للراوية التي جاءت من فلسطين؟

الجزء الأول

الوهم

وكان أن جاء أمي المخاض وهي فوق الحمار الذي كان يحملها من المدينة إلى قريتنا، فأوقف أبي القافلة وجعل لها خيمةً صغيرةً عند قدم الجبل.

كانت ولادتها صعبةً، ولولا دراية خادمتها وتوجيهاتِ أمي لها بالرغم من حالتها لماتت وهي تلدنا. أنجبتْ أمي في تلك الخيمة تحت قدم الجبل توأماً، وبقيت في الخيمة سبعة أيامٍ بلياليها حتى تمكنت من أن تواصل الجزء الأصعب من رحلتها، ألا وهو صعود الجبل.

كان ذلك الصيف حاراً جداً، والقيام بمثل هذه الرحلة في هذا الوقت من السنة بمنزلة الانتحار، لكنه أيضاً الوقت الوحيد من السنة الذي يجفُّ فيه الوادي العريضُ المحيط بالجبل والذي يمكن للناس فيه العبور ثم الصعود فوق الجبل إلى قريتنا. وكان أبي قد ترك هذه القرية التي لا اسم لها قبل أربع سنواتٍ تقريباً، ظنّاً منه أنه لن يعود إليها أبداً، لكن القدر أراد له شيئاً آخر.

كانت «البلد» قريةً صغيرةً جداً على جبلٍ عالٍ يصعب الوصول إليها، ويعيش أهلها على الزراعة ورعي الأغنام. ينزل رجال القرية إلى المدينة مرةً واحدةً في السنة، ويسيرون على أقدامهم أو على الحمير لمدة يومين ليصلوا إلى المدينة ويبيعوا منتجاتهم من الجبن والفواكه والزيتون والجلود، ويشتروا ما يحتاجون إليه من ملابسَ وأدواتٍ وبعض الكتب أحياناً، وفي المدينة يعرف أهل القرية أخبار السنة التي مضت واسم حاكم البلاد وقصصاً أخرى.

كانت «البلد»، كما كان يسميها أهلها، معزولةً لدرجة أن لا أحد يعرف بوجودها سوى بعض تجار المدينة الذين يتعامل معهم أهلها. لم يكن أحدٌ يزور القرية،

ولمَّا كان الرجال البالغون فقط هم الذين يذهبون إلى المدينة، فلم تكن هناك امرأةٌ تعرف شكل المدينة أو حتى طريقها. ينزل الرجال في الصيف عندما يجف الوادي المحيط بالجبل، أما بقية أيام السنة فتكون القرية معزولةً طبيعياً عن العالم بهذا الوادي العظيم المليء بالماء المحيط بها.

كان أهل القرية كلّهم أقرباء لأنهم في الأصل جاؤوا من عائلةٍ واحدةٍ، وتقول الرواية إن الشيخ سعد، شيخ القرية الأول، هرب قبل مئاتِ السنينَ من جنوب فلسطين خوفاً من ثأرٍ بعد أن قتل رجلاً من عائلةٍ أخرى، وأنه ظلَّ هائماً على وجهه مع عائلته لفترةٍ طويلةٍ، حتى رأى في المنام شجرةً ضخمةً بأوراقٍ دائمة الخضرة تظلِّل مساحةً كبيرةً من جبلٍ، فاتجه جدُّنا إلى الشمال حيث وجد الشجرة، وهناك بنى بيته وأقيمت القرية على هذا الجبل.

كانت لقريتنا معتقداتها وقوانينها الخاصة التي ترسخت عبر السنين، يسنُّها ويشرعها مجلس الشيوخ، فكان أهل القرية يعتقدون مثلاً أنه إذا ما ترك أحدٌ القرية ليسكن مكاناً آخر بعيداً عنها فإن ذلك سوف يجلب المشكلات للقرية، وأنها ستتعرض للمصائب والخراب. كانوا يعتقدون أيضاً أنه إذا جاء غريبٌ إلى القرية فإن ذلك يجعل المصائب تحلُّ بها، لذلك منع زواج الرجال من خارج القرية، أما النساء فكان محظوراً عليهن ترك القرية، فكيف بالزواج من خارجها! وكان الأولاد الذكور فقط من يسمح لهم بالتعلُّم في كُتّاب القرية، أما البنات فقد كُنَّ ممنوعاتٍ من التعليم ومحرمٌ عليهن الاقتراب من الكُتّاب.

ظلت القرية تعيش بهذه الطريقة سنواتٍ طويلةً، وكانت القوانين تترسخ عبر السنين وتزداد تعقيداً، لدرجة أن أحداً لم يجرؤ حتى على التفكير في البقاء في المدينة لأكثر من الأسبوعين المصرح بهما، وبالطبع لم يكن أحدٌ ليجرؤ على الزواج من خارج القرية، ولم تفكر النساء بالتعلم أو الفتيات باللعب، كما لم يكن أحد ليجرؤ على أن يرفع عينيه أمام شيوخ القرية .

وبالرغم من كل هذه القوانين الصارمة والحذر الشديد فقد حلّت المشكلات على القرية، إذ هرب سليمان الراضي منها ذات يومٍ إلى المدينة ولم يعد.

كانت المشكلات كبيرةً وكارثيةً، فمنذ خمسين عاماً تقريباً لم تلد نساء القرية سوى الذكور، حتى الأغنام تلد ذكوراً، فبدأ الخوف يسيطر على الرجال، إذ إنّ أصغر امرأةٍ في القرية عمرها خمسون عاماً، وبدأ عدد النساء يتناقص، وصار الرجل يخرج مطأطئاً رأسه حين يعرف أن زوجته قد ولدت ذكراً، ومنع الشيوخ الاحتفالاتِ التقليديةَ بمولد الذكور، وصارت النساء من حبّهن لإنجاب البنات يُلبسن أولادهنّ ملابسهنّ ويُطِلن شعورهم.

ومع كل المحاولات لم يفلح طبيب الأعشاب في إيجاد الحل، ولم تُجدِ إقامة الصلوات الخاصة، وبالرغم من الأضحيات والعجول المذبوحة بقي الوهم جاثياً فوق القرية، ومع ذلك، وعلى الرغم من الكارثة ظلّ مجلس الشيوخ يرفض السماح للرجال بالزواج من خارج القرية ظناً منهم أنهم إذا أمسكوا بسليمان الهارب فإنّ المشكلة ستحلّ لكن الأمر الذي لم يعرفه أحدٌ أن سليمان الراضي مات بعد عدة أشهرٍ من وصوله إلى المدينة بمرضٍ غامضٍ، وبقي أهله يبحثون عنه.

كان أبي «سعيد»، أصغر طفلٍ في القرية، وكان من عادة الرجال في كل سنة أن يصطحبوا معهم إلى المدينة كل الأولاد الذين بلغوا الثالثةَ عشرة. وهكذا نزل أبي «سعيد» مع عمه وأبيه وبقية رجال القرية إلى المدينة، ومنذ اللحظة التي شاهد فيها المدينة لم يكفّ عن التفكير بها، كان أول ما أذهله ضخامتها، ثم بهرته ألوانها، فقد كان يغلب على قريته اللونان البنيُّ والأسود ومشتقاتهما، إن كانت هناك إمكانيةٌ لاشتقاق أي شيءٍ منهما، وقد كان الشيوخ الأوائل قد منعوا استعمال الألوان الزاهية لأنها تدلُّ على بهرجةٍ زائفةٍ، وفرضوا هذين اللونين لأنهما دلالةٌ على التواضع والتقوى. أما المدينة، فقد كانت ألوانها تتراقص أمامه بكل انعكاساتها في الشمس، الأحمر والأخضر والزهري والأصفر والأزرق

والذهبي، ثم كان هناك السوق، فهو لم ير في حياته كل هذا العدد من الناسِ والحوانيتِ والملابسِ والبضائعِ والروائحِ والكتب.

رأى سعيد في المدينة حوانيت متخصصةً فقط في بيع الكتب، وأذهله وجود هذا العدد الكبير من الكتب في مكانٍ واحدٍ، حتى مكتبة الكُتَّاب في القرية بدت وكأنها رفٌّ واحدٌ فقط من هذه الرفوفِ المتراصةِ، كتبٌ على الرفوف وعلى الأرض وفي الصناديق وفوق بعضها البعض، جبالٌ من الكتب!

عندما وصلوا إلى الخان رجا سعيدٌ أباهُ أن يسمح له بأن يشتري بعض الكتب، لكن الوالد أوضح له أنه لا يسمحُ لأحدٍ أن يشتريها سوى من أوكل إليه مجلس الشيوخ هذه المهمة، وهم فقط الذين يحددون ما هي الكتب المسموح شراؤها، وأنه يمنعُ دخول أيِّ كتابٍ غير مصرحٍ به من قبل مجلس الشيوخ وأن حامله سيتعرض للعقاب الشديد، فوقف سعيدٌ أمام حانوت الكتب مذهولاً فاغراً فاهُ من الدهشة، فهو يتمنى لو يستطيع الجلوس هنا مائة عامٍ حتى يتمكن من قراءة هذه الروائع. تسلل إلى داخل الحانوت وأخذ يجول ببصره في المكان، فوجد كتاباً غلافه من الجلد الأحمر عليه رسومٌ وصورة طائرٍ ملونٍ، وكتب عليه بخطٍ جميلٍ «الرحلاتُ العجيبةُ في البلادِ الغريبةِ»، فتحه وأخذ يتصفّح أوراقه، وعلى كل صفحةٍ كان يجد صوراً ملونةً وخرائطَ وأسماءً لمدنٍ وبلادٍ لم يسمع بها، وصور حيواناتٍ وطيورٍ أعجب من الخيال.

بقي أبي واقفاً مدةً طويلةً يتأمل صور الكتاب وجمال خطِّه، ولم يلحظ أن صاحب الحانوت كان يراقبه، ولكنه تنبَّه فجأة إلى صوت الرجل يسأله إن كان يود شراء الكتاب، فاعتذر وأعاد الكتاب إلى مكانه دون أن تفارقه عيناه، وحين حاول صاحب الحانوت إغراءه بشرائه تذرّع سعيدٌ بحجة منع إدخال مثله إلى قريته، ففهم صاحب الحانوت أن سعيداً قد جاء من «تلك القرية»، فدعاه لأن يزوره كل يومٍ أثناء إقامته في المدينة ليقرأ أكبر كميةٍ من الكتب قبل أن يغادر.

في اليوم التالي تفرَّق الرجال، منهم من ذهب لتبادلِ البضائعِ ومنهم من ذهب للبحث عن طبيبٍ ، وكان على الباقين أن يتفرقوا في كلِّ مكانٍ للبحث والسؤال عن سليمان، على أن يلتقوا مساءً في الخان.

وهكذا حصل سعيدٌ على فرصةٍ ذهبيةٍ، أسرع إلى حانوت الكتب ووقف عند بابه حائراً لأنه وجد الحانوت مفتوحاً ولا أثر لصاحبه، ولكنه سمع صوتاً رقيقاً يسأله إذا كان يبحث عن شيءٍ أو كتابٍ معينٍ، نظر سعيدٌ أمامه فوجد فتاةً في مثل عمره، قالت إنها ابنة صاحب المكتبة وأنه ذهب للصلاة في الجامع وأنها ستحلُّ محله حتى يعود.

لم يفهم سعيدٌ شيئاً مما قالته الفتاة، فقد كان يقف أمامها مشدوهاً يتصبَّبُ عرقاً، فهو لم ير في حياته فتاةً أصلاً، فأمه هي أصغر نساء القرية، ثم إن النساء في قريته يغطين كلَّ أجسادهن، بما في ذلك الرأس، بعباءةٍ سوداءَ، وهذه الفتاة حاسرة الوجه والرأس. قالت إن اسمها جواهر وإنّها تحب الكتب، فعجب سعيدٌ لذلك أشد العجب، فالنساء غير مسموحٍ لهنّ بالقراءة! سألها متلعثماً إن كانت قد قرأت كل الكتب في المكتبة، فضحكت وقالت إنها تحاول أن تفعل ذلك، وأشارت بيدها إلى الكتاب ذي الغلاف الأحمر وقالت إنه كتابها المفضل، وأنها تحبه لأنه يحملها إلى عوالمَ بعيدةٍ ومدنٍ جديدةٍ، وأناسٍ تختلف عاداتهم باختلاف أشكالهم وألوانهم.

جلس سعيدٌ على الأرض واستمع إلى «جواهر» وهي تحكي له عن الكتاب وعن أمنيتها في أن تسافر يوماً إلى كل هذه العوالم والأماكن. بدأ تلعثم سعيدٍ يخفُّ قليلاً، وأخذ يمطرها بالأسئلة عن المدينة والحياة فيها، وعن حقيقة وجود أماكنَ عامةٍ للاستحمام هنا، وعما إذا كان الأمير الذي يحكمها متزوجٌ من عشر نساء، وألف سؤالٍ وسؤال. وسألته جواهر عن قريته وأناسها، وعاداتها وقوانينها.

مرَّ الأسبوعان بطرفة عينٍ وجاء سعيدٌ ليودع صاحب المكتبة وابنته، وبعد أن مشى خطواتٍ مبتعداً عنهما كسير القلب، نادته جواهر ومدت له كتاب «الرحلات العجيبة» وقالت إنه هديةٌ منها. لم يستطع أن يرفض، فأخفاه بين طيات ملابسه ومشى بعيداً عن المكتبة. كان يعرف أنه لن ينسى هذه الزيارة، وأنها ستبقى مطبوعةً في عقله وقلبه. ابتعد مسرعاً وهو يتحسس الكتاب، هذا الكتاب الذي سيجمعه بأمي مرةً أخرى، وهو الكتاب الوحيد الذي حملته معي حين رحلت من تلك القرية إلى الأبد.

عاد الرجال من المدينة محمّلين بالبضائع والأدوات والملابس، وعادوا كذلك محمّلين بالخيبة، فقد فشلوا في أن يعرفوا أي شيءٍ عن سليمان أو أن يجدوا علاجاً لمشكلة القرية، أما سعيدٌ فقد عاد حاملاً في طيات ثيابه كتاباً سحرياً، تاركاً في المدينة عقلَهُ وقلبَهُ, ومنذ تلك اللحظة ظلَّ هاجس العودة إلى المدينة يستحوذ عليه .

كان أبي قد عزم على ترك القرية والرحيل إلى المدينة، لكنه لم يكن يعرف أنّ رحيله سيكون بدايةً لرحلة شقاءٍ وتحدٍّ، ولم يكن يعرف أن منتهاها سيكون في القرية التي غادرها. الآن بلغ العشرين، والآن أيضاً سيتمكن من صحبة الرجال إلى المدينة وفي طيات ملابسه كتابٌ أحمرُ، وفي عقله خطةٌ سريةٌ. مشى إلى المدينة يسبقه قلبُهُ، توقف أمام المكتبة حائراً، أطلَّت عليه جواهر ، ودعته للجلوس وتابعا حديثهما وكأنه لم تمضِ سبع سنواتٍ منذ أن كان هنا في المرة الأخيرة. أخرج الكتاب من بين ملابسه وأعاده إليها، لكنها رفضت لأنه كان هديةً منها.

شرح سعيدٌ لصاحب المكتبة خطته وأنه ينوي البقاء في المدينة، رحَّب به صاحب المكتبة وطلب إليه أن يعمل معه في بيع الكتب، وهكذا اختفى سعيدٌ عن الأنظار. بحث رجال القرية عنه في كلِّ مكانٍ فلم يجدوه، وأخّروا عودتهم على غير عادتهم يومين للبحث عنه ولكن دون جدوى، فكروا أنه ربما حلَّ به مكروهٌ،

مع أن بعض سيئي الظنِّ اعتقدوا أنه هرب مثل سليمان، لكنهم لم يجرؤوا على ذكر شكوكهم بصوتٍ عالٍ، فسعيدٌ هو حفيد شيخ مشايخ القرية ولا يمكن أن يفكر بالهرب.

عاد الرجال إلى القرية من دون سعيدٍ، عادوا بالخيبة والخوف من غضب الشيخ، أما سعيدٌ فقد بدأ عمله في المكتبة، هذا العمل الذي أحبه جداً. كان في الأوقات التي تخفُّ فيها الحركة في السوق ويقلُّ فيها عدد الزبائن يجلس في زاوية الحانوت يقرأ، أو يناقش موضوعاً أو كتاباً مع جواهر وأبيها، وكلاهما كانا بالنسبة إليه أعجوبةً في سعةِ اطلاعهما ورحابةِ أفقهما وحكمتهما.

بعد وقتٍ قليلٍ تزوج سعيدٌ من جواهر وعاشا في سعادةٍ ورخاءٍ فترةً من الزمن، وعندما مات أبوها استمر سعيدٌ وزوجته في إدارة المكتبة معاً. أما أهل القرية فقد عاشوا ثلاث سنواتٍ من الرعب خوفاً من أن تحلَّ بهم كارثةٌ أخرى بسبب اختفاء سعيدٍ، وظلوا يبحثون عنه كلما نزلوا إلى المدينة.

كانت والدتي في الأشهر الأخيرة من الحمل عندما التقى أبي بصديقه ورفيق طفولته عمر بالمصادفة البحتة، فقد كان والدي يختفي عن الأنظار فترة الأسبوعين الذين كان يقضيهما رجال القرية في المدينة، لكن هذه المرة أصيبت أمي بمغصٍ شديدٍ، مما اضطر والدي أن يذهب إلى العطار ليحضر لها بعض الأعشاب والأدوية، وهناك التقى عمر الذي كان يشتري بعض العقاقير. أخذه سعيدٌ من يده وقاده إلى المكتبة واختفى خلف الستارة، ولم يدعه يغادر حتى أخذ منه وعداً بألا يتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ لأهل القرية.

عرف والدي من صديقه عمر أنّ جدي مات في العام الماضي، وأنّ مشكلات القرية ما زالت قائمةً، وأن أهلها يرجعون ذلك إلى سليمان حتى هذه الساعة، أما سعيدٌ فقد قرروا حياله الصمت التام، ومنع أهل البلد من ذكر اسمه أو الخوض في سيرته كأنه لم يكن.

آلم أبي هذا الموقف كثيراً لكنه سامح أهل قريته، وعرف أن أمه مريضةٌ جداً وأنها تذكر اسمه ليلاً نهاراً بالرغم من الحظر، وتتمنى أن تراه ولو للحظةٍ واحدةٍ قبل أن تموت، عندها عزم أمره على أن يعود إلى القرية، فباع ما باعه وحمل ما بقي من الأثاث ومعظم كتب المكتبة على قافلةٍ من حميرٍ متجهاً إلى القرية.

أسئلة الجزء الأول

1. لماذا حلت المشكلات بأهل القرية؟
2. كم يوماً في السنة يذهب الرجال إلى المدينة؟
3. هل توافق على وضع المرأة في القرية، ولماذا؟
4. ما الفرق بين هرب سلمان وبقاء سعيد في المدينة؟
5. هل توافق على زواج سعيد من جواهر؟ لماذا؟
6. لماذا عاد سعيد وزوجته إلى القرية أخيراً؟
7. إلامَ ترمز المكتبة والكتب في هذا الجزء؟

الجزء الثاني
الغريبة

وصل خبرُ قدوم أبي إلى القرية حتى قبل أن يدنو من قدمِ الجبل، وعندما وصل مع أمي المتعبة وقافلةٍ من الحمير تحمل الكتب والأثاث وجد القرية خاليةً تماماً، وكأنَّ أهلها قد اختفوا فجأةً، لم يكن في الشوارعِ الضيقةِ المتربةِ ولا حتى دجاجةً أو كلباً سائباً. وصل إلى بيت جدي وطرق الباب عدةَ مراتٍ ونادى: «هذا أنا يا أمي، أنا سعيدٌ، لقد عدت»، لكن جدتي التي سمع والدي صَوت بكائِها من خلف الباب لم تفتح له. قرع الباب ثانيةً وثالثةً ينادي على جدتي، لكنَّ الباب لم يفتح، وازداد نحيبُها خلفه. عاد أبي أدراجه يسير في شوارع القريةِ الصامتةِ، وكانت الريح الحارَّة تعصف الغبار والتراب في عينيه. وقف في ساحة القرية وصاح: «أما من أحدٍ هنا؟» فلم يجبه سوى الصمت والغبار.

عرف والدي حينها أن أهل القرية اعتبروه في عداد الأموات، وأن أحداً منهم لن يتحدث إليه أو يفتح له باباً، فقاد قافلته الحزينة إلى الطرف البعيد من القرية حيث أشجار الزيتون، وأقام هناك مخيماً. وهكذا كتب على أمي أن تعيش في خيمةٍ بجوار قريةٍ فُرِضَ عليها الصمتُ والعزلةُ. وبعد عدة أشهرٍ من العمل المتواصل أنهى والدي بناء بيتٍ صغيرٍ من الخشب يسكنه مع عائلته.

طيلة هذه الفترة لم يتحدث أحدٌ إلى أمي أو أبي، وصار أهل القرية أشباحاً تختفي لحظة رؤيتهما لأيٍّ منهما. عائشةُ السمراء، خادمة أمي المخلصة، هي الوحيدة التي كسرتْ هذا الطوق وذهبت في إحدى الليالي التي غاب فيها القمر إلى بيت جدتي. فتحتْ لها جدتي الباب وهي ترتعدُ خوفاً، أطفأتِ المصباح وأسدلتِ الستائر، ثم أضاءتْ شمعةً تحميها بيدين مرتجفتينِ، فإذا علم أهل القرية بهذه الزيارة ستموت جدتي وحيدةً ولن يخرج أحدٌ في جنازتها ولن يصلي عليها أحدٌ

في المسجد، وكانت جدتي تخاف أن تموت وحيدةً، كان خوفها هذا بقدر حبها لوالدي ولهفتها لمعرفة أخباره.

حكت لها عائشة الشجاعة عن أخبار أبي وعن التوأم، ووصفت لجدتي جمالهما: «واحدةٌ شقراءُ ببياض الثلج مثل جدتها تماماً»، ابتسمت جدتي لأول مرةٍ عند سماعها هذا، «وأسمياها شمس، والثانية سمراءُ بشعرٍ كالليل مثل أمها، هناك خصلةٌ بيضاءُ من الشعر فوق جبهتها كالبدر في عتمة الليل، أسمياها قمر».

كانت جدتي تتمنى أن ترى حفيدتيها، وأن تضمهما إلى صدرها وأن تلاعبهما وتغني لهما الأغاني، لكنها اكتفت بوصف عائشة لهما، ومع أنها كانت تتمنى أن تسمع المزيد لكنها قالت لعائشة: «اذهبي الآن قبل أن يأتي الفجر ويراك أحدهم، وقولي لولدي إني أسامحه في الدنيا والآخرة، وإني سأموت وأنا راضيةٌ عنه وأدعو له ليلَ نهارٍ، وقولي لزوجته الغريبة أن تصبر».

في الصباح التالي وجد أهل القرية جدتي ميتةً في سريرها وعلى وجهها ابتسامةُ رضىً، وكأن الله كان يطيل حياتها لحظةً بلحظةٍ حتى تسمع أخبار ولدها، وها قد اطمأنتْ عليه فلم يعد هناك سببٌ لإطالة أمد عذابها.

مشى والدي بعيداً خلف الجنازة، كأنه موجودٌ وغير موجودٍ، يراقب وضع جدتي في مثواها الأخير عن بعدٍ، رآه أهل القرية ورأوا الدموع تنهمر من عينيه، لكنهم لم يلتفتوا إليه ولم يقترب أحدهم لتقديم العزاء له، وبعد أن أهالوا التراب فوق جدتي وقرأوا الفاتحة قفلوا راجعين إلى القرية بصمت. ولما تأكد والدي أن الأشباح ابتعدت عن المقبرة واختفى آخرها خلف الأشجار، ارتمى فوق قبر جدتي يجهش بالبكاء ، وبقي هكذا حتى جاءت أمي وسحبته من يده برفقٍ.

في موسم الزيتون، وعندما كنت قد بلغت الخامسة من العمر، كنا نقف أنا وأختي شمس نراقب عن بعدٍ من أمام بيتنا الرجال والنساء يقطفون الزيتون

بصمتٍ، وفي المساء يرحلون حاملين أكياساً من الزيتون فوق ظهور الحمير. لم يتحدث أحدٌ منهم إلينا، ولم ينظر أيٌّ منهم باتجاهنا، مع أنني وشمس حاولنا لفت أنظارهم بأصواتنا وحركاتنا، وعندما انتهى أهل القرية من قطف الزيتون، بقيت دائرةٌ من الأشجار حول بيتنا لم يقتربوا منها، فقمنا نحن بقطفها.

سألت والدي بعد أن انتهينا من قطف الزيتون: «أبي، ألا يوجد في القرية أطفالٌ؟»

ابتسم والدي بحزنٍ ووضعني على ركبته بحنانٍ قائلاً: «لقد كان هناك أطفالٌ في القرية، لكنّ ارواحهم صعدت إلى السماء».

فقلت: «وهل عادوا إلى السماء لأنَّ الناس لا يتحدثون إليهم؟»

لاحظت دمعةً على خدِّ والدي ورأيته ينظر إلى أمي كمن يستجير بها، فتوقفت أمي عن دقِّ الزيتون بحجرها المدوَّر، وتنهدت بصوتٍ مرتفعٍ وسمعتُ عائشة السمراء تقول: «لا حول ولا قوة إلى بالله».

قالت أمي بصوتها الصارم ولكن الحنون: «لم لا تساعديني وأختك في دقِّ هذا الزيتون؟»

«أبي»، سألته ثانيةً: «هل سنذهب أنا وشمس إلى السماء مثل أطفال القرية؟»

«لا يا حبيبتي»، قال وهو يرفع شمس لتجلس على ركبته الأخرى ويضمنا إلى صدره، «فأنتما اللتان ستعيدان الأطفال إلى القرية يوماً ما»، ثم قال وهو ينزلنا عن ركبته ويقف منتصباً: «أما أنا فعلي إحضار الحطب، وإلا لن نتعشّى هذه الليلة».

«أبي، وكيف سنعيد الأطفال إلى القرية؟» قلت بإصرارٍ.

فقال بابتسامةٍ واهنةٍ: «يوماً ما ستجدان طريقةً، أما الآن فساعدا أمكما».

كنا نتناول العشاء حين سمعنا طرقاً خفيفاً على الباب ولم يجرؤ أحدٌ منا على التحرك، «ترى من يكون الطارق ونحن لم يزرنا أحدٌ طوال هذه السنين؟» قالت عائشة السمراءُ وهي تسير بجسدها الضخم نحو الباب. توقفنا عن الأكل وعيوننا تتجه نحو الباب، وبقي السؤال معلقاً فوق شفاهنا.

عادت عائشة مرة أخرى، وخلفها كانت تسير امرأةٌ تلبس عباءةً سوداءَ تغطيها من رأسها حتى قدميها وتمسك طرف العباءة بيدها لتغطي بها وجهها، ثم قالت فجأة بصوتٍ ناحبٍ: «لو عرف أهل القرية أنني جئت إليكم لقتلوني، لكني لم أجد طريقةً أخرى، لم أجد طريقةً أخرى ...»، وبدأت بالبكاء بصوتٍ خافتٍ.

وقفت أمي ووضعت يدها على كتف المرأة التي انتفضت حين لمستها، وطلبت منها الجلوس، تابعت المرأة التي رفضت الجلوس كلامها بين شهقات بكائها: «ابني مريضٌ، إنه مريضٌ، أرجوك، ابني الوحيد، يقال في القرية إنك ساحرةٌ وإن من يقترب منك سوف يموت! لا يهمني الموت، لا يهمني أن أموت لكن أنقذي ولدي، أرجوك افعلي أي شيءلإنقاذه»، قالت هذا ونزلت إلى الأرض تحاول تقبيل قدمي والدتي، فرفعتها أمي وقالت لها بهدوءٍ: «ممَّ يشكو ابنك؟»

«إنها الحمى»، قالت المرأة ومسحت دموعها بطرف عباءتها السوداء، فرأينا عينيها المتعبتين، «إنه يرتجف ويتصبب عرقاً، وأحياناً يهذي ويقول أشياءَ غيرَ مفهومةٍ ثم يذهب في غيبوبةٍ! سوف يموت، سوف يموت، أنقذيه»، وحاولت مرة أخرى أن تقبِّل قدمي والدتي التي رفعتها وأجلستها على كرسيٍّ، وطلبت من عائشة أن تسقيها الماء وقالت لها: «انتظري هنا»، ثم عادت ومعها كتابٌ وقلبت بين صفحاته: «هل يتقيأ؟» سألت أمي المرأة، «نعم، لكنه لم يأكل شيئاً منذ أيامٍ، سوف يموت... »، وعادت للنحيب مرةً أخرى.

خرجت أمي من الغرفة، وقامت عائشة السمراء وضمت المرأة إلى صدرها وقالت

لها: «لا تخافي، فسيدتي ستجد لك حلاً، لا تخافي».

قالت المرأة بصوتٍ مرتجفٍ: «ولكنهم إن عرفوا أنني جئت إلى هنا سيقتلونني!»

«لن يموت أحدٌ، اهدئي وتوكلي على الله»، قالت عائشة.

عادت أمي وفي يدها مجموعةٌ من الأعشاب قدمتها للمرأة وطلبت منها أن تغليها وتقدمها لابنها المريض ثلاثَ مراتٍ في اليوم. حملت المرأة الأعشاب ووقفت مترددةً، نظرت إليها أمي بابتسامةٍ متسائلةٍ، فقالت المرأة: "ولكن، ألن تقتلينني؟ أعني...، هل...؟"

"لا، فأنا صائمةٌ عن القتل لمدة شهرين".

فقالت المرأة: "أشكرك، إنك طيبةٌ"، وخرجت مسرعةً.

حجرة الكتب في بيتنا الصغير كانت مكاننا المفضل أنا وأختي شمس، فقد وضع أبي على جدرانها رفوفاً ورتب مع أمي الكتب فوقها بعنايةٍ فائقةٍ. كانت هذه الحجرة أكثر هدوءاً من أيِّ مكانٍ في البيت، وكنت أحب أن أجلس هناك بين الكتب وأشم رائحة الورق التي كانت تعبق بها الغرفة، رائحةً لم أعرفها في أيِّ مكانٍ آخرَ، ظللتُ أحملها في ذاكرتي وأبحث عنها بقية حياتي، رائحةً كرائحة المسك المخلوط بالأعشاب العطرية، تتخلله رائحة شيءٍ قديمٍ لا أستطيع أن أعرف له اسماً أو وصفاً، لكنها موجودةٌ هناك في ذاكرتي وما زلت عبثاً أحاول استحضارها.

كنت وشمس نقلب الكتب ونتفرج على الصور، ونتخيل أنفسنا مرةً طائر الجنة الملوّن، ومرةً سفينةَ نوحٍ، ومرةً مارداً مخيفاً، كانت الصور تمنحنا خيالاً لا ينتهي، ومجالاً لاختراع الكثير من الألعاب. لم تحاول أمي أن تخرجنا مرةً من حجرة الكتب بالرغم من حرصها الشديد عليها، بل كانت تشجعنا على أن نتصفح

الكتب كل يوم، وكانت تقرأ لنا كل يوم ساعةً تقريباً. تولت أمي مهمة تعليمنا، وفي أوقات الدروس كانت شديدة الصرامة، علمتنا الحروف والأرقام وكيف نحمل الريشة ونخطُّ حروفنا الأولى، ولم تكن تغضب حين نلوث أصابعنا بالحبر الأسود، كانت تجلس على كرسيٍّ في حجرة الكتب تقرأ كتاباً، بينما نحاول نحن كتابة الكلمات عشرات المرات حتى نصل إلى الإتقان الذي تريده أمي، وكان إرضاؤها في هذا المجال صعباً.

"هذا الحرف يميل إلى اليمين وهذا إلى اليسار، يجب أن تأخذ الحروف اتجاهاً واحداً، يجب أن تكون جميلةً ومتناسقةً، أعيدوا النسخ ثلاث مراتٍ أخرى"، كانت تقول ذلك بطريقةٍ صارمةٍ لا يجدي معها الاحتجاج أو التذرُّع بالجوع أو التعب. وكانت في لحظات صفائها تحكي لنا عن المدينة وعن جدنا الذي كان ينسخ الكتب إلى جانب بيعها، وكيف أن شهرته كناسخٍ جيدٍ قد جابت الآفاق، وأن الناس كانوا يأتون إليه من كلِّ حدبٍ وصوبٍ لينسخ لهم الكتب ويخطَّ لهم الرسائل بخطه الجميل.

وكانت، مرتين في الأسبوع، تعطينا دروساً في فنِّ استعمال الأعشاب وأماكن وجودها وما يصلح منها ولماذا يستعمل كلُّ نوعٍ، وكنا نقضي الساعات في المطبخ نتعلم خلط الأعشاب وتمييزها من خلال روائحها وأشكالها، ونحاول أن نلفظ أسماءها الصعبة.

أما أبي فقد تولى مهمة تعليمنا عن بقية النباتات، أسمائِها وأشكالِها ومواسمِ زراعتها، ومواسمِ تقليم الأشجار وأنواع الزهور، وعلمنا كيف نصنع أفخاخاً للعصافير، التي كان يطلقها بعد أن نمسكها بالرغم من احتجاجاتنا المتواصلة، كما علمنا كيف نحلب الغنم، وكيف نميز أنواع الطيور، وفي عيد ميلادنا الرابع أهدى كل واحدةٍ منا قوساً وجعبة أسهمٍ صنعها لنا بيديه، وقضى معنا الساعات وهو يعلمنا شد الوتر وضرب السهم. كنا نخرج معه في رحلات صيدٍ فوق الجبل،

وكثيراً ما كان ينتقي صخرةً بعينها، مرتفعةً ومشرفةً على الوادي، قائلاً إنه كان يلعب مع أصحابه هنا، وكانوا ينصبون الأفخاخ للأرانب. كنا نرجوه أن يحكي لنا عن هذه القرية الغامضة التي نسكن بجوارها ولا نعرفها، وكان يسرد لنا الحكايات عن طفولته وعن المرة الأولى التي زار فيها المدينة.

في إحدى المرات، وبعد عودة والدي من زيارته للمدينة بعدة أيام، صار يختفي طوال النهار ليعود في الليل أشعث الرأس منهكاً. لم نكن نعرف أين كان يذهب، وذات مرةٍ حاولنا اللحاق به فانتهرنا بشدةٍ وأمرنا بالعودة إلى البيت. أمي وحدها كانت تعرف، وكانت كل صباح تناوله سلةً مليئةً بالطعام وتودعه بابتسامة، وفي المساء نسمعهما يتهامسان.

بعد شهرين من اختفاءات والدي المتكررة عاد ذات مساءٍ وقال لوالدتي: "لقد انتهيت!" ابتسمت والدتي وقالت له: "ها قد حققت حلمك! هذا المساء سنحتفل بعشاءٍ فاخرٍ".

"أبي"، سألته بفضول، "ما هو الحلم الذي حققته؟ هل كنت تختفي لهذا السبب؟"

فقال وهو يحملني ويدور بي في الغرفة: "لقد بينت جسراً فوق الوادي، والآن يستطيع أهل القرية أن يذهبوا إلى المدينة متى شاؤوا، أليس هذا جميلاً؟ وربما سآخذكم إلى المدينة في الربيع".

"لقد اشتقت للمدينة كثيراً"، قالت أمي، "وسأريكم بيتنا هناك، وسآخذكم إلى كلِّ الأماكن التي كنت أذهب إليها وأنا صغيرة، وسأعرفكم بأقربائي فيها، وسأشتري لكم ثياباً جميلةً وأحذيةً مطرزةً بالذهب". بدت أمي منفعلة جداً إذ انخرطت بالبكاء، فقال أبي: "لا تقلقا، إنها تبكي من الفرح". أما أنا فقد ذهبت إلى النوم في تلك الليلة وأنا أحلم بالمدينة ومبانيها وأسواقها وشوارعها وأهلها.

استيقظنا في اليوم التالي على صراخ عائشة السمراء وعويلها: "يا سيدي سعيد، يا سيدتي جواهر... يا سيدي...!"

ركضنا كلنا إلى الخارج حيث كانت عائشة السمراء تضرب على رأسها بيدها وتصرخ "انظروا، انظروا!" كانت ألسنة الدخان الرمادية تتصاعد من الوادي إلى الجبل مُشكِّلةً سحابةً سوداءَ فوق الأشجار.

"انتظروا هنا"، قال والدي واختفى عن أنظارنا خلف الجبل، وعاد بعد وقتٍ قليلٍ مطأطئ الرأس وقال بصوتٍ كسيرٍ: "لقد حرقوا الجسر!" ولم يقل شيئاً آخر، ودخل إلى حجرة الكتب وأغلق الباب على نفسه. حبس والدي نفسه في حجرة الكتب أسبوعاً كاملاً، ولم يسمح لأحدٍ بالدخول إليه سوى أمي التي كانت تدخل له أطباق الطعام، وكانت غالباً ما تعود بها كاملةً لم تنقص لقمةً واحدةً. تدخل أمي عدة دقائق تتهامس مع والدي ثم تخرج وعلى وجهها علامات القلق، وتجيب نظراتنا المتلهّفة القلقة باقتضابٍ: "سيخرج قريباً".

ساد الحزن أجواء البيت، وافتقدنا صوت والدي ومرحه، وصرنا نتحدث همساً وكأننا لا نريد إزعاجه في عزلته، لا نعرف ما الذي أصابه بالضبط، حتى عائشة التي كانت دائماً تغني بصوتها القوي توقفت عن الغناء وصارت تتحدث إلينا همساً، وكلما سألناها عن والدي كانت تقول: "الله يرد له صحته ويقويه".

وفي مساء اليوم الثامن خرج أبي فجأةً من حجرة الكتب حاملاً بيده ورقةً رسم عليها خطوطاً وأشكالاً، وقال بصوت عالٍ: "سأبني الجسر مرة أخرى"، وحملني وشمس وبدأ يدور بنا في الغرفة كمن أصابه مسٌّ، وبدأ بالغناء.

جاءت أمي من المطبخ على صوت أبي مبتسمةً وهي تمسح دموعها: "ابنِهِ مرةً أخرى وسأساعدك، سنساعدك كلنا".

وفجأةً سمعنا طرقاً خفيفاً على الباب، أنزلنا والدي عن كتفيه ونظر إلى أمي نظرةً

متسائِلةً فهزّت كتفيها مستغربةً، وذهب إلى الباب.

"أهلاً وسهلاً بأخي عمر، تفضل بالدخول"، سمعنا والدي يرحب بالضيف.

كان عمر أكبر من والدي قليلاً، قصيرَ القامة ونحيفاً جداً، وله لحيةٌ طويلةٌ بدأ يشوبها الشيب.

"اعذرني لأني أتيت في مثل هذه الساعة المتأخرة"، قال عمر بصوتٍ عميقٍ وتابع: "لكنك تعرف أهل البلد، إنهم لا يرحمون، ولو عرفوا..."، ولم يكمل جملته.

قال والدي: "تفضل بالجلوس".

بدأت وشمس نقترب من الغريب الجالس أمامنا، نراقبهُ ونتفحصهُ، فهذا أول رجلٍ نراه عن قربٍ من أهل القرية، وكان الفضول يدفعنا إلى الأمام والخوف يدفعنا إلى الخلف، وتسمّرنا على عتبة باب غرفة الجلوس، فقال والدي عندما رآنا متسمّرتين هناك: "تعالا ولا تخافا، هذا صديق طفولتي عمر"، ثم أشار إلينا وقال بفخرٍ: "ابنتاي شمس وقمر".

"ما شاء الله! ما شاء الله!" قال الرجل وهو يبتسم.

"هذه جميلةٌ، بل رائعة الجمال!" قال وهو يشير إلى شمس، "أما هذه فعجيبةٌ من عجائبه تعالى!"

دخلت أمي إلى الغرفة فانتفض الغريب واقفاً ونظر إلى الأرض، فقالت له أمي: "تفضل بالجلوس". جلس متردداً وكان ما زال ينظر إلى الأرض، ثم تنحنح وتابع موجهاً كلامه لأبي: "أنا آسف جداً لأن أهل القرية أحرقوا الجسر، لقد جئت لأخبرك أنني وبعض الأصدقاء في القرية رحبنا بفكرة بنائه، وإن لم نجرؤ على البوح بذلك، لكن مجلس شيوخ القرية قال إن هذا الجسر يقود إلى الفسق، وإن خروج الرجال إلى المدينة في أي وقت من السنة سيعود على القرية بمزيد

من المشكلات ، فقد تسبب خروج سليمان بتلك المشكلات، وعفواً..."، ونظر إلى الأرض مرةً أخرى.

فقال أبي: أنا وزوجتي، نعتقد أن مشكلات القرية ليست بسبب خروج سليمان، وإنما ربما هناك أسبابٌ أخرى، ونعتقد أنه قد آن الأوان لأن ...".

فقال عمر كمن بوغت: "ماذا تقصد يا سعيد؟

قال أبي مبتسماً: "هذا ليس كفراً، وأنت يا عمر لولا خوفك من شيوخ القرية لذهبت إلى المدينة دون رجعةٍ، ألم تقل لي هذا".

هبَّ عمر واقفاً كمن لسعته أفعى: "لا أريد التحدث في هذا الأمر، لقد جئت فقط لأبلغك أسفي الشديد لحرق الجسر، السلام عليكم"، وخرج بعد أن انحنى انحناءةً بسيطةً لأمي وهو ينظر إلى الأرض.

أغلق أبي الباب خلفه وعاد وهو يفرك يديه بعضهما ببعض: "لاحول ولا قوة إلا بالله!"

سألته أمي: "حسناً، وبعد؟"

"سأبدأ بإعادة بناء الجسر غداً"، أجابها بإصرار.

كنت فوق شجرة الزيتون وكانت شمس ترجوني أن أساعدها في الصعود إلى الشجرة حين رأيت شبحين أسودين من بين أشجار الزيتون يظهران ثم يختفيان، ارتعبتُ كثيراً وكدتُ أقع عن الشجرة فوق أختي التي كانت ما تزال مستغرقةً في الرجاء والصياح، ولم أقف لحظةً واحدةً، حين وصلتُ الأرض أمسكتُ بيد شمس وركضتُ إلى أمي ساحبةً أختي ورائي وأنا أصرخ: "أمي، أمي، أشباح... أشباح!"

خرجت أمي وهي تجفّفُ يديها بقطعة قماشٍ ووقفت أمام الباب، ركضتُ

وشمس نحاول الاختباء خلف ظهرها ونحن نطلُّ من خلفها.

كان الشبحان لامرأتين من القرية متشحتين بعباءتين سوداوين مثل المرأة التي زارتنا قبل شهر، وكانتا تغطيان وجهيهما بطرفي عباءتيهما، وقفت المرأتان أمام البيت ونظرتا طويلاً إلى أمي كأنهما تريدان التأكد من عدم ظهور قوىً شريرةٍ حولها، ثم نظرتا إلينا، فقالت إحداهنّ: "ما شاء الله، والله أكبر!" وظلّت المرأتان تنظران إلينا فترةً من الوقت حتى بادرتهما أمي: "تفضلا بالدخول".

دخلت المرأتان إلى حجرة الكتب خلف أمي التي أغلقت الباب خلفها، وحين حاولنا الاحتجاج كانت يدا عائشة السمراء القوية تشدُّ على رسغينا وتجرُّنا خلفها إلى المطبخ. بقيت أمي والمرأتان فترة طويلة في حجرة الكتب ثم سمعنا باب الحجرة يفتح، وصوت أقدامٍ، ثم صوت باب البيت يغلق.

دخلت أمي إلى المطبخ وعلى وجهها ابتسامة انتصار كتلك التي نراها على وجهها عندما تنجح في صناعة مرهمٍ جديدٍ، أو تكتشف نوعاً جديداً من الأعشاب.

لم تقل أمي شيئاً، فقط تبادلت نظراتٍ ذات معنىً مع عائشة السمراء التي قالت لنا: "اذهبا وأحضرا لي بعض حبات البندورة من الحديقة"، وحين حاولنا الاحتجاج نظرت إلينا بحزمٍ وقالت: "الآن".

وحين عاد أبي في المساء استقبلناه أنا وشمس بالأخبار عن المرأتين اللتين حضرتا لرؤية أمي. نظر أبي إلى أمي نظرةً متسائلةً، فابتسمت وقالت لنا: "دعا والدكما يغتسل أولاً ويتناول عشاءه". على العشاء قالت لوالدي: "زوجتك الغريبة ساعدت امرأتين من القرية اليوم"، ثم أكملت ضاحكةً: "لن تصدق الحكايات التي تحكى عني في القرية!"

فقال أبي مبتسماً: "بل أصدق، هذه قريتي وأعرفها جيداً".

أسئلة الجزء الثاني

1. لماذا جعلت الكاتبة الطفلة قمر تروي القصة؟
2. من هما التوأم؟ صف كلاً منهما.
3. لماذا لم تفتح الجدة لسعيد؟ ولماذا كانت تبكي وتنتحب؟
4. ماذا فعل سعيد بعد ذلك؟
5. ماذا قالت الجدة للخادمة قبل موتها؟ وما معنى قولها؟
6. هل كانت جواهر ساحرة حقّاً؟ علل ما تقول.
7. لماذا بنى سعيد جسراً؟
8. زارت جواهرَ ثلاثُ نساء وزار سعيداً صديقه عمر. ما مغزى هذه الزيارات في القصة؟
9. العمل قيمة أساسية في حياة الناس، سعيد نصب خيمة وبنى بيتاً على أطراف القرية وبنى جسراً، وجواهر تعالج المرضى، وسكّان القرية يحاربون المعرفة والاتصال بالعالم. اكتب تعليقاً على سلوك القرية.
10. جواهر تحب الناس وتعالجهم، لماذا قالت للمرأة: "أنا صائمة عن القتل لمدة شهرين"؟

الجزء الثالث

الرحيل

كم مضى على تلك الأحداث! أربعون عاماً، يا إلهي كم تبدو بعيدةً، بعيدةً جداً، وكأنّها حدثت في حياةٍ أخرى، لم أكن أعرف وقتها أنني سأترك القرية إلى الأبد مصطحبةً معي كتاباً واحداً فقط! لم أكن أعرف أنني سأرحل، وأن رحيلي سيستمر أربعين عاماً! ومع ذلك أذكر تفاصيل تلك الفترة بدقةٍ، أستحضر رائحة الأعشاب التي كانت أمي تخلطها وتحرقها وتغليها، أكاد أشمُّ رائحة عرق عائشة السمراء وهي تضعني في حجرها وتمشط شعري.

تلك كانت فترة الأحداث العظام، الأحداث التي جعلت القرية تغير معالمها وعاداتها ومعتقداتها.

فُتِنت أمي بقضية الشجرة، الشجرة في وسط القرية، وطلبت إحضار بعض أوراقها وقطعة من لحائها، واختفت في حجرة الكتب يومين متتاليين، ثم انتقلت إلى المطبخ وصارت تنتقل ما بينهما وهي في حالة هيجانٍ شديدةٍ، ولم أستطع التحدث إليها على الإطلاق، ولولا وجود عائشة السمراء لوقع البيت في فوضى مستحيلة.

وفي أحد الأيام طلبت إلى والدي أن يحضر لها زوجاً من الأرانب من المدينة، ذكراً وأنثى، ومرة طلبت إلينا نحن البنات جمع الضفادع لها. كان أهل القرية قد اضطروا إلى استيراد إناث الحيوانات من المدينة للتزاوج ، لكنهم ظلّوا يرفضون استيراد إناث البشر لنفس الغاية، أعني التزوج من خارج القرية.

وذات يومٍ دخلتْ أمي إلى غرفة الكتب وأغلقتْ الباب على نفسها ولم تخرج حتى المساء، كانت جاحظة العينين شاحبة الوجه، شعرها أشعثُ وملابسها

متسخةٌ، ثم قالت بصوتٍ مبحوحٍ: «نادوا أباكم».

جاء أبي مسرعاً، فركضت أمي نحوه وهي تقول: «حللتها... حللتها، ها ها ها». وفجأةً تركته وصارت ترقص وتدور حول نفسها وهي تضحك.

ماذا حلّ بأمّي! لا بد أن الساعات الطوال التي قضتها حابسةً نفسها في حجرة الكتب أدت إلى خروجها عن هدوئها ! لم نرها بمثل هذه الحالة من قبل. أمسكها والدي من يديها يحاول إجلاسها ويهدّىء من روعها، ثم قال لعائشة: «أحضري لها كوباً من الماء، بسرعة».

انتفضت أمي واقفةً: «لا أريد ماءً، أريد أن أرقص وأصرخ وأقفز وأغني!»

دارت حول نفسها عدة مراتٍ ثم قالت وهي تلهث: «لا توجد لعنةٌ، لا يوجد سحرٌ، كلها خرافاتٌ!»

كنا ما زلنا مذهولين من حالتها عندما قالت: «إنها الشجرة الكبيرة هي السبب»، قالت وهي لا تستطيع التقاط أنفاسها، وبعد أن تعبت من الرقص والدوران جلست وهي تمسك بيد أبي وقالت لاهثةً: «شجرتكم المقدسة يا سعيد! هذه الشجرة تفرز مادةً تؤثر على جنس الجنين، كل الذكور، الرجال، الحمير، الغنم، البقر، الخيل وحتى الحشرات! ها ها».

فقال أبي وهو يشير إلينا بالجلوس بعد أن لاحظ أننا ما زلنا واقفاتٍ والدهشة والذهول على وجوهنا: «هل تستطيعين أن تشرحي ذلك بهدوء ودون انفعالٍ؟ فأنا لا أفهم شيئاً يا جواهر».

قالت أمي وهي تتنفس ببطءٍ حتى تسيطر على انفعالها: «الشجرة الكبيرة التي يجلس تحتها الرجال كل مساءٍ، الشجرة التي لا يسمح للنساء بالاقتراب منها لئلا تسقط أوراقها».

«أعرفها، أعرفها، وبعد؟» قال أبي.

«الشجرة الكبيرة الموجودة هناك على طرف القرية والتي لا يعرف لها أحد اسماً أو نوعاً».

قال أبي بنفاد صبرٍ: «وبعد يا جواهر؟»

«وجدت مادةً في الأوراق تؤثر على جنس الجنين... انتظر هنا»، ثم ذهبت مسرعةً إلى حجرة الكتب وأحضرت كتابين، فتحت الأول: «انظر، أليست هذه شجرتكم؟» وفتحت الكتاب الثاني: «وها هي أيضاً»، وأعطته الكتابين وقالت له: «اقرأ ما هو مكتوبٌ هنا»، وأشارت إلى الصفحات.

رفع أبي عينيه عن الورقة وقال: «أظن أن هذه الأشجار موجودةٌ في إحدى جزر الصين!»

قالت له: «تابع القراءة».

«وهي معروفة هناك وتستعمل أوراقها لأغراضٍ طبيةٍ، ويقيمون الاحتفالات السنوية لها، لما لها... «.

نظر إلى أمي فقالت: «أكمل، أكمل».

«لما لها من قدراتٍ على تذكير الجنين، ولهذا تذهب إليها النساء في تلك الجزيرة، ويقدمن العطايا والنذور كي يلدن ذكوراً».

«لكن»، قال أبي وهو يغلق الكتاب، «كيف وصلت إلى هنا؟»

قالت أمي: «إن لله في خلقه شؤوناً!»

قال أبي متسائلاً: «إن هذه الشجرة موجودةٌ هنا منذ مئات السنين، لماذا في هذه

الفترة...؟»

فقالت أمي: «اقرأ هنا»، وأشارت إلى صفحةٍ في الكتاب: «تحتاج الشجرة إلى مدةٍ طويلةٍ قد تصل إلى مئتي عام حتى تبلغ نضوجها الكامل!»

فقال أبي: «حسناً، لقد عرفنا السر، لكن هذا لا يعني أننا وجدنا الحل!»

«آه، آه!»، قالت أمي، وكأن أبي قد ألقى عليها ماءً بارداً، وهبطت بتثاقلٍ على الأرض وقالت: «هذا هو الجزء الأصعب، عليك أن تقنع الرجال ألا يقتربوا من تلك الشجرة، فقد وجدت من خلال تجاربي على الحيوانات التي أحضرتها لي من المدينة، ذكوراً وإناثاً، أن الشجرة هي السبب».

كانت هذه إحدى الحادثتين المهمتين في القرية، والأخرى كانت مفاجأةً لا تقل عظمةً عن اكتشاف السرّ. لقد انتخب عمر صديق والدي رئيساً لمجلس شيوخ القرية بعد وفاة الشيخ الأكبر، وفرح والدي كثيراً بهذا الخبر الذي قد يعني انتهاء عزلته وكسر الصمت. كنت قد بلغت الخامسة عشرة حين حدثت هذه الأمور، وكنت ما زلت لم أر القرية ولا أعرف شكلها.

بعد هذه الأحداث بوقتٍ قصيرٍ بدأ يطرأ تغييرٌ كبيرٌ على أمي، فقد ازداد شحوبها وبدأت تفقد من وزنها بسرعةٍ كبيرةٍ حتى لا تكاد تحملها قدماها، وازداد قلقنا عليها حين بدأت تسعل. كانت نوبات السعال تأتيها متباعدةً في البداية، تتبعها حشرجةٌ وضيقٌ في النفس، ثم بدأت نوبات السعال تتقارب، وحين تنتهي النوبة تترك أمي منهكةً بالكاد تلتقط أنفاسها، حتى بدأنا نرى على منديلها بعض بقعٍ من الدم. كانت أمي تضعف ضعفًا متسارعًا، ولم ينجح والدي ولا عائشة السمراء في علاجها حتى بعد أن جرّبا كلَّ شيءٍ: الأعشاب والعقاقير والأدوية التي أحضرها أبي من المدينة والماء الساخن، ولكنها كانت تذوي باطراد. كان من الصعب عليَّ رؤية أمي بهذا الضعف، فقد كانت دائماً قويةً دائمة الحركة، لديها جوابٌ لكلِّ

سؤالٍ وتعرف بالضبط ماذا تفعل، صارمةً ولكن في غاية الحنان، والآن ها هي مجرد شبحٍ فوق السرير بحاجةٍ إلى من يسندها كي تتكئ على الوسادة!

في ربيع ذلك العام ماتت أمي، تاركةً خلفها فراغاً لا يمكن لأحدٍ أو لشيءٍ أن يملأه. كنت وشمس نجلس ساعاتٍ في غرفتها أو في حجرة الكتب نبكي فقدانها، وكانت عائشة السمراء تدور من غرفةٍ إلى أخرى لا تعرف ماذا تفعل، وكأنها تبحث عن أمي في كل مكان، أما أبي المسكين فلم يحتمل فراقها، بنى لها قبراً بين أشجار الزيتون قبالة بيتنا، وكان يجلس هناك في النهار يبكي ويناجيها: «لماذا تركتني يا جواهر.. لماذا تركتني!» وفي الليل ينام بجانب القبر. استمر في رفض الطعام برغم كلِّ توسلاتنا، ورفض أن يدخل إلى البيت حتى يغتسل، ولم تشفع عنده دموعنا ولا رجاؤنا ولا بكاؤنا لساعاتٍ حتى يدخل البيت أو يأكل شيئاً، حتى صديقه عمر الذي جاء يزوره عدة مراتٍ فشل في إقناعه بذلك. كنا نشعر بالعجز أمام إصراره على الموت واللحاق بأمي، وصار كأنه يستعجل الأيام ليلتقي بها من جديد، ظهر عليه الضعف والهزال، وبدا كأنه أصيب بنوعٍ من الجنون، كان يبكي ثم يبدأ بالضحك فجأةً ثم يعاود البكاء. بقي والدي شهراً على هذه الحال، وكلما ازداد ضعفه ازداد إحساسنا بالعجز والقهر. وفي صباح يومٍ مشمسٍ وجدت عائشة السمراء أبي ميتاً ويداه فوق قبر أمي، فأقمنا له قبراً ملاصقاً لقبرها، وهكذا أصبحنا يتيمتين وليس لنا أحدٌ في هذه الدنيا.

بعد وفاة والدي بأسبوعٍ كنت في حجرة الكتب أحاول أن أنسى أحزاني بالقراءة، سمعت أصواتاً خارج البيت، ولما خرجت أستطلع الأمر كانت مجموعةٌ من النساء قد تجمعنَ وكنَّ يبكينَ بحرقةٍ، ثم تقدمت من بين صفوف النساء امرأةٌ تحمل شيئاً بين يديها، وحين اقتربتْ أكثر وضعتْ على الأرض بقرةً رضيعةً مولودةً للتو، وقالت وهي تجهش بالبكاء: «إنها أنثى!» ثم أضافت: «هذا بفضل أمك التي ظلمناها وقلنا إنها ساحرةٌ، أمك طاهرة !»

كم كنت أتمنى لو كانت أمي على قيد الحياة لترى انتصارها بعينيها، ولتشارك هؤلاء النساء فرحتهنّ بانتهاء اللعنة. حملت المرأة البقرة الرضيعة وسارت مع النساء إلى قبر أمي، ووضعت أنثى البقرة بجانب قبرها وقرأت الفاتحة بصوتٍ مرتفعٍ وشاركتها النساء الأخريات، ثم أخرجت إحداهنَّ سراج زيتٍ وأضاءته وتركته فوق قبر أمي، ثم رحلن جميعاً.

مع ولادة أول أنثى في القرية منذ سنينَ طويلةٍ، تحولت أمي إلى رمز للإنسانيّة ، وصارت نساء القرية كلما تولد أنثى يأتين إلى قبرها ، وصار من المشاهد المألوفة أن تأتي امرأةٌ وتجلس بجانب القبر تقرأ الفاتحة وتمضي.

مضت ثلاثة شهورٍ ونحن في حالة حزنٍ شديدٍ نلبس السواد. وذات يومٍ قالت عائشة السمراء، والتي بدا عليها الكبر فجأةً وصار شعرها رمادياً: «لقد أوصتني أمكما أنه إذا حدث شيءٌ لها أو لوالدكما أن آخذكما إلى بيت خالها في المدينة، لقد آن أوان الرحيل».

تحمست شمس للفكرة وبدأت تحضر أغراضها وأثوابها، ففكرة العيش في المدينة تلهب حماستها, أما أنا فقد رفضت مغادرة البيت وذكريات طفولتي وأمي وأبي، وكلما أمعنت شمس في تحضير نفسها للرحيل أمعنت أنا بالتشبث بذكرياتي.

حاولت شمس أن تقنعني بأنه لم يبق لنا شيءٌ في هذه القرية ناكرة الجميل، وأنه لم يبق لنا أحدٌ فيها، وحاولت أن تغريني بالمدينة ومباهجها، أما عائشة السمراء فحاولت أن تقنعني بضرورة تنفيذ وصية أمي، وقالت إنها تخاف أن تتركني وحدي بين الذئاب.

جاء يوم الرحيل، وبكت شمس كثيراً وتشبثت بي وصرخت باكيةً وقالت إنها لن ترحل من دوني، بدأت تخرج أثوابها من الصناديق وترميها على الأرض، ولم تهدأ حتى وعدتها باللحاق بها بعد وقتٍ قريبٍ. ظلت شمس تلوح بيديها

وهي تبتعد حتى غابت بين الأشجار، ولوهلةٍ فكرت باللحاق بها أطلب إليها أن تنتظرني، ثم نظرت إلى البيت خلفي، وإلى قبر والديّ وعدت وحدي إلى الداخل.

أمضيت بعد رحيل شمس ثلاثَ سنواتٍ لا أذكر الآن تفاصيلها، كانت رتيبةً لا فرق فيها بين يومٍ وآخرَ. ثلاث سنواتٍ لم أفعل فيها شيئاً سوى القراءة، وكنت في بعض الأحيان أرى من نافذتي بعض النسوة يتحلّقن حول قبر أمي يتركن شيئاً ثم يرحلن بصمت.

وصلت الليل بالنهار وأنا مستغرقةٌ في القراءة، ولما لم يعد هناك مزيدٌ من الكتب أقرؤها عرفت أن وقت الرحيل قد حان.

جاء الشيخ عمر ليودعني، وأخبرته أنني سأترك البيت كما هو، وكما تركه والداي، وأنني لن آخذ منه شيئاً سوى بعض الملابس، أما الكتب سأتركها كلها لأهل القرية، علّهم يوماً ما يرفعون الحظر عن القراءة، وأني سآخذ معي كتاباً واحداً فقط يصحبني في رحلتي. جمعت أشيائي في حقيبةٍ صغيرةٍ ووضعت كتاب «الرحلات العجيبة» بينها وأقفلت الباب، ألقيت التحية على والديّ ومشيت نحو الجسر دون أن أنظر ورائي مرةً واحدةً.

لاقتني شمس بصيحات الفرح، كانت قد تزوجت من أحد أقارب أمي، والذي يعمل تاجراً، وأنجبت توأماً، ولداً وبنتاً. وجدتها سعيدةً وكأنها خلقت لتكون زوجةً وأماً، وقالت إن زوجها طيبٌ، يحترمها ويحبها ويقدم لها كلَّ ما تطلبه، أما عائشة السمراء فقد ماتت قبل سنتين.

أقمت مع شمس قرابة ستة أشهرٍ، وقد أحببت طفليها وصرت أقضي معظم وقتي ألاعبهما وأحكي لهما القصص. بدأ زوج أختي يحدثني عن الزواج ويقنعني به، لكني لم أكن أفكر بالأمر، كان هناك شيءٌ واحدٌ يستحوذ على تفكيري وكلِّ كياني: السفر، كنت أريد أن أحقق أمنية أمي بزيارة كل البلدان العجيبة التي

تحدث عنها الكتاب، أريد أن أتعرف على بلادٍ أخرى وشعوبٍ أخرى.

وجاء يومٌ حضر فيه زوج أختي فرحاً وسعيداً وقال إن لديه أخباراً عظيمةً: «لقد طلب أمير المدينة يدك للزواج، فقد سمع عن جمالك وذكائك وحسن اطلاعك ويريدك زوجةً له».

كانت تلك إشارةٌ لي بالرحيل، فأنا لا أريد الزواج، ولا أريد أن أعرّض زوج أختي لغضب الأمير الذي كان زوجاً لأربع نساءٍ، والذي، كما قال زوج أختي، سيطلق إحداهنّ للزواج بي. حاولت شمس وزوجها إقناعي بالبقاء، وبكى الطفلان بحرقةٍ، لكنني كنت قد عزمت أمري.

«لكن إلى أين ستذهبين؟» قالت شمس، «فتاةٌ غير متزوجةٍ ترتحل وحدها، هذا جنون!»

قلت لها إنني سأصل إلى القدس ثم سأفعل ما كتبه الله لي».

وجد لي زوج شمس مكاناً مع قافلةٍ متجهةٍ جنوباً إلى القدس فيها بعض التجار الذين يعرفهم، فأوصاهم بي خيراً. ودَّعت شمس والطفلين اللذين لم يكفا عن البكاء، وركبت الجمل ومشيت نحو المجهول.

أسئلة الجزء الثالث

1. تروي قمر ما جرى بعد مدة طويلة، كم سنة مرت على الأحداث؟
2. اكتشفت الأم جواهر قيمة الشجرة التي يجلس تحتها الذكور فقط. ما وظيفة هذه الشجرة؟
3. كيف اكتشفت الأم وظيفة الشجرة؟
4. لماذا تغير رأي سكان القرية في جواهر؟
5. كيف كانت العلاقة بين الأب سعيد والأم جواهر؟
6. ما هي وصية الأم لأبنائها بعد وفاتها ووفاة زوجها؟
7. لماذا احتفظت قمر بكتاب واحد، وتركت الكتب الأخرى لأبناء القرية؟
8. لماذا رحلت شمس قبل قمر بثلاث سنوات؟
9. لماذا رفضت قمر الزواج من حاكم المدينة وقررت أن ترتحل؟
10. إلى أي مدينة كانت الرحلة؟

الجزء الرابع
الرحلة

سارت الجمال في اليوم الأول بسرعةٍ، فقد كانت الطريق منبسطةً تسير بين السهول، وكنا على الجمال نتمايل برتابةٍ. قبل غروب الشمس وقفت القافلة عند خانٍ يقع على طريقٍ مرتفعةٍ ومتعرجةٍ، وكنت سعيدةً بنزولي إلى الأرض بعد نهارٍ طويلٍ من التمايل على ظهر الجمل.

في القسم المخصص للنساء ألقيت نفسي على الفراش أفكر إن كان من الممكن حقاً مواصلة الرحلة، أم أن عليَّ أن أعود لشمس وطفليها في المدينة. اقتربت مني سيدةٌ وقالت بصوتٍ حنونٍ ذكرني بصوت أمي: «هل تسافرين وحدك؟» فأومأت لها بالإيجاب. جلست بجانبي على الفراش تتفرس في وجهي: «أليس لك أقارب في هذه القافلة؟» فأجبت بالنفي.

سألت متعجبةً: «وكيف سمح لك أهلك بالسفر وحدك هكذا؟»

فقلت لها إني سأزور بعض أقاربي في القدس، كذبت! فسألتني عنهم وأين يسكنون، فوقعت في حيرةٍ وترددت، ثم تذكرت اسماً لإحدى العائلات المقدسية كنت قد قرأته في أحد الكتب أعطيته لها، وقلت إنهم يسكنون قرب الحرم الشريف.

هزت رأسها: «عائلةٌ كريمةٌ». ندمت على ذلك كثيرًا ، واستغفرت الله.

قالت إننا المرأتان الوحيدتان في القافلة، ولكني لم ألحظ وجودها قبل ذلك، وإنها كانت تزور مع زوجها ابنها الذي يعمل كاتباً لدى قاضي المدينة، ثم قامت من مكانها وفتحت إحدى حقائبها الجلدية وأخرجت صندوقاً من الحلوى

قدمته لي، فأخذت القليل شاكرةً. كنت خائفةً من أن تزيد من أسئلتها ولا أجد إجابةً حاضرةً عن أهلي المزعومين في القدس، فقلت لها: «ربما يجب أن ننام لأن القافلة ستخرج عند الفجر».

في الصباح التالي، وعندما استيقظت ولم أجد السيدة في فراشها ولم تكن حقائبها موجودة، قفزت من الفراش وارتديت ملابسي بسرعةٍ وخرجت لأجد القافلة تتجهز للسير، ثم سمعت السيدة تنادي علي وهي فوق جملها، وقالت إنها طلبت من الحوذي المسؤول عن القافلة أن يضع جملينا معاً حتى نتمكن من الحديث في الطريق. ركبت على جملي الذي وقف بسرعةٍ عندما أحسَّ بثقلي فوقه، ولولا تشبثي بالحبل لوقعت ودُقَّتْ عنقي، ضحك بعض الرجال الذين رأوا المشهد، وأحسست أن وجهي صار شديد الحمرة من الخجل. واصلنا الرحلة وقد بدأت الشمس بالبزوغ بخجلٍ خلف الجبال، وكانت السماء تتلون بسرعةٍ من الأسود إلى الأزرق إلى الأخضر ثم البرتقالي. كنت في قريتنا أشاهد شروق الشمس كلَّ يومٍ، لكن هذا الصباح كان المشهد رائعاً، وكانت لحظاتٍ سحريةً خلت نفسي فيها أسبح في الهواء ورائحة الصباح الخريفية تنعش كلَّ حواسي، وجاء صوت غناءٍ خافتٍ من مقدمة القافلة زاد من سحر اللحظة، ولكن عندما طلعت الشمس وبدأت حرارتها تشتد عاودتني الشكوك والتخوف من هذه الرحلة، فقطع صوت المرأة وساوسي حين حكت لي عن ابنها الذي يعمل كاتباً في المدينة وكيف حصل على عمله الجيد هذا بسبب ذكائه ونباهته وتحصيله العلمي، بعدها انتقلت إلى الحديث عن أحفادها، فتذكرت شمس وطفليها وأحسست بدمعةٍ تنزلق فوق خدي.

عندما وصلنا الخان في الليلة التالية كنت قد عرفت تاريخ حياة السيدة وكيف تزوجت وكم من الأبناء والبنات لديها، وماذا يعمل أبناؤها وكيف زوجت بناتها الثلاث وأسماء أزواجهنّ، ووصف بيوتهنّ وصفاً دقيقاً، خاصةً الوسطى التي

تسكن في قصرٍ حقيقيٍّ. في اليوم الثالث بدا أن السيدة تنتظر مني أن أتكلم بدوري، وأحكي لها قصتي وتفاصيل حياتي كما فعلت هي، ولما بقيتُ صامتةً فترةً طويلةً بادرتني قائلة: «لقد حكيت لك كلَّ شيءٍ عني، ألن تحكي لي شيئاً عنك؟» أجبتها بالنفي .

في اليوم التالي وصلنا إلى مشارف القدس مع الغروب، وكانت أشعة الشمس تنعكس على أسوارها فتبدو عن بعد صفراء يتراقص فوقها اللون الأحمر، كان منظراً مهيباً يجعل النفس تشعر بالخشوع، وقبة الصحرة الذهبية تتوهج كضوء منارةٍ يرشد السفن إلى الأمان، ويرشد النفس إلى الطمأنينة. ابتل وجهي بالدموع من الفرح والخشية والإيمان والحب تجاه هذا الضوء الباهر.

قالت السيدة وقد رأت دهشتي: «إنها رائعةٌ، أليس كذلك؟» فأومأت بالإيجاب وكأنني لا أثق بأن تخرج مني الكلمات دون حشرجة البكاء.

قالت السيدة بجديةٍ: «والآن يابنتي، أخبريني بالله عليك، هل لديك حقاً أقارب في القدس؟»

هززت برأسي نفياً، وقلت: «الحقيقة أنني لا أعرف أحداً في هذه المدينة».

فقالت: «إذاً ستكونين ضيفةً عزيزةً وابنةً غاليةً علي، وستقيمين عندي حتى تتحقق مشيئة الله».

حاولت أن أرفض الدعوة السخية مع أنني في الوقت ذاته كنت خائفةً من أن تتراجع عن دعوتها أمام إصراري، فقالت: «لا يمكن أن أسمح لنفسي أن أدعك تنامين في الخان مع الغرباء! لن أقبل منك الرفض».

لقد برَّت السيدة أم نجم الدين بوعدها واستضافتني في بيتها، وكانت ترعاني وتهتم بي كابنةٍ لها، وكأنني بوجودي قد سددت فراغاً سببه غياب الأبناء والبنات

عن البيت. أما زوجها أبو نجم الدين فقد كان حقاً مثالاً للوالد الحنون، وكان قبل أن ينزل إلى السوق يسألني كلَّ يومٍ إذا كنت أحتاج شيئاً. قضيت ثلاثة شهورٍ من الراحة التامة والهدوء، وكنت قد بدأت أعتاد وأرتاح لروتين الحياة في بيت السيدة أم نجم. في بعض الأحيان كنا نتجول في السوق، وكانت خير دليلٍ لي في مدينتها التي ولدت وعاشت فيها، زرنا المسجد الأقصى والحرم الشريف، وذهلت لإبداع الزخارف فيهما وكثرة الخلق من كل الأجناس في باحاتهما، وزرنا كنيسة القيامة، وأكثر ما كان يمتعني في هذه الطلعات هو السير في السوق بين الحوانيت المكتظة بالبضائع والناس وسوق العطارين، حيث يشم المرء رائحة التوابل المختلفة مخلوطةً برائحة الفاكهة الطازجة والخضار التي تبيعها النساء من القرى، والشيء الآخر الذي كان يمتعني جداً هو الجلوس على النافذة، حيث كانت هناك فسحةٌ عريضةٌ للجلوس وضع فوقها مفرشٌ مريحٌ، وكانت النافذة مفتوحةً على مشربيةٍ تحجب الجالس بحيث أمكنني التفرج على الشارع دون أن يراني أحد. كنت أستمتع جداً بمراقبة الناس، أراقب حركاتهم وطريقة مشيهم وعاداتهم وطريقة استعمالهم لأيديهم أثناء الكلام.

في أحد أيام الشتاء الباردة أصيبت أم نجم بوعكةٍ ألزمتها الفراش، فاعتنيت بها وحاولت مساعدتها وقد أعادت لذهني أيام مرض أمي، وكنت في لهفةٍ وخوفٍ دائمين لئلا أفقدها كما فقدت أمي سابقاً. أحضر أبو نجم الطبيب الذي وصف لها أدويةً ومراهم متعددةً، إلا أنها لم تتحسن، بل على العكس ازداد وضعها سوءاً، وعندما عاد الطبيب اقترحت له أسماء بعض الأعشاب التي كانت أمي تستعملها في مثل هذه الحالات، فنظر إليَّ الطبيب باستخفافٍ وقال بسخريةٍ: «هل الآنسة طبيبةٌ؟» فقلت: «لا»، قال: «وهل الآنسة خبيرةٌ في علم الأعشاب؟» وقبل أن أجيب قال بضيقٍ شديدٍ: «أرجوك ألا تتدخلي في أمور لا تفهمينها، واتركي الأمر للمختصين»، وكتب لها مزيداً من الأدوية. عندما غادر الطبيب سألني أبو نجم من أين لي معرفة هذه الأعشاب، وهل هي حقاً مفيدةٌ في حالة

زوجته، فقلت له أن أمي كانت تستعملها في القرية.

«القرية؟ لكنك قلت لنا أنك من المدينة!» سأل باستغراب.

«نعم، أمي من القرية، ولكن أنا ولدت وعشت في المدينة».

لم يبد عليه الاقتناع لكنه رغم ذلك سألني: «وكيف تعرف أمك عن الأعشاب؟».

«لقد قرأت الكثير من كتب الطب وتعلمت منها بعض الأشياء».

لم يعلق أبو نجم على كلامي، وقف صامتاً يتفرس في وجهي علّه يكتشف شيئاً جديداً، ثم قال: «أعطني قائمة الأعشاب هذه، فهي إن لم تنفعها لن تضرها». لاحقاً عاد حاملاً معه الأعشاب التي طلبتها، فخلطتها بعنايةٍ حسب المقادير التي ما زلت أذكرها، ثم غليتها وجعلت أم نجم تشربها وتركتها لتنام، وعندما خرجت من غرفتها قال أبو نجم: «تعالي يا ابنتي، أريد التحدث إليك».

جلس على الفراش عند حافة النافذة التي تطل على الشارع وأشار لي بأن أجلس إلى جانبه: «لقد أصبحت في هذا البيت مثل ابنةٍ لنا، فقد بتنا أنا وزوجتي نحبك ونحترمك، وقد كنت في الشهور الماضية خير رفيقٍ لزوجتي في وحدتها، ولكني أعتقد أن هناك ما تخفينه عني، هل هناك ما تريدين أن تقوليه لي؟ اعتبريني مثل والدك ولا تخافي».

نظرت إلى وجه الرجل فرأيت فيه كلَّ معاني الحب والطيبة، لقد استقبلني في بيته وهو لا يعرف عني كثيراً، وعاملني كابنته. أحسست بالخجل لأني لم أقل الحقيقة، بل أحسست أني أسرق منه ومن زوجته الحنان والمحبة، فقلت له: «خفت أن أحكي لكم حكايتي فلا تصدقونني»، فقال: «احكي يابنتي ولا تخافي».

فحكيت له حكايتي من لحظة ولادتي في الخيمة تحت الجبل وقصة العزلة

ومشكلة القرية ، وكيف استطاعت أمي أن تحلّها، وكيف مات والداي وكيف أقمت عند أختي وكيف هربت فعلاً من زواج الأمير.

استمع الرجل الطيب إلى كل كلامي صامتاً، وبعد أن انتهيت ظلَّ صامتاً ينظر إلى البساط الملون تحت قدميه، فصرت أنا أيضاً أنظر إلى البساط وأنتظر منه أية ردة فعل، فقال: «هذه قصة غريبة فعلاً!» وسكت لمدة خلتها آنذاك دهراً، ثم تابع: «هذا بيتك، ويمكنك البقاء هنا معززةً مكرمةً كابنةٍ لنا»، ولم يقل أيَّ شيءٍ آخر.

في اليوم التالي بدا تحسنٌ ملحوظٌ على صحة أم نجم، فقد نامت الليل بطوله دون آلام واستيقظت مرحةً مستبشرةً ثم طلبت الطعام. كان فرح أبو نجم لا يوصف، وعندما عاد في المساء كان يحمل بيديه حزمةً من الكتب قدمها لي قائلاً: «لا بد أنك اشتقت للقراءة».

كانت هديته رائعةً بالنسبة لي.

مرَّ فصل الشتاء بارداً ورتيباً، قضيت معظم وقتي في القراءة والجلوس على النافذة وتبادل الأحاديث مع أم نجم التي تعافت تماماً واستعادت نشاطها ومرحها السابقين، وقد ألفت وجودي في هذا البيت الكريم مع هؤلاء الناس الطيبين. ومع حلول الربيع بدأ ذات الإحساس بالسفر والرحيل يلح عليَّ ويراودني، وبدأت أحس بالضيق والقلق. لاحظ أبو نجم حالتي فسألني: «هل أنت مريضةٌ يابنتي؟» فأجبته بالنفي، ثم قال: «هل هناك ما يضايقك؟ هل أساء إليك أحدٌ؟» فقلت له إنني سعيدةٌ ومرتاحةٌ بينهم، ولكن هاجس السفر بدأ يلح علي. فكر أبو نجم طويلاً ثم قال: «إذا كنت تنوين السفر فأنا لن أمنعك، لكن إلى أين سترحلين يابنتي ؟»

قلت له: «لقد سمعت عن عالِمٍ في بلاد المغرب يقال إنه أعجوبةٌ في علمه وحكمته، وأريد السفر إلى هناك لأتعلم على يده».

«لكن الطريق طويلةٌ وخطرةٌ على فتاةٍ وحيدة!»

فقلت: «إن الله يحمي عباده».

«ولكن أين نهاية المطاف يابنتي ؟»

أجبته: «بعدها سأمشي حسب مشيئة الله».

وهكذا كان، ومع بداية الربيع شددت الرحيل مع قافلةٍ أخرى متجهةٍ إلى غزة، ومنها إلى بلاد مصر. ودعتُ أبا نجم وأم نجم بالدموع، وكانت أم نجم تتشبث بي وترجوني أن أبقى معها ولو لشهورٍ قليلةٍ أخرى، فأمسكها أبو نجم وقال لها: «دعيها تسير في أمان الله»، ثم قال لي: « يابنتي ، هذا بيتك ونحن أهلك، فإن رجعت يوماً ستجدين هذا البيت مفتوحاً لك، وإن احتجت إلى أيِّ شيءٍ في أيِّ وقت فأنا موجودٌ لأجلك»، ودفع بيدي كيساً من النقود الفضية.

قافلةٌ أخرى ورحلةٌ إلى مصيرٍ مجهول.

لا أذكر كثيراً طريق الرحلة من القدس إلى غزة، فقد مرّت دون حوادث تذكر حتى أكاد أنسى أنني مررت بها، لكن الشيء الوحيد الذي لن أنساه كان البحر! لأول مرةٍ في حياتي أرى هذا الامتداد الشاسع من الأزرق ورائحة الملح وصوت الموج، والزبد الأبيض يتشبث بالشاطئ ثم يسحبه الموج بعيداً ليلقيه ثانيةً عليه. أحسست أن قلبي قد توقف عن النبض، وأن أنفاسي تكاد لا تخرج، وهذا المشهد المذهل للبحر يدعوني لأن أدخل فيه وأبقى هناك بين أحضانه، لم أكن أعرف حينها أنه ستكون لي مع البحر حكايات.

كان أبو نجم قد أعطاني رسالةً لصديقٍ له في غزة، وكان هذا الرجل بمثل طيبة أبي نجم، فقد رفض أن أقيم في الخان، وفتح لي بيته ودعاني للإقامة مع عائلته وبناته الأربع اللواتي كنَّ أصغر مني بكثير. في غزة تعرفت ثلاثةَ أشياء لن أنساها

ما حييت: البحر وعائلة أبي الحسن وطعم السمك.

لم أكن أنوي البقاء في غزة لفترةٍ طويلةٍ، كنت أريد أن أستأنف رحلتي قبل حلول الصيف وقيظ حره، فطلبت من أبي الحسن أن يجد لي قافلةً متجهةً إلى مصر. ودعت العائلة الطيبة، وركبت الجمل الذي أصبحت الآن معتادةً على ركوبه بثبات، وانطلقت إلى مصر.

القافلة المتجهة إلى مصر كانت أكبر كثيرًا من القافلتين السابقتين، تذهب هذه القافلة محملة بالصابون من نابلس والملح من البحر الميت والزيتون من جبال القدس والبرتقال من غزة، وتعود بعد أشهرٍ محملةً بالقطن والزوّار إلى القدس، ولما كان علينا اجتياز الصحراء فقد كان الجو في النهار حاراً جداً وفي المساء شديد البرودة، عندها كنا نتحلق حول النار نحاول أن ندفئ أجسادنا. في الليل كانت حلقات الناس تكتمل حول النيران المشتعلة يغنون ويتذكرون رحلاتٍ أخرى وقصصاً وحكايات. في القوافل يصبح الغرباء عائلةً واحدةً، يزول التحفظ بسرعة وتجري النكات والحكايات والأغاني، عائلةً واحدةً يجمعها حتى نهاية الرحلة مصيرٌ واحدٌ يربطهم برباطٍ قوي. في إحدى الليالي الباردة، وكنا قد انتهينا من تناول الطعام، وبدأت فناجين القهوة المرة تدور بين الجميع، سألت إحدى السيدات إن كانت هناك واحدة تعرف قصة لتسلينا، فقلت إني أعرف بعض الحكايات، لحظتها أحسست أني تسرعت وأنني ربما لن أستطيع أن أسرد حكايةً أمام هذا الجمع الكبير، فاحمرت وجنتاي، ولكنني لم أستطع التراجع أمام هذه النظرات التي أحاطتني والتي تنتظر مني أن أزيل وحشة البرد والليل بحكاية، فحكيت لهم حكايةً كنت قد قرأتها في أحد الكتب عن بحّارٍ ضاع في بحر الظلمات، وبقي سنين طويلةً وهو يصارع الموج والأهوال والوحوش البحرية، حتى انتصر في النهاية وعاد إلى أهله. بعد أن انتهيت من الحكاية بقي الناس صامتين وكأنهم مسحورون، وصاروا في كل ليلة يطلبون إليّ أن أحكي لهم حكاية،

يتحلقون حولي وينتظرون بشوقٍ أن أبدأ. وفي إحدى الليالي، وحين كنت أحكي لهم إحدى حكاياتي: «..... فحمل الفارس الشجاع سيفه الذي سقط وكانت ذراعه تنزف الدم بشدةٍ، فاقترب نحو الغولة التي قالت له بصوتٍ راعدٍ....»

«ابقوا في أماكنكم ولا تتحركوا».

صرخ الناس مذعورين، أما أنا فقد عقدت الدهشة لساني، هذا ليس صوتي! وهذا ليس جزءاً من الحكاية! التفتُّ منتبهة لأجد جماعةً كبيرةً من اللصوص وقطاع الطرق يغطون وجوههم بكوفياتٍ سوداءَ ويرفعون سيوفهم وخناجرهم، قال أحدهم موجهاً كلامه إلى رجال القافلة: «إذا قاومتم سنذبحكم جميعاً».

وضعت النساء أيديهن على أفواههن حتى لا يصرخن، وجلس الرجال على الأرض متهالكين ليس بيدهم حيلة أمام هذا الجيش من قطاع الطرق الذين تبدو عليهم الوحشية، ولا يتورعون عن فعل أي شيءٍ حتى ذبح إنسان. طلع النهار علينا ونحن جلوسٌ فوق الرمل، كان اللصوص طوال الليل يطلبون إلى النساء أن يرمين الحطب في النار كلما خبت، أما الرجال فقد أمروهم بالبقاء جالسين، وربطوا أيديهم خلف ظهورهم. في اليوم التالي أمرنا رجال العصابة بمواصلة السير، ظلت القافلة تمشي ببطءٍ وصمتٍ، وكلما تلكأ رجلٌ ضربه أحد رجال العصابة بالسوط. في الليل، وبعد أن جلس الجميع حول النار وتناولنا الطعام الذي حصل على معظمه رجال العصابة، صرخ رئيسهم فجأةً: «من منكن كانت تحكي الحكاية ليلة أمس؟»

لم يجب أحدٌ، لكن عيون الجميع اتجهت نحوي، فبدأت أرتجف من الخوف وضممت عباءتي حول جسدي، فقال الرجل: «تعالي وأسمعينا بقية القصة»، فوقفت وقدماي ترتجفان من الخوف، وضعت عباءتي على رأسي وأمسكت طرفها بيدي لأخفي وجهي تماماً كما كانت تفعل النساء في قريتنا. أشار إلي بأن

أجلس إلى جانبه وكانت رائحته كريهة، لم يعرف جسده جسده الماء والصابون منذ سنوات.

«أكملي»، أمر الرجل، وظهرت أسنانه الصفراء فبدت تحت شاربيه كأسنان ذئبٍ على وشك أن ينقض على فريسته. كنت أرتجف من الخوف، فكيف سأحكي حكايةً في مثل هذا الظرف المرعب! يا ليتني لم أفتح فمي في تلك الليلة!

«هيا»، صرخ الرجل، فبدأت الكلام وخرجت كلماتي متعثرةً ولا يكاد صوتي يخرج من حنجرتي، فضربني الرجل بيده على وجهي وقال: «لا أحب أن يجعلني أحدٌ أنتظر، قلت أكملي». فأكملت القصة وكان الدم النازف من شفتي يختلط بملح دموعي، وكان جسدي يرتعد خوفاً ورعباً، وعندما انتهيت صرخ رئيس العصابة بصوتٍ جعل حتى عظامي ترتجف: «لا أريد هذه النهاية، لا أحب الفرسان الطيبين! اجعلي الغولة تنتصر، هيا... أعيدي النهاية».

«لكن»، ترددت.

«ماذا؟» صرخ وقام من مكانه، فخفت أن يضربني ثانيةً وتراجعت إلى الوراء، وأكملت الحكاية وجعلت الغولة الشريرة تنتصر على الفارس الشجاع، صفق اللص بيديه وقال: «آه، كم أحب النهايات السعيدة». وصار رئيس العصابة يستدعيني كلَّ ليلةٍ لأحكي له قصةً كان يتدخل في تفاصيلها ويسيّر أحداثها بالطريقة التي يريد. وذات مرةٍ علّق قائلاً: «أنت ستجلبين لي ثمناً جيداً في سوق العبيد».

يا إلهي! هذه هي نهاية المطاف يا أبا نجم... سأباع في سوق العبيد!

أسئلة الجزء الرابع

1. لماذا كذبت قمر أول الأمر على أم نجم؟
2. أصرت أم نجم على استضافتها في بيتها، أين كانت ستبيت إذا رفضت عرض أم نجم؟
3. بماذا عالجت أم نجم بعد أن فشل الطبيب؟
4. لماذا قررت الرحيل؟
5. ما الأشياء الثلاثة التي أحبتها في غزة؟
6. ما الأشياء التي تحملها القافلة من فلسطين إلى مصر؟
7. ما الأشياء التي تعود بها القافلة من مصر إلى فلسطين؟
8. كانت قمر تروي حكايات لنساء القافلة. ما نوع هذه الحكايات، حاول أن تكتب مخططاً لحكاية عجيبة؟
9. ما قصة القافلة مع اللصوص؟ وما مصير قمر؟

الجزء الخامس

نور الهدى

لا أدري كم من الوقت قضينا نسير في الصحراء الحارة! كان رجال العصابة سريعي الغضب لا يتوانون عن ضرب أيٍّ كان إن تباطأ بالسير. كانت أيدينا مربوطةً بالحبال، وكلٌّ منا مربوطٌ بالآخر على شكل سلسلةٍ طويلةٍ، وكان السير في غاية الصعوبة والبطء. سقطت فردة خفي من قدمي، وعندما هممت بأن أتناولها أحسست بلسعة سوطٍ فوق ظهري، فوقعت أرضاً وأوقعت معي كل خط الرجال والنساء الذين كنت موثوقةً إليهم، مما أثار حنق رئيس العصابة الذي قال بصوتٍ مرعبٍ: «لولا أنك ستجلبين لي ثمناً جيداً لقتلتك الآن».

كنت ألوم نفسي طوال الوقت على إصراري على ركوب قافلةٍ في الصحراء بدلاً من ركوب البحر، كنت لغبائي أظن أن للصحراء سحراً تغنى به الشعراء، أردت أن أستشعر هذا السحر. فكرت في نفسي: «لماذا لا يسمحون لنا بركوب الجمال؟ سنسير أسرع بالتأكيد!» لكنني لم أجرؤ على أن أسال بصوت عالٍ. وأخيراً، وحين ظننت أنني أوشك على الموت همس الرجل الذي أمامي: «ها قد اقتربنا من القاهرة!» كنت منهكةً من المشي، أردت فقط أن أستريح، وكانت أقصى أمانيّ في تلك اللحظة جرعةً من الماء البارد. لم أسمح لنفسي طوال الطريق بالتفكير بِمَ سوف يكون؟ وماذا سيكون مصيري إن باعوني في سوق العبيد ؟ كانت كل طاقتي وتفكيري منحصرين بأن أضع قدماً أمام الأخرى وألا أسقط إعياء.

لو لم نقع أسرى هذه العصابة لكنت دخلت القاهرة بروحٍ أخرى! كنت لأتأمل الشوارع والناس والأبنية والحدائق، لكنني دخلتها وقد فقدت حريتي، كل ما تمنيته أن تنتهي هذه الرحلة، ولم يعد يهمني مصيري وأين سينتهي بي المطاف ؟ كل ما كنت أفكر فيه أن أتوقف عن المشي وأنال قسطاً من الراحة.

عندما وصلنا إلى القاهرة كان عدد الناس في القافلة قد أصبح أقل من النصف، فبعض كبار السن ماتوا من العطش، واختار رجال العصابة الأولاد حتى سن الخامسة عشرة ومعظم النساء، خاصة الشابات منهن، ليتابعوا الرحلة، أما البقية من الرجال والنساء كبار السن فقد تركوهم في الصحراء الحارقة دون قطرة ماء. سرنا في خطٍّ واحدٍ في شوارع القاهرة العريضة وأيدينا لا تزال مربوطةً خلف ظهورنا، يسوقنا رجال العصابة كما يسوقون الماشية. وقف بعض الناس على طرفي الطريق لينظروا إلينا، وسمعنا أحدهم يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله». وصلنا إلى مكانٍ في أحد الشوارع الخلفية الضيقة وكان علينا أن ننحني حتى نتمكن من دخول الباب الصغير، عندها وجدنا أنفسنا في باحةٍ كبيرةٍ في وسطها شجرةٌ ذابلةٌ، ثم خرجت امرأةٌ عجوزٌ من أحد الأبواب الخضراء التي تحيط بالساحة فخاطبها رئيس العصابة: «أطعميهم، وإياك أن تفكي قيودهم! وهذا لك»، ورمى لها كيساً من النقود وضعته العجوز قريباً من أذنها وصارت تحركه لتسمع رنين النقود في داخله.

لم أستطع النوم تلك الليلة من البكاء والخوف مما سيأتي: «ترى من سيشتريني؟ وكيف ستكون حياتي!؟» وندمت على قرار السفر مع القافلة. عندما أشرقت الشمس لم يكن قد غفا لي جفنٌ، وكانت عيناي متورمتين من كثرة البكاء. جاءت إلينا العجوز وصارت تفك قيودنا كلاً على حدةٍ حتى نغتسل من برميلٍ ماؤه ليس أكثر نظافةً من وجوهنا.

دخل اللصوص الباحة التي كنا متراصين فيها ومعهم بعض تجار العبيد وطلبوا إلينا الوقوف، وبدأ التجار يتفحصوننا بشكلٍ دقيقٍ، فتحوا أفواهنا ليتأكدوا إن كانت أسناننا في حالةٍ جيدةٍ، ثم انتحوا زاويةً بعيدةً في الباحة وبدأوا بالتفاوض على الثمن، وقعت مشادةٌ بين أحد التجار واللصوص حول الثمن الذي ينبغي أن يدفعه للحصول علي، فقد كانوا يشيرون إلي وكان التاجر يرفع يديه في الهواء

ثم ينزلهما، لم أسمع ما كانوا يقولونه، لكني فهمت من إشاراتهم أن اللصوص يريدون ثمناً أعلى من ذلك الذي طلبوه للنساء الأخريات، وكان الرجل يحاول أن يقنعهم بتخفيض الثمن. أخذ كلُّ تاجرٍ بضاعته ورحل، أما التاجر الذي اشتراني فقد كان قصير القامة وسميناً جداً، يتنفس بصعوبة لكثرة الشحوم المتراكمة عليه، كانت لحيته طويلةً ذات لونٍ برتقاليٍّ من أثر الحناء، إذ كان لونها يختلف عن لون حاجبيه وشاربه. بعد أن دفع الثمن للصوص أشار إلي ولامرأتين أخريين وطفل في الثانية عشرة وقال: «اتبعوني»، فخرجنا خلفه إلى الشمس وسرنا في الشوارع العريضة مرةً أخرى، حتى وصلنا إلى ساحةٍ مفتوحةٍ أقيمت عليها منصاتٌ مرتفعةٌ، يقف كلُّ تاجرٍ على منصةٍ منها وخلفه العبيد الذين يود بيعهم، وينادي على بضاعته ليلفت نظر الشارين.

«هذه امرأةٌ قويةٌ تقوم بكلِّ أعمال المنزل».

«هذا شابٌّ قويٌّ يمكنه أن يدير طاحونة قمحٍ بطعامٍ قليل».

بدأ تاجرنا يصيح على بضاعته بأنفاسٍ متقطعةٍ: «هذه التحفة النادرة من فلسطين، تحكي الحكايات وتصلح أن تكون جاريةً ، هيا، هيا، من قال مائة دينار؟»

التفت التاجر إليّ ، وقبل أن يتفوّه بكلمة ، سمعت صوتاً أنثوياً يقول: «ثمانون ديناراً». نظرت أسفل المنصة لأرى منقذتي التي حولت انتباه البائع عني، فرأيت امرأتين تلبسان أثواباً حريريةً فاخرةً، إحداهن تغطي وجهها بمنديلٍ حريريٍّ وردي، أما الثانية، منقذتي، فقد كانت تكشف عن وجهها. قال لها البائع: «يا سيدتي الفاضلة، ثمانون ديناراً مبلغٌ قليلٌ جداً على هذه الفتاة الفصيحة التي ستسليك بلسانها الحلو وحكاياتها الممتعة».

فقالت المرأة: «سبعون ديناراً».

قال التاجر: «حرامٌ عليك يا سيدتي، هذا قليلٌ! خمسةٌ وثمانون».

قالت: «ثمانون ديناراً لا أكثر».

«لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد دفعت فيها هذا المبلغ، لقد ضاع رزق عيالي!»

قالت: «ثمانون، ماذا قلت؟»

قال: «لا إله إلا الله، خذيها يا سيدتي، واعلمي أنني لم أربح فيها درهماً واحداً».

فك الرجل قيودي وهو يبتسم ابتسامةً خبيثةً وقال لي: «أطيعي سيدتك واحترميها».

نزلت عن المنصة فأومأت لي السيدة أن أتبعها ومن معها، فتبعتهما حتى ركبتا في عربةٍ فاخرةٍ يجرها اثنان من الخيول العربية الأصيلة. هممت أن أصعد العربة، فقالت السيدة: «ليس هنا، عند الحوذي»، فركبت إلى جانبه وهو يقود الحصان بصمت. كانت الشوارع التي عبرناها نظيفةً وعريضةً تحفها الأشجار، وصلنا إلى سورٍ ضخمٍ تتعلق فوقه أشجار الياسمين، واقتربنا من بوابةٍ كبيرةٍ على جانبيها حراسٌ مدججون بالسلاح، والذين ما إن رأوا العربة حتى هبوا لفتح البوابة الكبيرة. دخلنا طريقاً محفوفةً بالأشجار وكنت أسمع صوت العصافير تغني، وغناؤها يختلط مع صوت خطوات الحصانين على الحصى. سرنا مدةً طويلةً حتى توقف الحوذي، عندها رفعت نظري لأرى أمامي قصراً ضخماً لم أر مثله في حياتي. وقف الحوذي بمحاذاة الدرج الموصل إلى القصر، فهرع حراسٌ آخرون لفتح باب العربة للسيدتين، وما أن أطلت السيدة ذات الخمار الوردي حتى انحنى لها الحراس.

همس الحوذي لي قبل أن أنزل: «سيدتك هي أخت الملك، إنها طيبةٌ وسترتاحين في خدمتها»، ولم يقل شيئاً آخر وأشار إلي بالنزول. وقفت خلف السيدتين لا

أدري ماذا أفعل، وكانتا مستغرقتين في الحديث وكأنهما نسيتا وجودي ثم بدأتا بالسير، وأخيراً التفتت السيدة التي اشترتني وأشارت إلي أن أتبعها. صعدنا الدرج، حراسٌ آخرون وبابٌ آخر، فتح الباب لأجد نفسي في قاعةٍ ضخمةٍ فشهقت دون إرادةٍ مني، كانت الأرض مفروشةً بسجادٍ أحمر سميكٍ تغوص فيه القدم وعليه صور أسودٍ تتعارك، وعلى الجدران لوحاتٌ لصور ملوكٍ وأمراءَ مؤطرةٌ بأطرٍ من ذهب، وفي سقف القاعة تتدلى ثريا ضخمةٌ تضيؤها الشموع فتتراقص الألوان على زجاجها مثل الآلاف من أقواس قزح. ابتسمت المرأة لدهشتي ثم قالت: «هيا»، وبدأنا نصعد درجاً عريضاً وسط القاعة مكسواً أيضاً بسجادٍ أحمر، وعلى جانبيه درابزينُ خشبيٌّ مطعمٌ بالذهب. حين وصلنا إلى الطابق الأول قالت المرأة: «انتظري هنا»، واختفت المرأتان خلف أحد الأبواب التي يقف أمامها حارسٌ لا يتحرك حتى خلته تمثالاً. وقفت أتفحص المكان، كل شيءٍ يدل على ثراءٍ فاحشٍ وذوقٍ رفيعٍ، أنا إذاً في قصر الملك! قطع تأملي ظهور امرأةٍ تلبس ملابس بسيطةً وقالت بنوعٍ من القرف: «أنت الجارية الجديدة؟ اتبعيني». عندما سمعت كلمة جاريةٍ قفز قلبي خوفاً، كأن ما حصل لي في هذه الرحلة لم يكن كافياً لأرى الحقيقة. تبعتها وأنا أقول في نفسي: «أنت الآن جاريةٌ يا قمر، جاريةٌ، جارية!»

اختفت المرأة خلف ستارةٍ لم ألحظ وجودها من قبل، فقد كانت بلون الحائط وعليها زخارف مذهبةٌ، ثم مشيت في ممرٍ طويلٍ مغطًى بسجادٍ أخضر. فتحت المرأة أحد الأبواب المتماثلة على جانبي الممر فدخلت خلفها، وجدت غرفةً واسعةً بسيطة الأثاث فيها عددٌ من الأسرّة، أشارت لي أن أتبعها ثم فتحت باباً في جانب الغرفة، وكان حماماً كبيراً، وقالت لي: «بعد أن تستحمي ارتدي هذه الملابس»، وأشارت بيدها إلى ملابس موضوعةٍ على مقعدٍ، ثم قالت: «انتظريني هنا، سأرى إن كانت مولاتي ستراك الآن».

رغم خوفي وهواجسي إلا أنني استمتعت بالاستحمام في هذا المكان اللطيف. كانت الملابس من القطن الناعم وباللونين الأزرق والأخضر الفاتح مع منديلٍ طويلٍ بلون الفيروز. «ترى كيف ستكون حياتي في هذا القصر؟ وهل سأقضي بقية حياتي جاريةً في بلدٍ غريب؟» تساءلت في نفسي دون أن أجد جواباً.

قطعت علي المرأة حبل أفكاري عندما دخلت الحمام دون أن تطرق الباب وقالت: «ستراك مولاتي الآن». سرنا في الممر الطويل ذاته ووقفنا أمام الباب الذي يقف الحارس التمثال إلى جانبه، ودخلنا إلى غرفةٍ فسيحةٍ غايةٍ في الأناقة والذوق فيها مقاعد فاخرةٌ مع مساند حريريةٍ، وكثيرٌ من أصص الزهور ذات اللونين الأصفر والبرتقالي والمنسقة بذوقٍ رفيع، ثم قالت: «انتظري هنا»، فجلست على أحد المقاعد وكانت أمامه طاولةٌ مصنوعةٌ من النحاس المنقوش وعليها مزهريةٌ بورودٍ برتقاليةٍ وصفراء. رجعت المرأة وفجأةً صاحت بي: «قفي! من سمح لك بالجلوس!» ثم قالت: «هيا، ادخلي، لا تتركي مولاتي تنتظر»، وفتحت باباً دخلت منه إلى غرفةٍ أكثر اتساعاً من الأولى تعبق برائحة البخور، وفي صدر الغرفة سريرٌ كبيرٌ مغطًى بستائر حريريةٍ بلون السماء، وقبل أن أستطيع دراسة بقية الغرفة سمعت صوتاً أنثوياً يقول لي: «ما اسمك؟» التفتُّ لأجد إلى جانبي الأيمن فراشاً عريضاً على الأرض عليه عددٌ هائلٌ من الوسائد الحريرية الملونة تكاد تختفي بينها سيدةٌ في غاية الجمال، وإلى جانبها تجلس المرأة التي ابتاعتني تقرفص على ركبتيها، فعرفت أنها الجارية، ثم قلت: «اسمي قمر»، وبقيت واقفةً مكاني، فصاحت الجارية: «عندما تخاطبين مولاتي الأميرة يجب أن تركعي على ركبتيك»، فقلت في نفسي: «لن أركع، أميرةٌ أو سواها!» ثم رفعت رأسي بشموخٍ وكبرياءَ لم يفت الأميرة ملاحظته.

قالت الأميرة: «لا بأس، اجلسي هنا قبالتي»، فجلست على السجادة السميكة الزرقاء أمامها.

سألت بصوتٍ لطيفٍ ومشجعٍ ولكن لا يخلو من نبرةٍ آمرةٍ: «ومن أين أنت يا قمر؟»

فقلت: «من فلسطين».

«وما الذي جاء بك إلى هذه البلاد؟» فأخبرتها عن القافلة وقطاع الطرق وبيعي في سوق العبيد، ولكنها عادت وسألتني: «ولماذا جئت بالقافلة إلى مصر؟» فأخبرتها أنني في طريقي إلى المغرب.

سألت: «وماذا هناك في المغرب؟»

إذا قلت لها الحقيقة فلن تصدقني، لذلك أجبتها: «سأذهب لأحضر دواءً لأمي المريضة».

«أليس لك إخوةٌ؟ أبٌ؟» سألتني.

«لا، أنا يتيمةٌ يا سيدتي»، وعندها هبت الجارية تصيح بي: «عندما تخاطبين مولاتي الأميرة تقولين يا مولاتي!»

أشارت إليها الأميرة بالسكوت وقالت لها: «لا بأس يا مواهب، لا بأس»، فعادت مواهب إلى مكانها وهي تنفخ غيظاً.

«قال التاجر إنك تروين الحكايات، هل هذا صحيحٌ أم أنني دفعت ثمانين ديناراً سدى؟»

قلت: «نعم يا سيدتي، هذا صحيح».

«ومن أين تعلمت رواية القصص؟»

فقلت: «من جدتي».

فقالت: «إذاً، ستبدأين في رواية القصص هذا المساء، وسأسمح لك أن تنامي في قسم الجواري»، وأشارت بيدها إلى أن المقابلة انتهت.

هبت مواهب من مكانها وكأنها تريد أن تصفعني، لكنها قالت: «هل ستعرفين طريقك إلى قسم الجواري؟»

فقلت لها: «نعم»، وانحنيت انحناءةً بسيطةً للأميرة وغادرت الغرفة.

عدت إلى غرفة الجواري ذات الأسرة الستة ، وجدت جاريتين تستلقيان على سريرين متجاورين تتحدثان همساً, وحين دخلت الغرفة توقفتا عن الكلام ونظرتا إليّ تتفحصاني.

قالت إحداهن: «لا بد أنك الجارية الجديدة»، فأومأت برأسي.

قالت: «ولم أنت واقفةٌ هكذا ؟ أتتكلمين العربية؟»

فقلت بصوتٍ خافتٍ: «نعم»، وكنت ما زلت واقفةً أمام الباب.

قالت الثانية بلطفٍ: «ما اسمك؟»

«قمر».

قالت: «ادخلي يا قمر، هذا السرير فارغ»، وأشارت بيدها إلى السرير الأقرب إلى باب الحمام، فجلست على السرير وأنا في غاية الارتباك، ثم قالت ثانيةً: «من أين أنت يا قمر؟»

قلت: «من فلسطين».

قالت: «أنا اسمي ياسمين وهذه كوزيدة».

نظرت إلى ياسيمن بارتباكٍ شديدٍ لا أعرف كيف أتصرف. كانت ياسمين ذات

سمرةٍ أخاذةٍ وشعرٍ أسود ينزل حتى خصرها، وكانت عيناها سوداوين ذكيتين، تلبس ملابس قطنيةً شبيهةً بالتي ألبسها ذات لون أحمر يميل إلى البرتقالي، أما زميلتها كوزيدة، أي اسم هذا كوزيدة! فكانت بيضاء البشرة يميل شعرها إلى الأشقر وعيناها بنيتان، تقلب شفتها العليا عندما تتكلم فتبدو كأنها على وشك أن تبصق.

قالت كوزيدة وهي تنظر إلي باستخفاف: «وما هي المهمة التي أوكلتها إليك الأميرة؟»

قلت: «سأروي لها القصص».

قالت باستنكارٍ: «ماذا؟ وضعتك في قسم الجواري المحترمات لأنك تروين القصص فقط؟» وضربت يديها بعضهما ببعض ولوت شفتها بامتعاضٍ ثم وقفت، فلاحظت أنها طويلةٌ جداً، لبست خفيها البنيين المطرزين بخطوطٍ ذهبيةٍ واختفت في الحمام.

قالت ياسمين: «لا عليك، إنها هكذا دائماً لا يعجبها شيءٌ، لكنها طيبة القلب، هل أكلت؟» هززت رأسي نفياً، فقالت: «ساعود حالاً»، وخرجت من الغرفة. عادت ووراءها جاريةٌ سوداء تحمل على يديها صينيةً فضيةً مليئةً بالأطباق، أشارت إليها ياسمين أن تضعها على منضدةٍ في وسط الغرفة حولها فراشٌ ووسائد، ففعلت الجارية ثم انحنت وخرجت.

«كلي»، قالت ياسمين وهي تشير إلى الطعام، وجلست على الفراش قبالتي وتناولت تفاحةً أخذت تقضمها ببطءٍ، ثم قالت: «في هذه الغرفة تعيش خمسُ جوارٍ وأنت السادسة، وهنا للجواري مقاماتٌ، فمثلاً جارية الأميرة، مواهب، لها غرفتها الخاصة وهي قريبةٌ من جناح الأميرة، كلما ارتفع مقام الجارية لدى الأميرة تزداد امتيازاتها. الجواري الجدد مثلك يعشن عادةً في غرفة العبيد، وهي

جناحٌ خاصٌ ملحقٌ بالمطبخ»، ثم اقتربت مني وهمست: «لهذا أبدت كوزيدة عجبها».

سألتها وأنا أمسح يدي بمنديلٍ معطرٍ كان فوق المنضدة: «وماذا تفعل الجواري؟ أعني... أقصد...».

ابتسمت ياسمين وقالت: «البعض يعملن في خدمة الأميرة، كوزيدة مثلاً مسؤولةٌ عن اختيار ملابس الأميرة كلَّ صباحٍ وتشرف على إلباسها، أما أنا فمسؤولةٌ عن تصفيف شعرها، لواحظ، وأشارت إلى سريرٍ فارغٍ في أقصى الغرفة، مسؤولةٌ عن ترتيب جناح الأميرة واختيار الزهور، نرجس وتمائم مسؤولتان عن طعام الأميرة، وبقية الجواري يقمن بأعمالٍ أخرى مثل الإشراف على تنظيف القصر وترتيب الزهور في الأصص وإعداد الطعام وتقديمه للملك، وما إلى ذلك».

«آه، الملك، نسيت الملك»، قلت في نفسي.

تابعت ياسمين: «فجلالته صعبٌ جداً في موضوع الطعام، هناك أشياء يرفض أن يأكلها مثل الدواجن واللحوم، وهناك أشياء يريد أن يأكلها كلَّ يومٍ مثل الملوخية»، ثم اقتربت ياسمين برأسها نحوي حتى كادت شفتها تلامس أذني: «يعتقد بعضهم أن الملك معتوهٌ، وأن بعض المشعوذين المقربين له قد تسببوا له بمسٍّ في عقله! تصوري، إن أول شيءٍ يفعله في الصباح هو استشارة هؤلاء المشعوذين، ولا يبدأ النهار حتى يشيروا عليه ماذا يفعل، ولا يخرج من القصر إلا بصحبة أحدهم، لكن أكثرهم خطراً هو جبور، ومولاتي الأميرة تخافه جداً».

عندها دخلت إلى الغرفة جاريتان تشبهان بعضهما جداً حتى ظننت أنهما توأمان، عرفتهما ياسمين على أنهما نرجس وتمائم، وقالت: «هذه قمر، الجارية الجديدة». ابتسمت كلتاهما ابتسامة مجاملةٍ وقالت نرجس باقتضابٍ شديدٍ: «أهلاً».

ارتحت كثيراً لياسمين التي ساعدتني على تحمل غربتي في هذا المكان، وقضيت بقية النهار أسمع قصصها عن القصر وحياة الجواري وقصصهن، وكان حديثها مسلياً جداً. في المساء جاءت مواهب وأشارت إلي باللحاق بها، فتبعتها إلى جناح الأميرة التي كانت تجلس على الفراش ذي الوسائد الكثيرة وحولها عدد كبيرٌ من الجواري، وعندما رأتني قالت: «تعالي يا قمر، أليس هذا اسمك؟ احكي لنا حكايةً مسليةً».

جلست قبالة الأميرة وسألتها: «عمّ تريدني سيدتي أن أتحدث؟»

قالت: «قصي علينا حكايةً، أيّة حكايةٍ، شرط أن تكون مسليةً»، فبدأت أحكي بصوتٍ متلعثمٍ، وعندما وجدتها مستغرقةً وهي تنظر إلي بكامل الانتباه استعاد صوتي ثقته: «... ثم قالت الفتاة: لا يمكن لنا أن نلتقي، فأنا لا أستطيع أن أعيش في عالمكم لأني إن تركت عالم الأحلام سأموت، لكن أنت تستطيع أن تأتي إلى عالمي، تستطيع أن تترك عالمك وتعيش معي»، ثم سكتُّ وسألت الأميرة إن كان بإمكاني أن أشرب قليلاً من الماء، فأشارت إلى إحدى الجواري أن تقدم لي بعضاً منه، وعندما انتهيت من الشرب قالت الأميرة تستعجلني: «وماذا حدث بعد ذلك؟ هل ترك عالمه؟»

قلت: «فكر الشاب كثيراً أن يترك عالمه ، أن يترك أرضه وأهله وناسه وكل الأشياء التي عرفها، ويدخل إلى عالم الأحلام حيث يصبح هو الآخر حلماً ولا يعود إلى عالم الحقيقة مطلقاً، فمشى إلى النهر وجلس...». قدمت إحدى الجواري عنقود عنب للأميرة، لكنها رفضته بحركة من يدها ونظرها لا يفارق وجهي، وظلت تنظر إلي بانتظار أن أروي بقية الحكاية.

«... فظهر له وجه الفتاة فوق الماء وقالت له الصورة: «إني أنتظرك «، فوقف الشاب بسرعةٍ ونظر إلى الصورة فوق الماء وقال لها: «ربما عليك الانتظار طويلاً،

فلدي كثير من العمل على هذه الأرض»، وترك النهر ومضى عائداً إلى أرضه».

عندما انتهيت من رواية حكايتي ظلت الأميرة والجواري صامتاتٍ دون أن تتحرك أيٌّ منهن، ثم فجأةً ابتسمت الأميرة وصفقت بيديها استحساناً وبدأت الجواري بالتصفيق.

«أحسنت يا قمر»، قالت الأميرة مبتسمةً، «غداً أريد حكايةً شائقةً كهذه»، ثم أشارت إلي بالانصراف.

صرت كل ليلةٍ أحكي قصةً جديدةً للأميرة التي بدأت أجدها لطيفةً وذكيةً، وفي النهار كنت أتجول في القصر وفي حدائقه وساحاته، أو أتحدث مع ياسمين وأستمع إلى قصصها عن الجواري والحياة في القصر. ذات يوم أرسلت الأميرة في طلبي في وقتٍ غير المعتاد لرواية القصص، وعندما دخلت الغرفة قالت: «أحس بضيقٍ شديدٍ، احكي لي حكايةً تسليني»، فجلست في مكاني الذي اعتدت الجلوس فيه، في حين كان عدد الجواري قليلاً في غرفة الأميرة، فحكيت لها حكاية الأميرة التي ملّت من حياة القصر، وكانت تتمنى لو تعيش بين الناس كواحدةٍ منهم، فأخفت نفسها ذات يومٍ بثياب خادمةٍ وانطلقت تسير في البلاد، وسمعت من الناس كثيراً من المظالم عن الملك، وعملت خادمة في إحدى القرى عند عجوز، ثم جاء أحد الأمراء واستولى على كل أراضي القرية ولم ينفع الناس الشكوى والتظلم لدى الملك، ولم تنفع مع الأمير أية شفاعةٍ، فقرر أهل البلد أن يقوموا بثورةٍ ضد الأمير لاسترجاع أراضيهم، وشاركت الأميرة في هذه الثورة وساعدتهم وهي ما زالت متخفيةً كخادمةٍ. بعد أن انتهيت من الحكاية أشارت الأميرة إلى الجواري بالخروج قائلةً: «اتركنا وحدنا»، فخرجن ما عدا مواهب التي ظلت واقفةً في مكانها لا تتحرك، فقالت الأميرة: «وأنت أيضاً يا مواهب»، فخرجت وعلى وجهها علامات الامتعاض.

عندما أغلقت مواهب الباب خلفها بادرتني الأميرة بالسؤال: «هل هذه حقاً واحدةٌ من قصص جدتك؟ وهل كنت حقاً في طريقك إلى بلاد المغرب لإحضار الدواء لأمك المريضة؟»

فوجئت بسؤال الأميرة وترددت في إجابتها! هل أحكي لها حكايتي كاملةً أم أخترع المزيد من الحكايات غير الحقيقية؟

كانت تنظر إلي بوجهها اللطيف وعيناها تبحثان عن جوابٍ في وجهي، وجهها يشع بالذكاء،شعرت أنني أستطيع البوح لها، فقد رأيتها تستمع إلى مظالم الناس بصبرٍ وتفهمٍ، كما أنها قارئةٌ شرهةٌ. قلت لها: «لا، إنها ليست من قصص جدتي، وأنا لم أكن في طريقي إلى بلاد المغرب من أجل الدواء»، وحكيت لها حكايتي من بدايتها حتى هوجمت بالقافلة من قبل قطاع الطرق، ثم قلت: «البقية تعرفها سيدتي».

قالت: «هذه حتى الآن أغرب حكاياتك وأكثرها تشويقاً!»

صمتت الأميرة وكانت أصابع يدها اليمنى تعبث بخصلة شعرٍ نزلت فوق جبينها، ثم نظرت إلي بابتسامة فرحٍ وقالت: «لدينا في هذا القصر مكتبةٌ عظيمةٌ فيها آلاف الكتب القيمة، وكم وددت لو أجد من أناقشه أو أتحدث إليه حولها، فكل جواري القصر لا يعرفن القراءة، أما أنت...»، وسكتت، ثم ذهبت إلى المنضدة بجانب سريرها وحملت كتاباً غلافه من الجلد الأحمر، فخفق قلبي بشدة، هذا كتابي، كتاب «الرحلات العجيبة» الذي سرق مني مع بقية الأشياء في القافلة، ولم أستطع أن أمسك نفسي، فقلت بلهفة: «من أين حصلت على هذا الكتاب؟» ثم انتبهت إلى أني تجاوزت حدودي في الكلام فقلت باعتذار: «عفواً سيدتي، لقد كان هذا الكتاب معي حين هاجمنا اللصوص وظننت أنني فقدته إلى الأبد».

قالت الأميرة بابتسامة لطيفة: «في اليوم الذي اشتريتك فيه اشتريت أشياء

أخرى»، ودفّته إلي قائلةً: «ها قد عاد إليك كتابك».

قلت: «ولكن سيدتي إنه لك، أنت اشتريته و...».

فلم تدعني أكمل، وقالت: «إنه لك الآن».

لا أذكر كم قضيت من الوقت في غرفة الأميرة ونحن نتحدث عن الكتاب وعن الأماكن الغريبة التي يصفها، واكتشفت أن أمنية الأميرة نور الهدى هي نفس أمنيتي: أن تترك القصر وترحل في رحلةٍ إلى العالم. سمعنا طرقاً على الباب، وأطلت مواهب برأسها قائلة: «هل أضيء المصابيح يا مولاتي؟»

فقالت الأميرة: «حسناً يا مواهب»، ثم نظرت إلي بابتسامةٍ مليئةٍ بالود، بل أكاد أقسم أنها مليئةٌ بالصداقة، وقالت: «أراك في الصباح»، فانحنيت لها وهممت بالخروج حين قالت: «لا تنسي كتابك»، فأخذته منها وغادرت الغرفة وكدت أرتطم بجسد مواهب العملاق، واستلقيت على فراشي لا أصدق نفسي.

مضت الأيام بهدوءٍ ووداعةٍ، وكنت أقضي معظم النهار وأطراف الليل بصحبة الأميرة نور الهدى، نذهب إلى مكتبة القصر ونختار من الكتب الكثيرة، نقرؤها معاً ونتحدث عنها، وقد علمتني السباحة وركوب الخيل، وصارت تناديني عجيبة كما فعل الشيخ عمر صديق والدي.

أمرت الأميرة نور الهدى أن تفرد لي غرفةً خاصةً بجانب جناحها، الشيء الذي كرهته مواهب، وانتقلت إلى غرفتي التي كانت أكبر من غرفة الجواري التي عشت فيها، وبقيت فيها قرابة ثلاثة أشهر. كانت غرفةً واسعةً وأنيقة الأثاث، ونافذتها تطل على الحديقة.

كنت قد اعتدت على حياتي في القصر وأحببت صداقة الأميرة التي كانت قارئةً شرهةً وذات نظرٍ ثاقبٍ. في بعض الأحيان كان يعكر صفو أيامنا صراخ الملك تقي

الدين: «قلت إن الأحمر محظورٌ هذا اليوم!» ثم نسمع صوت أصص الزهور تتناثر: «قلت لكم أبيض أبيض «، فتهبُّ جواري القصر لتغيير الزهور والورود من الأحمر إلى الأبيض، ثم يصرخ: «أين الأميرة نور الهدى؟ أريد الأميرة حالاً»، فتأتي جاريةٌ ترتجف من الخوف لتنادي الأميرة التي تذهب لرؤية أخيها على مهلها وفي مشيتها ثقةٌ وكبرياءُ، ثم تعود من جناح الملك تبتسم ابتسامةً واهنةً: «إنها إحدى نوباته، سيتحسن بعد قليل»، ثم تقول لي همساً: «لا يريدني أن أستمع إلى شكاوى رعيته.

كانت سيطرة جبور على الملك تقلقها، فهي لا تعرف كيف تتخلص منه ولا تعرف كيف تخلص أخاها من قبضته.

ساد القصر هدوءٌ جميلٌ في غياب الملك بعدأن أقنعه جبور بالسفرإلى جبل في الصحراء والانزواء ليتطهرمن ذنوبه ، ومنعه أن يأخذ أحدًا سواه ، وعادت الحياة إلى مجراها السابق. تطورت علاقتي بالأميرة نور الهدى التي أصبحت لا تفارقني، وأصبحت بيننا صداقةٌ قويةٌ لا تشبه العلاقة بين سيدةٍ وجاريتها، وكان هذا الأمر يغيظ مواهب التي كانت تحس أنها بدأت تفقد حظوتها عند الأميرة، فكانت تحاول أن تهدم هذه العلاقة المميزة بشتى الطرق، فأشاعت في القصر أنني أسيطر على الأميرة كما سيطر جبور على الملك، وأنني ساحرةٌ مشعوذةٌ مثله تماماً، بل وذهبت إلى أبعد من ذلك وأشاعت أنني وجبور متحالفان معاً للسيطرة على القصر. عندما وصلت الشائعات للأميرة أرسلت في طلب مواهب، وهددتها أنها إن لم تتوقف عن صنع الدسائس فسوف تعيدها إلى جناح العبيد خلف المطبخ، فسكتت مواهب على مضض.

غاب الملك شهوراً ولم يعرف أحدٌ إلى أين ذهب، وكانت الأميرة في غيابه تدير شؤون الدولة وتهتم بالمظالم التي يقدمها الشعب. حتى كان يومٌ دخل إلى القصر رجلٌ يصرخ ويلطم على رأسه ويصيح: «مات الملك، مات الملك!» ولما استجوبته

الأميرة قال لها: «كنت عائداً مع أغنامي من الرعي حين سمعت حصاناً يصهل، وحين اقتربت وجدت هذه الملابس الملطخة بالدماء ووجدت بينها هذه العباءة التي تحمل شعار الملك، لقد مشيت يا مولاتي أربعة أيامٍ بطولها لأقدم لك هذه المعلومات»، ثم سقط على الأرض مغشياً عليه.

أرسلت الأميرة على الفور جنوداً إلى المكان الذي تحدث عنه الراعي، وبعد أسابيع من البحث المتواصل عادوا بحصانه دون أن يجدوا للملك أثراً. أعلنت حالة الحداد في المملكة ولبس الناس السواد، وظلت الأميرة شهراً كاملاً تستقبل المعزين وتدير شؤون الدولة. وبعد مرور شهر الحداد، جاء بعض الوزراء وطلبوا أن يتم تتويج الأميرة ملكةً مؤقتةً للبلاد حتى تتدبر المملكة شؤونها. وهكذا تم التتويج واستمرت الاحتفالات أسبوعاً كاملاً، وعمت الفرحة البلاد وكان الناس مبتهجين لتتويج أخت الملك مكانه، أما المشعوذون فقد اختفوا من القصر فور سماعهم نبأ وفاة الملك.

انشغلت الملكة بشؤون الدولة وأصبح الوقت الذي نقضيه معاً في قراءة الكتب نادراً جداً. بدأت الملكة بتغيير القوانين الجائرة التي وضعها أخوها، فسمحت للنساء بالخروج والتجول في الشوارع بعد أن منعهن الملك سابقاً من ذلك، وأعادت فتح المكتبات التي أغلقها بأمر من جبور، وأمرت ببناء المدارس والزوايا والتكايا، كما أمرت ببناء بيمارستانٍ ضخمٍ عند طرف المدينة.

كنت قد أصبحت ساعد الملكة الأيمن ومستشارتها الخاصة، وكانت تلجأ إليَّ في كثير من الأمور وتتناقش معي في معظم الأشياء والقوانين والأحكام، وهو الشيء الذي أزعج كبير الوزراء. ظلت نور الهدى تحكم البلاد حوالي سنة شهدت البلاد خلالها حركة إصلاحٍ وتعميرٍ لم يسبق لها مثيل. ثم استدعتني يوماً إلى جناحها وقالت: «إن بعض الوزراء في الدولة لا يؤمنون بكفاءة المرأة ، ولا تعجبهم التغييرات التي قمت بها، بل يعتقدون أن المرأة لا تستطيع أن تكون قائدة ،

وأن ما قمت به من إصلاحاتٍ سيؤدي إلى إفساد الشعب.

«لكن!» قلت لها.

قاطعتني قائلة: «لقد وصلتني معلومات مؤكدة أن بعض الوزراء، وعلى رأسهم كبيرهم، سيقومون بخلعي أو حتى قتلي إن رفضت التخلي عن الحكم، وسيضعون ابن أخي الطفل على العرش تحت وصاية كبير الوزراء!» ثم جلست وأمسكت رأسها بين يديها وتابعت: «إن المؤامرة جاهزةٌ تماماً، ولكني لا أعرف متى سيكون موعد التنفيذ».

فقلت: «لا يمكن لهم أن يفعلوا ذلك! لقد حكمت البلاد بشكلٍ رائعٍ خلال العام الماضي».

قالت وكأنها لم تسمعني: «اسمعي يا صديقتي، لقد كتب مصيري وانتهى الأمر، إنني الآن أنتظر الموت وإن كنت لا أعرف في أي شكلٍ سيأتي، ولهذا أريدك أن تغادري القصر وأطمئن على سلامتك قبل أن يحدث لي شيء».

أمسكت يدها وقلت: «لا تقولي هذا، سوف تعيشين لتري أحفاد أحفادك».

ربتت على يدي وقالت: «لقد قضي الأمر يا عجيبة، أنت الآن حرةٌ طليقةٌ، ويجب أن تغادري مصر. ستتابعين رحلتك إلى بلاد المغرب، هناك قافلةٌ تغادر بعد أربعة أيامٍ، وسأوفر لك الحراسة».

قلت وأنا أشد على يديها ولا أستطيع منع الدموع المنهمرة من عيني: «لن أتركك، لن...».

قاطعتني: «هذه هي إرادتي وطلبي الأخير، أريد أن أموت وأنا أعرف أنك في طريقك لتحقيق أمنيتك... أمنيتنا».

قلت باحتجاجٍ: «لكن كيف أتركك تواجهين مصيرك وحدك؟ لا يمكن، من المستحيل أن...».

وضعت يدها على خدها ومسحت الدموع وقالت: «إن مصيرك أيضاً مكتوبٌ، قدرك يا صديقتي أن تستمري في رحلتك وأن تتبعي حلمك، سترحلين مع تلك القافلة، هذا أمر، والآن أريد أن أبقى وحدي بعض الوقت».

تركتها وأنا لا أكاد أرى أمامي من البكاء. كان الوداع قاسياً جداً! سأترك صديقتي العزيزة تواجه الموت وحدها! كنت حقاً مستعدةً لأن أموت معها وأن ألقى نفس مصيرها، لكنها أصرت بكل قوتها على أن أرحل مع القافلة، ورفضت الاستماع لحججي وبكائي ورجائي لها بأن أبقى.

أخذتني بعربتها إلى مكان القافلة وضمتني بقوةٍ وهي تقول: «حققي أمنيتك لأجلي، واذكريني أيتها الصديقة الغالية»، وعندما نزلت من العربة الملكية، انطلقت العربة بأقصى سرعتها عائدةً إلى القصر. رفعت يدي بالتحية للمكلة الشجاعة وللصديقة العزيزة، وبقيت مكاني. لا أعرف كم من الوقت مضى حتى جاء قائد الوحدة التي ستحمي القافلة، طالباً إليّ بلطف أن أعتلي الجمل لأن القافلة كانت بانتظاري.

وهكذا مضيت بقافلةٍ أخرى إلى مصيرٍ لا أعرف عنه شيئاً، وأنا أشد كتابي إلى صدري وأحمل بيدي عقداً ذهبياً أهدته لي صديقتي ياسمين.

أسئلة الجزء الخامس

1. صف حالة قمر بعد أن أسرها اللصوص.
2. لماذا طلب اللصوص ثمناً أكبر مقابل بيع قمر؟
3. من المرأة التي اشترت قمر؟ وأين ذهبت بها؟
4. كيف أصبحت علاقة قمر بالأميرة نور الهدى؟ ولماذا؟
5. قدم وصفاً للملك تقي الدين، واشرح علاقته بالمشعوذين، ولا سيما الساحر المسعود جبور.
6. ما مصير الملك بعد خروجه في رحلة مع جبور؟
7. لماذا تآمر الوزراء ضد نور الهدى بعد أن أصبحت الملكة المؤقتة؟
8. صف حال المملكة في أثناء حكم نور الهدى؟
9. لماذا أصرت نور الهدى على أن تواصل قمر أو عجيبة رحلتها إلى المغرب؟ وماذا فعلت من أجل ذلك؟

الجزء السادس

المعلم

قال الشيخ أبو عبد الله الفقيه: «لكن يابنتي أنا لا أعلّم النساء، فقط الرجال... لا يمكن لي...!»

فقلت بإلحاحٍ: «لقد جئتك من بلادٍ بعيدةٍ، لقد عانيتُ الأهوال حتى أصل إلى طنجة، لا يمكن لك أن تردّني خائبة».

قال: «لكني لم أفعل ذلك من قبل، لم يفعل أحدٌ ذلك من قبل، هذا غير مقبول!»

«ألقِ علي أيَّ سؤالٍ يخطر في بالك، ستجدني طالبةً مُجِدةً، أرجوك!»

كنت عندما وصلت إلى بيت الشيخ في طنجة قد حكيت له حكايتي ورجوته أن يقبلني طالبةً لديه لكنه رفض، فعدتُ إليه في اليوم التالي، والذي يليه، وبقيت أطرق بابه وأحاول إقناعه كلَّ يومٍ لمدة أسبوعٍ، حتى قبل أخيراً أمام إصراري وإلحاحي.

«حسناً، لكن ستكونين خلف هذه الستارة، ولا أريد أن أسمع لك صوتاً، ولا أريد أن يعرف أحدٌ من طلابي بوجودك، وإن كشفتِ عن نفسك أو سمعتُ صوتك أثناء الدروس يكون اتفاقنا قد انتهى. لا أريد لأحدٍ أن يعرف أنني أعلم النساء، هل هذا واضح؟»

«تمام الوضوح يا معلمي»، قلت بفرح.

«حسناً، أحضري أشياءك من الخان، سوف تعيشين هنا مع زوجتي، ولا أريد منك أجراً سوى أن تشرفي على أمور هذا البيت، فزوجتي مريضةٌ وبحاجةٍ إلى

من يرعاها، وإن سألك أحدٌ فأنت الخادمة الجديدة، أريد أن أحذرك، فزوجتي صعبة المراس قليلاً».

انتقلت إلى بيت المعلم، أما زوجته فلم تكن صعبة المراس فقط، بل كانت كثيرة الشكوى، كثيرة المطالب، لا يعجبها شيءٌ ولا تكفُّ عن إلقاء الأوامر ولا عن التذمر، لكنني تحملتها لأتمكن من متابعة دروسي خلف الستارة مع المعلم.

وصلت الأخبار من مصر مع قافلةٍ قادمةٍ من هناك: لقد ماتت الملكة نور الهدى غرقاً عندما سقطت من قاربها في النيل، وتوّج الأمير الطفل ابن أخيها ملكاً على البلاد تحت وصاية كبير الوزراء.

«غرقاً... ها! إنها تجيد السباحة، لقد علمتني السباحة بنفسها. غرقاً! لا يمكن!»

ومع أني كنت أتوقع مصير صديقتي العزيزة نور الهدى، إلا أنني بكيت أياماً على موتها، لقد كانت الأقرب لي منذ أن تركت القدس وبيت السيدة أم نجم. كنت أضم كتاب «الرحلات العجيبة» إلى صدري وأنام وأنا أتذكر الملاحظات والنقاشات التي كنا نقوم بها معاً، كانت نور الهدى تقول: «يوماً ما سنقوم بهذه الرحلة معاً»، أو تقول: «يوماً ما سأترك هذه الحياة وأرتحل معك»، «ها قد تركتني الآن وذهبت في رحلتك الخاصة يا نور، ولكني سأحملك معي أينما رحلت».

تابعت الاستماع إلى دروس المعلم من خلف الستارة، وكنت أمسك لساني بصعوبةٍ كي لا يفلت لساني بجوابٍ عن سؤالٍ عجز عنه الطلاب، وأقضي بقية النهار في خدمة العجوز المتقلبة.

«اذهبي وأحضري لي برتقالاً من السوق، ولا تتأخري»، وعندما أعود من السوق مع البرتقال تقول: «لقد فقدت شهيتي للبرتقال، ضعيه جانباً»، أو تقول افتحي النافذة قليلاً، هل تريدين أن نتعفن!» ثم تطلب إليّ إغلاقها: «هل تريدين لي أن أموت من البرد!»

كانت تشكوني للمعلم كلما أتيحت لها الفرصة: «هذه الخادمة كسولةٌ ولا تعرف شيئاً، أريد واحدةً غيرها»، فيهدئ المعلم من ثورة غضبها ويعدها بأن يحضر لها خادمةً أخرى.

لقد فوجئ المعلم من سرعة تعلمي وتقدمي في الدراسة، وقال إنني أفوق معظم طلابه علماً ونباهةً، وكانت هذه الملاحظات من المعلم الشيخ تسرني جداً.

كنت في بعض الساعات النادرة التي تطلق فيها زوجة المعلم سراحي أذهب لأطوف في هذه المدينة العريقة، أذهلتني رؤية زخارف الفسيفساء التي تغطي جدران حمّاماتها العامة، وألفت أزقتها المغطاة والتي ذكرتني كثيراً بأسواق القدس، كنت أزور حوانيت الكتب أو أذهب إلى شاطئ البحر وأراقب موجه، وأشاهد الشمس وهي تنزل بثوبها الأحمر داخل زرقته لتذوب فيه. تذكرت غزة وبحر غزة، والمرة الأولى التي رأيت فيها البحر: «كم أنت بعيدةٌ يا فلسطين!» فكرت في نفسي كم أتوق لأكتشف غياهب هذا البحر، ولم أكن أعرف حينها أن ذلك اليوم كان أقرب مما كنت أتوقع.

سارت حياتي في بيت المعلم بهدوءٍ ويسرٍ، ولولا مطالب زوجته وشكواها المستمرة لكانت الحياة تسير سيراً رائعًا، لكنني تعلمت مع الأيام أن أميز بين الملحّ من طلباتها وغير الضروري الذي أستطيع تجاهله.

تعلمت على يدي معلمي الفقه والأدب والشعر والعلوم والطب والفلك، وتمكنت طوال هذه الفترة من حفظ لساني من الانفلات، حتى جاء يومٌ سأل فيه المعلم طلابه سؤالاً في علم الفلك فلم يستطع أحد الإجابة عنه وكنت أعرف الجواب، كنت قد حفظت بعض كتب الفلك عن ظهر قلب، تردد الطلاب وأجاب بعضهم إجاباتٍ خطأٍ، وبقي الآخرون صامتين، ثم: «إنها واضحةٌ وضوح الشمس!» أفلت مني الكلام ولم أستطع أن أمسك لساني، وضعت يدي على فمي وهربت إلى

الداخل، شهق الطلاب عندما سمعوا صوتي وبدأ اللغط بينهم. جملةٌ واحدةٌ غيرت مصير حياتي إلى الأبد! جملةٌ ليس لها معنى، وها أنا الآن أجمع ملابسي وأشيائي وأضعها في حقيبة لأخرج من بيت المعلم.

قال المعلم: «ماذا فعلت يابنتي ؟»

فقلت وأنا أبكي من القهر: «لقد أفلت لساني، لقد...»، وأجهشت في البكاء، فوضع الشيخ الطيب يده على كتفي وقال: «لا بأس، لقد تعلمت أشياءَ كثيرة...».

قلت: «لكن هذا ليس كافياً، لقد أردت المزيد».

«ربما آن الأوان لأن ترحلي، وما حصل هو إرادة الله عز وجل، لا تبتئسي...»، قال هذا وخرج محني الظهر.

«ماذا سأفعل الآن وأين أذهب؟ هل أعود إلى بلادي؟ لقد اشتقت لشمس وللأطفال وللحبيبة أم نجم، هل أعود إلى قريتي المنسية فوق الجبل؟ لماذا تركت حياةً وادعةً في بلادي وسرت خلف حلمٍ مجنون؟ هل أعود أم أمضي إلى الأمام؟ إلى أين؟ لقد أحببت طنجة، أحببت شوارعها وأزقتها وزواياها وتكاياها، أحببت ناسها الطيبين الكرماء، أحببت شمسها التي تذكرني بشمس فلسطين، وأحببت بحرها، بحرها...! سأسافر بحراً، نعم، لكن كيف وإلى أين؟» وبدأت أسال السفن الرابضة فوق شواطئ طنجة، فعرفت أن إحداها ستبحر بعد أسبوعٍ إلى مدينة جنوة، فقلت حسناً، لأكتشف تلك المدينة، وعندما عدت إلى الخان سألت كيف أسجل اسمي في قائمة المسافرين على تلك السفينة، ففوجئت بصاحب الخان يقول إنه من المستحيل علي السفر في البحر على متن سفينةٍ دون زوجٍ أو أبٍ أو أخٍ، لا يسمح لي بالسفر دون مُحرَم.

«مُحرَم! من أين سآتي بمُحرَم؟ حتى الآن نجحت في السفر وحدي، أما الآن فمن أين لي بواحد؟» جلست في غرفتي في الخان أفكر بمصيري، وبدأت أندب حظي

على أنني لم أكن رجلاً: «لو كنت رجلاً لسافرت دون أن أحتاج إذناً أو وصايةً من أحدٍ، لو كنت رجلاً! ولم لا أكون رجلاً؟!» عقلي يقول «هذا جنونٌ»، أما قلبي فيقول «لم لا، وأنا لم يمر بي منذ مولدي ما هو عادي؟ « ثم تذكرت القصة التي اختلقتها ذات يوم لأم نجم!

نزلت إلى السوق وأنا في حالة انفعالٍ شديدٍ، كأنني اكتشفت للتو سر الحياة، ثم عدت إلى غرفتي وقصصت شعري الطويل، ولبست قميصاً ضيقاً من الجلد أقرب إلى درعٍ منه إلى قميص، ثم لبست سروالاً عريضاً كالذي يلبسه الرجال وقميصاً من الحرير الأخضر وفوقه عباءةً سوداءَ تصل حتى القدمين، ووضعت على رأسي عمامةً ثم نظرت إلى المرآة: «هل أبدو كرجلٍ؟ رجلٍ صغير الحجم ربما»، وبدأت أتدرب أمامها على حركات الرجال: التحرك بقوة واستعمال اليدين كثيراً.

«ما اسمك يا سيدي؟» قلت لنفسي في المرآة محاولةً أن أجعل صوتي يبدو خشناً، فبدا كأنه صوت طفلٍ على وشك أن يدخل في سن البلوغ، «اسمي عجيبٌ، اسمي عجيبٌ، نعم عجيب»، قلت لصورتي في المرآة وبدأت أدور حول نفسي أمامها لأرى شكلي من كل الجوانب، وإن كان هناك شيءٌ يفضح سري، وعندما اعتقدت أني نجحت تماماً في التخفي على هيئة رجلٍ قلت في نفسي: «لأجرب». نزلت إلى الشارع وذهبت إلى بائع الخضار الذي اعتدت أن أشتري منه لزوجة المعلم: «السلام عليكم»، قلت بصوتٍ حاولت أن يكون خشناً قدر الإمكان.

قال: «كيف أستطيع أن أخدمك يا سيدي؟»

«أريد بعض التفاح»، وأخذت كيساً منه وابتعدت وأنا أكاد أطير فرحاً.

قلت: «لأجرب أكثر»، ودخلت مطعماً للسمك حيث المكان مليء بالرجال ولا توجد حتى امرأة واحدة، جلست على طاولةٍ بعيدةٍ في آخر المطعم.

«وماذا أحضر للسيد؟» قال النادل دون أن ينظر إلي.

قلت: «سمكاً مشوياً مع بعض الخضار».

أكلت في مطعم الرجال ومشيت في الشارع أطلق «السلام عليكم» يُمنةً ويُسرةً، ولم يشهق أيُّ رجل ولم يقل أحدٌ هذه امرأةٌ، «لقد نجحت، لقد نجحت!» ثم: «هل أجرؤ؟ ولم لا؟!» ودخلت المقهى الذي يرتاده البحارة، كانت رائحة التبغ الرخيص والعرق تعبق في المكان حتى كدت أختنق، وقد علت أصوات الصياح والسباب ، وفي آخر المقهى كان هناك بحاران يتبادلان اللكمات يتحلق حولهما الرجال يشجعون أحد الطرفين، فخفت: «لا أستطيع الدخول، لا أستطيع أن أكون رجلاً! ماذا لو افتعل أحدهم مشادة؟ ماذا لو...؟» وتحركت لأغادر المكان وقد بدأت أفكر في الابتعاد عن هذه الفكرة المجنونة، وأخذت أعود أدراجي إلى خارج المقهى، ثم رأيته! كان يجلس على طاولةٍ قرب الحائط ويرقب القتال من مكانه، كان يضع عمامته على الطاولة أمامه وشعره الأسود الطويل يلمع تحت المصباح، اقتربت منه، كانت هناك قوةٌ خفيةٌ تجذبني نحوه، وقفت أمام طاولته ولكنه لم ينتبه إلي، فتنحنحت.

قال: «ماذا تريد؟» دون أن ينظر إلي.

قلت وأنا أحاول أن أستجمع شجاعتي: «أريد أن أسجل نفسي بحاراً على السفينة المبحرة إلى جنوة، هل تعرف أين قبطانها؟»

نظر إلي من رأسي حتى قدمي، ولوهلةٍ خفت أن يكون قد كشف أمري، كانت عيناه الخضراوان تحرقان جلدي وأحسست الدم يزحف فوق خدي، ثم فجأةً بدأ الرجل يضحك ويقهقه بصوت عالٍ حتى سالت الدموع على خديه، ثم قال بعد أن نفخ أنفه في منديلٍ وأعاده إلى جيب قميصه: «أنت تريد أن تكون بحاراً!»

أشار إلي وهو يعاود الضحك بصوتٍ مرتفعٍ حتى لفت أنظار البحارة في المقهى إليه.

قلت بارتباكٍ: «نعم يا سيدي».

«ولكنك طفلٌ ستضيع بين الرجال! ارجع إلى أمك يا شاطر وعد بعد عشر سنواتٍ على الأقل»، وتابع الضحك.

أحسست بالغضب من سخريته وشعرت بأنني أرتجف، ثم قلت له بإصرارٍ: «أريد فقط أن أعرف أين القبطان، هل لك أن تدلني عليه؟»

نظر إلي نظرةً جادةً وقال: «هل أنت جادٌّ في أن تصبح بحاراً يا ولد؟»

فقلت وأنا أشعر بالدم ينزاح من رأسي ليتكوم فوق وجنتي: «نعم».

قال: «وماذا تعرف عن البحار؟»

قلت: «لا شيء، لكنني أستطيع أن أتعلم».

«ولكنك ضعيف البنية ولن تتمكن من شدّ الحبل».

قلت: «سأتدبر نفسي، أين القبطان؟»

قال وهو يسند ظهره إلى مقعده ويتأملني بنظرةٍ فاحصةٍ لا تخلو من الجدية: «إنك تتحدث إليه، أنا قبطان السفينة «الملاك الأسود»».

فجلست على المقعد المقابل له وقلت: «أرجوك يا سيدي خذني معك، وإن كنت لا أستطيع أن أكون بحاراً أستطيع أن أكون خادمك».

تأملني الرجل بعمقٍ وقال: «ولماذا أنت مصرٌّ على ركوب البحر يا بني؟ البحر شديد المخاطر! وهل يعلم أهلك عن هذا؟»

قلت: «أنا يتيمٌ يا سيدي ولا أهل لي

«حسناً، حسناً»، قال يريد إسكاتي وقد لاحظت من طريقة كلامه أنه بدأ يلين: «لكن مياه البحار صعبةٌ جداً وفيها كثيرٌ من المخاطر!»

قلت: «أنا مستعد لأخوض التجربة، أرجوك!»

«وهل تعرف السباحة على الأقل؟»

قلت نعم بثقة كبيرة، «أشكرك يا نور الهدى يا صديقتي»، ثم قلت: «وأحسن ركوب الخيل».

فقال بابتسامةٍ غير مصدق: «وأين تعلمت ركوب الخيل؟»

«يا للسانك يا قمر! لماذا توقعين نفسك في مثل هذه المواقف؟ ألن تتعلمي أن تمسكي لسانك؟» قلت: «لقد عملت في إسطبلٍ وكنت أنظف الخيول، وكنت أحياناً أجرب ركوبها».

قال وعيناه الخضراوان لا تفارقان عينيّ: «هكذا إذن؟» ثم قال بلهجةٍ لا تخلو من السخرية: «وماذا تستطيع أن تفعل أيضاً؟»

«أشياء كثيرة، أستطيع أن أطبخ وأن...»، ثم قلت برجاءٍ: «أرجوك يا سيدي القبطان، أريد أن أركب البحر ولو مرةً واحدةً في حياتي، لقد كان هذا حلمي منذ أن رأيت البحر، هل تقبل؟ أرجوك!»

قال: «حسناً، تعال إلى السفينة غداً، ستبدأ عملك بتنظيف قمرتي»، فشكرته وأنا أكاد أطير فرحاً، ولكنه تابع: «لن أدفع لك أجراً، هل فهمت؟ سأطعمك مقابل عملك، هذا إذا لم تأكلك الأسماك قبل أن نصل إلى جنوة!»

هممت بالذهاب وأنا أردد كلمات الشكر، وبعد أن أدرت ظهري صاح: «ما

اسمك؟» فقلت: «عجيبٌ يا سيدي، عجيب».

عدت إلى الخان وأنا لا أكاد أصدق نفسي، ها قد سنحت لي فرصة الإبحار لأول مرةٍ وفي سفينة حقيقيةٍ ومع قبطانٍ حقيقيٍّ، القبطان!

في الصباح ذهبت باكراً إلى السفينة وسألت عن قمرة القبطان، وعندما وصلت هناك كنت قد سمعت كثيراً من التعليقات والنكات. دخل القبطان وأنا أرتب ملابسه في صندوقٍ عند قدم السرير الصغير: «ها أنت هنا! لا تنس الغرفة الخلفية التي ستنام فيها»، وخرج. كانت الغرفة الخلفية عبارةً عن خزانةٍ أو صندوقٍ فيها فراشٌ مرفوعٌ فوق بعض الأخشاب ولا شيء غير ذلك، الفراش عملياً كان يحتل كل الصندوق، وكان من الصعب معرفة لون الملاءات من قذارتها، هذا الصندوق سيكون بيتي وملجئي، وإلى جانبه كان هناك صندوقٌ آخرُ بنفس الحجم فيه حوضٌ يحتل كل مساحته تقريباً، على حافته بعض قطع الصابون وبجانبه إبريقٌ كبيرٌ من النحاس، هنا يستحم القبطان. بعد أن أنهيت تنظيف قمرة القبطان والصندوقين خرجت إلى ظهر السفينة لأطلب الإذن من القبطان بالمغادرة، وقد كان يتحدث مع بعض البحارة، ثم ركضت خارج السفينة إلى غرفتي في الخان: «ها قد أوقعت نفسك في ورطةٍ لن يخرجك منها علمك ولا ذكاؤك ولا كل عفاريت الدنيا! الأفضل أن تنسحبي الآن وأنت على بر الأمان، هذه المغامرة ستكون نهايتك!»

لكن حس المغامرة كان يقول شيئاً آخر: «لكلِّ مشكلةٍ حلٌّ، ولن تعرفي هذه المغامرة إلا إذا جربتها. العالم مفتوحٌ أمامك ولن تتكرر هذه الفرصة»، وهكذا بقيت طوال الليل ما بين شدٍّ وجذب، لحظةً أفكر في أن أعود أدراجي إلى وطني، ولحظةً أخرى أتشجع بالقيام بالرحلة. نزلت إلى السوق أتجول علي أجد جواباً لحيرتي، وبقيت هكذا لساعاتٍ وأنا أقف أمام حانوتٍ ثم أقف أمام آخر دون هدف. وقفت أمام بائع الجلود وكنت أراقبه يقص الجلد ويخيطه بمهارةٍ فائقةٍ،

يعلق على باب دكانه مصنوعاته الجلدية: الأحزمة وأحزمة لسروج الخيول وحقائب متعددة الأشكال والألوان. وقفت أتأمل الحانوت والبائع.

عدت إلى السفينة وكانت الشمس تميل إلى الغروب، دخلت صندوقي وأقفلت الباب. صحوت على صوت القبطان يدخل غرفته ويغني بصوتٍ مُنتشٍ: «يا ولد، أين أنت؟ ما اسمه؟»

خرجت من صندوقي ووقفت أمامه فقال: «اخلع لي حذائي»، وجلس على حافة السرير ماداً لي قدمه.

كان قد استلقى على ظهره على السرير وبدأ في الشخير بصوتٍ عالٍ، فأبقيت عليه ملابسه ووضعت الملاءة فوقه ودخلت إلى صندوقي وأغلقته بإحكام. لم أستطع النوم، كان شخير القبطان عالياً لدرجة أن جدران صندوقي كانت تهتز، كنت خائفةً، ماذا لو عرف أني امرأة؟ بل أسوأ من ذلك، ماذا لو عرف البحارة أني امرأة؟!

صحوت على صوت القبطان ينادي فدخلت الغرفة: «أحضر ماءً ساخناً بسرعة»، أخذت الإبريق النحاسي وعدت به مليئاً بالماء الساخن من مطبخ السفينة، لأجد القبطان يجلس في حوض الاستحمام! تركت الإبريق بجانب الحوض وهربت من الغرفة، فنادى القبطان بصوتٍ هادرٍ: «اسكب الماء علي، هيا».

وقفت خلفه وبدأت أسكب الماء الساخن على ظهره وأنا مغمضة العينين، «ماذا تفعل أيها الغبي؟» فتحت عيني وانتبهت إلى أني أسكب الماء إلى جانب الحوض. قال بصوتٍ غاضبٍ: «هذه ليست بدايةً جيدةً يا ولد، إن كنت لا تحتمل العمل في السفينة فنحن ما زلنا على البر».

قلت: «أنا آسف يا سيدي، سامحني، لن أكررها ثانيةً».

قال: «أنا أحذرك، لا أطيق الكسولين ولا الأغبياء».

«لن أكررها يا سيدي، أعدك».

«سنبحر غداً عند الفجر، أمامك يومٌ كاملٌ لتفكر إن كنت حقاً تريد هذا العمل»

خرجت إلى السوق أمشي على غير هدىً وأنا أفكر، وفي المساء وجدت نفسي أمام السفينة فدخلت إلى صندوقي وأقفلت الباب بإحكام: «ليكن ما يكون». كنت قد عزمت أمري، وعندما عاد القبطان كنت على أهبة الاستعداد لأخلع عنه حذاءه.

صحوت على صوت حركةٍ في السفينة وصراخٍ وأوامر وقد بدأت السفينة تهتز، خرجت من صندوقي بسرعةٍ فوجدت السفينة قد بدأت تتحرك، وكانت الشمس قد بدأت بالظهور خلفنا. مرت الساعات الأولى بأمان، حيث تمكنت من التواري من أمام البحارة وشغلت نفسي بمراقبة البحر ومراقبتهم وهم يشدون الحبال ويرفعون الأشرعة، وأراقب القبطان يقف أمام عجلة القيادة، ولولا إحساسي الدائم بالغثيان والذي قطع علي الاستمتاع بهذه المشاهد لكنت غنيت من فرحتي.

نزلت إلى صندوقي وغليت بعض الأعشاب وبدأت أشعر بالتحسن، صاح أحد البحارة: «أين الولد الجديد؟ آن الأوان»، وسمعت صوت اثنين من البحارة ينزلان السلم بسرعة، ثم سمعت طرقاً شديداً على بابي: «هيا، هيا، حان وقت « الاختبار.

«أي اختبار ؟» سألت.

قالوا: «اخرج وستعرف».

فخرجت. صعدت إلى ظهر السفينة لأجد البحارة يقفون في دائرة، ثم دفعني البحاران اللذان أحضراني إلى وسطها، صاح البحارة بصوتٍ واحدٍ: «هيا، هيا»،

وقال أحدهم: «اقذفوه في الماء»، ثم قال آخر: «احلقوا له شعره أولاً».

كان القبطان يقف أمام عجلة القيادة وينظر إلى المشهد بابتسامةٍ خبيثةٍ، أما أنا فكنت قد بدأت أرتجف مرة أخرى: «سيكشفونني! سيعرفون أني امرأة! هذه هي اللحظة الحاسمة، فكري يا قمر فكري.

بقي القبطان واقفاً مكانه وقد ازدادت ابتسامته اتساعاً، اقترب مني اثنان من البحارة وأمسك كلٌّ منهما بإحدى يديّ ورفعاني فوق السفينة، ثم صرخ جميع البحارة: «واحد، اثنان، ثلاثة»، وقذفا بي في البحر، ومع أنني تعلمت السباحة إلا أن المفاجأة وبرودة الماء جعلتاني أحس بالشلل، فبدأت أتخبط، ثم رأيت حبلاً ينزل من حافة السفينة فتمسكت به، وأحسست أنني أرتفع في الهواء ثم بيدين قويتين تمسكاني. وقفت على ظهر القارب أنقط ماءً مالحاً وأحس بالتعاسة الشديدة، وكنت على وشك البكاء، كانت اليدان يديّ القبطان الذي قال للبحارة بصوتٍ آمر: «كفى، اتركوه».

فقال أحدهم: «لكننا لم ننته من الطقوس! هيا احلقوا له شعره».

قال القبطان: «لقد قلت كفى»، ثم نظر إلي وقال: «اذهب وغير ملابسك»، فنزلت إلى صندوقي لا أصدق أني نجوت.

أسئلة الجزء السادس

1. في أي مدينة مغربية التقت قمر المعلم؟
2. صف بعض معالم هذه المدينة، وبمَ اشتهرت من حرف وصناعات؟
3. ماذا كان يدرس المعلم من علوم؟
4. لماذا كان المعلمون والعلماء يعلمون مواد من حقول معرفية مختلفة؟
5. لماذا لم يوافق المعلم على أن تحضر قمر دروسه؟
6. ما شروط المعلم في أن تحضر قمر دروسه؟
7. قدم صورة واقعية لزوجة المعلم وعلاقتها بقمر؟
8. كيف انتهت علاقة قمر بالمعلم ودروسه؟
9. هل توافق المعلم على موقفه؟ اشرح.

الجزء السابع

الملاك الأسود

بدأ البحارة يعتادون وجودي ولم يعودوا لمضايقتي، وصرت أعرف بعضهم بالاسم: «عبدون» ذا العين الواحدة والأسنان الصفراء والشعر الذي يكاد يختفي لولا بعض الخصل المتفرقة ورائحةٍ تشبه رائحة الثوم، و « شيخون »، كان في غاية النحافة يكاد يلتصق جلده بعظمه، ولكنه سريع الحركة ويستطيع أن يتسلق كل شيءٍ برشاقةٍ بالغة، وغالباً ما يقف فوق صندوقٍ صغيرٍ معلّقٍ فوق الصارية للمراقبة، لأن عينيه «كعيني الصقر» كان يقول، ولكنه أيضاً سريع الغضب بالرغم من مرحه الشديد، وكان شيخون أسرع بحار في ضرب الخنجر وأعرفهم بفنون استعماله. والطباخ ملفوفة ولُقِّبَ بذلك لأنه يكثر طبخ الملفوف بأنواعه وأشكاله، وكان ملفوفة قد أخذ على عاتقه مهمة تغذيتي، لأني أضعف من أن أحمل ريشة كما يقول. «وعنفرة» مساعد القبطان القوي الذي يخافه البحارة ويتحاشونه، لم يره أحدٌ يبستم، حاولت مرةً أن أتحدث إليه وهو على عجلة القيادة، فأجابني باقتضابٍ شديدٍ ولم ينظر باتجاهي مرةً واحدة، فأدركت أنه لا يحب الكلام وأنه لا جدوى من التحدث إليه.

اعتدت على حركة السفينة ولم أعد أشعر بالغثيان، واعتدت على الرائحة المنبعثة منها كرائحة سمك متعفن، واعتدت على القبطان علاء الدين الذي كان لطيفاً مع البحارة ويمازحهم دائماً، ولكنه كان حازماً أيضاً، خاصةً عندما كان يقع خلافٌ بينهم، وكان هذا كثيراً ما يحدث. بدأ القبطان يبدي اهتماماً بتعليمي، فكان يصحبني إلى سطح السفينة ويشير إلى الأشياء ويقول أسماءها وكيف تعمل، ولقد سر كثيراً من سرعة تعلمي، مما شجعه على إعطائي المزيد من المعلومات.

ها قد مضى على وجودي بين هؤلاء الناس قرابة الشهر، ومع ذلك أحس بأنني أعرفهم منذ زمنٍ بعيد، فالبحارة على سفينةٍ وسط البحر تشدهم رابطةٌ قويةٌ ويصبحون كالعائلة الواحدة، يتحدثون معاً ويأكلون ويغنون ويتشاجرون لأتفه الأسباب، ثم يعودون أصدقاء من جديد، لقد أحببتهم وألفت صحبتهم.

خرجت من صندوقي ذات صباحٍ جميلٍ على صوت صراخٍ وجلبةٍ على سطح السفينة، وعندما وصلت إلى الأعلى لأستطلع الأمر، كان « شيخون « يصيح ويلوح بيديه للأفق: «أوهوي، سفنيةٌ على البعد»، وكان البحارة يتكئون على حافة السفينة ويركزون أعينهم على نقطة سوداء في الأفق. أمر القبطان بإنزال الأشرعة ورفع العلم، في تلك اللحظة فقط انتبهت إلى أن السفينة كانت تسير دون علم منذ أن غادرنا طنجة، وفجأة، حين شد عبدون الحبل وبدأ العلم يرتفع نظرت إليه، لا يمكن! فركت عيني لعل الشمس قد أثرت على رؤيتي، ثم نظرت إلى العلم مرةً أخرى: «يا للهول، إنه علم القراصنة! أنا على سفينة قراصنة!» لم يخطر في بالي ولم أفكر مرتين حين سمعت أن اسم السفينة هو «الملاك الأسود»، ولكني الآن عرفت، والقبطان اللطيف هو زعيم القراصنة! «ماذا فعلت بنفسك يا قمر! أصبحت واحدةً من لصوص البحر! عظيم، تخرجين من ورطةٍ لتقعي في أعظم منها!»

رأى القبطان هول المفاجأة بادياً على وجهي الذي لا بد أنه عكس ما أحس به، فوضع يده على كتفي وقال باسماً كمن يريد أن يخفف عني: «لا تخف، نحن قراصنةٌ شرفاء»، وضحك ضحكةً عالية، ثم أدار لي ظهره وبدأ بإطلاق الأوامر للبحارة. بدأت حركةٌ شديدةٌ فوق السفينة، كان البحارة يتراكضون كلٌّ يحمل بيده سيفاً أو خنجراً، منهم من تسلق السارية، ومنهم من وقف على الحافة ينظر للأفق ويلوح بالسيف، وبعضهم الآخر نزل إلى بطن السفينة، وبدا أن الكل قد نسي وجودي، فبقيت مكاني لا أتحرك وما زلت في حالةٍ من الذهول. بدأت

السفينة الأخرى تقترب وبدأت ملامحها تتضح، كانت شديدة الضخامة والترف، زينتها تدل على أنها لإحدى الدول الثرية أو التجار الأثرياء، ترى من هؤلاء الذين على وشك الوقوع في شباك القراصنة؟ هل سيتمكنون من سحقهم؟ وعندها ماذا سيحل بي؟ لاحظ القبطان أني ما زلت أقف مكاني فأمرني بالنزول إلى بطن السفينة، حاولت الرفض فصاح بي بصوتٍ لا يحتمل النقاش: «قلت لك انزل الآن»، قالها بنبرة لم أسمعها من قبل، ولكنها كانت كافيةً لأن تجعلني أقطع كل درجتين معاً.

أقفلت باب صندوقي وجلست على فراشي وأنا أرتعد من الخوف، ثم سمعت صوتاً بعيداً، على الأغلب من السفينة الأخرى، يتكلم بلغةٍ لا أعرفها، وبعد أن كرر كلامه عدة مراتٍ سمعت صوتاً هائلاً يخرج من سفينتنا، صوت قذيفةٍ انطلقت أقوى من الرعد وأشد هولاً، اهتزت السفينة الأخرى وسمعت صوت بحارتنا الذين ميزت من بينهم صوت شيخون يصيح: «ضربةٌ موفقة!» ساد الهدوء التام لعدة لحظاتٍ ثم سمعت ارتطام قذيفة بسفينتا، صوتٌ هادرٌ مرعبٌ أحسست بعده أن أذني ستنفجران وأن صندوقي سوف يهوي بي إلى قاع البحر، ثم سمعت صوت صراخٍ وصوت عنفرة القوي يطلب ماءً لإخماد النار، وبعدها صارت الأصوات المرعبة تتوالى، ولم أستطع عد القذائف ولم أعد أميز بين التي تقذفها سفينتنا أو تلك التي تصيبها، وضعت يدي فوق أذني لكن ذلك لم يمنع صوت الانفجارات من اختراق جمجمتي، ولا منع صندوقي من الاهتزاز الشديد بعد كل ضربة، بدأت أحس العرق يتصبب مني ثم صوت ارتطامٍ قويٍّ بسفينتنا، لم تكن تلك قذيفة، بل كان الصوت ناتجاً عن ارتطام السفينة الأخرى بنا، يا إلهي! سوف نغرق، سوف نغرق كلنا! مرت لحظاتٌ حتى سمعت صياح البحارة وأصوات ارتطام السيوف، صرخات هجومٍ وصرخات ألمٍ واستنجاد، اختلطت الأصوات في ذهني وتحولت إلى همهماتٍ عالية لا معنى لها، لا بد أن بحارة السفينة الأخرى يحاولون الاستيلاء على سفينتنا! سيقتلون الجميع، سيقتلون البحارة ويقتلونني

وسيقتلون القبطان! وبدأت كل أطرافي ترتجف بحركاتٍ لا أستطيع السيطرة عليها وصرت أسمع نبضات قلبي.

لا أعرف كم استمر القتال، فالقتال تتغير معالمه عندما يشهد الإنسان معركةً بأذنيه فقط، لا أعرف إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً، صار الزمن شيئاً لا يمكن الإمساك به، لكنه كان بالنسبة لي دهراً كاملاً حتى مت وعشت فيه آلاف المرات.

ثم سكتت الأصوات، لا صوت فولاذ السيوف، ولا صراخ، ولا صوت أقدامٍ ولا صوت ارتطام، لا شيء! هل مات الجميع؟ ماذا حدث؟ هل سيأتي البحارة الآخرون الآن لقتلي؟ والتصقت بالحائط. أحسست أن الدم قد تجمد في عروقي وأنني بالرغم من ارتجافي الشديد غير قادرةٍ على التحرك، وأحسست العرق ينزل على ظهري كثعبانٍ يزحف ببطء، لم أخطط للموت بهذه الطريقة، وفي لحظة رأيت أمي وأبي يبتسمان لي، ثم شمس تحمل ولديها وتلوح لي بيدها، والسيدة أم نجم وياسمين ونور الهدى والمعلم والقبطان علاء الدين، ثم سمعت أصوات أقدامٍ ثقيلةٍ فوق الدرج، صارت الأصوات تقترب، «لقد جاؤوا! حانت الساعة يا قمر، إن كنت تذكرين أيّ دعاء قوليه الآن، هذه هي النهاية!»

اقتربت الأقدام أكثر ثم وقفت أمام صندوقي.

«الآن سوف يحطمون الباب ويسحبونني ويقطعونني إرباً، وإن اكتشفوا أني امرأة! يا إلهي! أرجوك اجعل موتي سريعاً، ضربةٌ واحدةٌ من سيفٍ قاطعٍ وينتهي كل شيء، أرجوك يا إلهي لا تدعني أتعذب!» ثم سمعت صوت القبطان علاء الدين يناديني، لم أصدق، هذا صوته! إنه هو، ما زال حياً! وبدأت أبكي بكاءً شديداً، بكيت خوفي ورعبي، بكيت إحساسي بالارتياح والسعادة لسماع صوت القبطان.

«افتح يا عجيب، لقد انتهى كل شيء».

لم تقدر قدماي على الوقوف، مددت يدي لأرفع المزلاج، وكان القبطان يقف على باب الصندوق ملطخاً بالدماء، وجهه وملابسه وحتى حذاؤه تلطخ ببقع الدم، عندما رأيته هكذا اشتد بكائي.

ربت القبطان على ظهري وقال: «تماسك يا رجل»، ثم أبعدني عنه ونظر في وجهي: «لماذا تبكي كالنساء؟» لحظتها أردت أن أصرخ: «أنا امرأةٌ «، ولكني تماسكت في آخر لحظةٍ وتراجعت، وأخذت أعدّل من هندامي وأمسح دموعي بظاهر يدي، وقلت بصوتٍ متلعثم: «لقد ظننتك مت، وخفت أن...»، فقال وهو يدير ظهره: « ليكن هذا درساً لك. الآن اصعد إلى الأعلى وجد لكَ عملاً تساعد به البحارة»، وبدأ يصعد الدرج.

لمت نفسي على تسرعي وتهوري وأنني كدت أكشف نفسي، غسلت وجهي وعدلت هندامي ثم أخذت نفساً قوياً وصعدت إلى سطح السفينة. كانت الشمس ما زالت تشرق في السماء، فوضعت يدي فوق عيني، حتى أعتاد على وهجها، وبعد أن تمكنت من فتح عيني تسمّرت مكاني، لقد هالني ما رأيت! كانت هناك ثغرةٌ كبيرةٌ في جانب السفينة حيث تكسرت الحافة وتناثرت قطع الخشب المكسور في كل مكان، لا بد أن هذا بسبب ارتطام السفينة الأخرى بنا، سيوفٌ ودماءٌ على الأرض، عددٌ من القتلى الذين لم أعرفهم، بعض بحارتنا من الجرحى يتكئون على حافة السفينة، وبعضهم ارتمى على الأرض، وأصوات أنينٍ وصراخ. كان المشهد مرعباً، وكأن أبواب الجحيم قد انفتحت!

أحسست يداً قوية تمسك كاحلي وتشدُّ عليه، ثم سمعت صوتاً واهناً لا يتناسب مع قوة اليد، نظرت إليه، كان أحد بحارتنا وما زال خنجرٌ طويل النصل يخترق قلبه، قال: «ماء... ماء... أريد ماء»، فركضت لأحضر الماء له وحين رجعت كان قد فارق الحياة، تجمدت مكاني من الرعب ثم أغلقت عينيه دون تفكير.

شاهدت بعض بحارتنا يلقون قتلى السفينة الأخرى في البحر، وكانت في الأفق سفينةٌ هاربةٌ تبتعد عنا مسرعة. نظرت حولي، ثم فجأةً، وبخطواتٍ سريعةٍ، نزلت إلى صندوقي وأحضرت بعض أنواع الأعشاب وبعض الملاءات النظيفة وركضت إلى المطبخ، طلبت من الطباخ الذي كان يبكي أن يغلي لي بعضها وأن يترك الجزء الآخر في ماءٍ دافئ، ثم قلت لمساعده الذي كان يجلس على الأرض فاغراً فاه مذهولاً: «مزق هذه الملاءات واجعل منها ضمادات»، وأخذت ماءً نظيفاً وبدأت بمساعدة الجرحى الذين كانت كل جروحهم بسبب طعنة سيف أو خنجر، ما عدا شيخون الذي لا أعرف كيف دخلت قطعة خشبٍ رفيعةٍ في فخذه وخرجت من الجهة الأخرى وما زال طرفاها بارزين من الجهتين. اقتربت نحوه لأساعده فقال: «ساعد عنفرة، إن وضعه سيء». كان عنفرة يمد رجليه ويسند ظهره إلى حائط السفينة، وجرحٌ غائرٌ ينز دماً في بطنه، كان وجهه شاحباً ويئن بصوتٍ منخفض، فاقتربت منه وقلت: «لا تخف، سأساعدك»، فضحك حتى بانت أسنانه العليا المكسورة ومد يداً ضعيفةً نحوي: «أنت ستساعدني؟» ثم وقع على جانبه مغشياً عليه، فطلبت من سعدون مساعد الطباخ أن يمدده على ظهره وبدأت بتنظيف جرحه بماء الأعشاب المغلي، ثم طلبت من سعدون أن يضغط قليلاً على الجرح وذهبت إلى الصندوق وأحضرت إبرةً وخيطاً وقلت له: «أمسكه جيداً»، وخطت له الجرح ثم ضمدته، وطلبت من اثنين من البحارة أن يحملاه إلى فراشه في أسفل السفينة بعيداً عن أشعة الشمس الحارقة. بعد ذلك انتقلت إلى جريحٍ آخرَ ثم آخر، ضمدت وخطت وقصصت جلداً ممزقاً، ولم ألحظ أن الشمس بدأت تختفي حتى صِرتُ أرى الخيط والإبرة بصعوبة، فطلبت أن يأتوا لي بمصابيح وتابعت العمل. كانت كل ملابسي ملطخةً بالدماء، ولكني لحظتها لم أهتم لأي شيء، سحبت قطعة الخشب من فخذ شيخون وخطتها ، وكان شيخون طوال الوقت، وبالرغم من الألم الشديد، يلقي النكات. وصلت بعدها إلى ابن الطباخ «ملفوفة» وكان مغمىً عليه وعينه اليمنى تنزف بشدةٍ، لقد فقد المسكين عينه بضربة خنجر، فنظفتها وضمدتها وتابعت العمل، ولم ألحظ

أن الشمس بدأت تشرق وأن النهار قد بدأ ينبلج، وحين انتهيت من آخر جريح وقفت، لكنني فجأة أحسست بدوارٍ شديدٍ، ثم وقعت.

فتحت عيني لأجد نفسي فوق سرير القبطان وعيناه تنظران إلي بقلق، فانتفضت لأفحص ملابسي فوجدت نفسي ما زلت بكامل ثيابي، ابتسم القبطان وقال: «ها قد صحوت، وهل سيتسمر جلالته في النوم كثيراً؟» قال ممازحاً. رفعت نفسي فوق مرفقي وسألت: «الجرحى... علي، أحمد، عنفرة، عبدون... هل؟»

قال: «لا تقلق، كلهم بخيرٍ وكلهم أحياءٌ بفضلك، وقد دفنا القتلى الثلاثة في البحر بشكل لائق».

عدت لأتمدد ثانيةً وأنا أحس بالارتياح.

«لقد أبليت بلاءً حسناً البارحة».

فقلت بصوتٍ واهن: «شكراً».

قال: «في الحقيقة لقد تمكنت من إنقاذ أرواح الكثير من رجالي، شكراً لك. ارتح الآن...»، وأدار ظهره وخرج وأنا أسمع صوت أقدامه على الدرج.

قمت من السرير وأحسست أني قادرةٌ على المشي وأن حالتي أفضل بكثير، فاغتسلت ولبست ثياباً نظيفةً وذهبت إلى غرفة الجرحى الذين استقبلوني بتحياتٍ مليئةٍ بالود والامتنان. غيرت ضماداتٍ وسقيت الأعشاب وساعدت البعض على أن يتحرك، وعرفت منهم أن السفينة الأخرى كانت سفينةً إسبانية تحمل الذهب والأشياء الثمينة لملك إسبانيا، وكان هناك قتالٌ مريرٌ بعد أن ارتطمت بسفينتنا ثم هربت قبل أن يتمكن بحارتنا من الوصول إلى الذهب.

مد عبدون يده الجريحة لي لأغير ضمادتها، وأشار بيده الأخرى إلى بقية الجرحى قائلاً بمرارة: «كل هذا ولم نحصل على أي شيء!»

خرجت إلى سطح السفينة ووقفت على الحافة أرقب مياه البحر والزبد الأبيض الذي يتكون خطوطاً بعد أن تعبر السفينة، وبدأت أسترجع أحداث اليومين الماضيين، يا إلهي كم كانا حافلين حتى ظننت أنني سأموت، ثم أحسست يداً تربت على كتفي وسمعت صوت القبطان يقول: «لم تخبرني أنك تعرف في شؤون الطب أيضاً».

فاجأني بالسؤال، لقد ساعدت الجرحى دون تفكير أو تردد، فقلت: «لقد عملت مساعداً لطبيبٍ وقرأت بعض كتبه خلسة».

«ماذا؟» قال القبطان مستغرباً: «وتستطيع أن تقرأ أيضاً؟ إنك فعلاً عجيب!» قال بابتسامةٍ وتابع: «لكنك تحتاج إلى تعلم بعض فنون القتال».

قلت: «وهل يقبل سيدي أن يعلمني؟»

قال: «لا بأس»، ثم تركني ومضى ليتفقد الجرحى.

وهكذا بدأت أتعلم فنون القتال مرتين في اليوم، في الصباح عند الفجر وساعات ما بعد الظهر حين تخف حرارة الشمس. كان البحارة الذين يعملون على إصلاح السفينة يتوقفون أحياناً عن العمل لمراقبتنا، ويصرخون بعبارت التشجيع لي: «ضربةٌ إلى اليمين»، «ارفع يدك أكثر ولا تضغط كثيراً على مقبض السيف». كنت أحمل السيف الثقيل وأنا أتصبب عرقاً، وأحاول أن أوجه ضرباتٍ غير واثقةٍ تجاه القبطان الذي كان ماداً سيفه بيد ويضع يده الأخرى على خصره، يتلقى ضرباتي دون أي جهد. استمرت الدروس وكنت أتحسن قليلاً مع الوقت، واعتدت على ثقل السيف في يدي وصرت أمسكه بإحكامٍ دون أن أضغط كثيراً على المقبض، وصار القبطان يتحرك لتفادي ضرباتي، ثم أخذ عنفرة بعد أن تعافى يعلمني ضرب السهم الذي كنت أعرف عنه القليل، فقد علمني والدي وأنا طفلة. لقد

رأيت عنفرة يبتسم للمرة الأولى، لم يقل لي شكراً أبداً، لكنه كان يعبر عن امتنانه بتمضية وقته في تعليمي شد القوس وضرب السهم. سألته مرة: «هل عنفرة اسمك الحقيقي؟»

قال: «لا، انا اسمي عبد الله».

«ومن أين جاءك اسم عنفرة إذاً؟»

قال وهو يبتسم: «إنها قصة طويلة سأحكيها لك يوماً ما، الآن أرني كيف ترمي السهم وحاول ألا تقتل أحداً من البحارة».

أما « شيخون » فقد علمني بطريقته المرحة استخدام الخنجر ودقة التصويب والرمي بطريقةٍ تصيب الهدف، هذا عندما لا يكون يقفز على السارية يراقب الأفق. تجرأت مرةً وصعدت إلى أعلى السارية، وبالتأكيد لن أفعلها ثانيةً، كان الصعود إلى هناك أكثر سهولةً بكثيرٍ من النزول، لكن المشهد الذي رأيته من الأعلى كان يستحق كل هذا العناء، فوق السارية يتحول « شيخون « من بهلوانٍ إلى فيلسوف، ووجدت أنه يفكر بعمقٍ وله فلسفته الخاصة في الحياة.

«حسناً يا قمر، لقد تعلمت فنون القتال، هل هناك شيء آخر تودين أن تتعلميه؟» قلت في نفسي حين وقفت على سطح السفينة أتأمل شروق الشمس والبحارة في أعمالهم اليومية من تنظيفٍ وإصلاحاتٍ، وأستمع إلى غنائهم ومزاحهم ومشاجراتهم، أحسست لحظتها أنهم عائلتي الوحيدة، وأحسست بقربٍ شديدٍ منهم، هؤلاء هم أصدقائي وهم لطفاء معي، خاصةً بعد حادثة الاشتباك مع السفينة واهتمامي بهم.

كنت ما زلت مستغرقةً في أفكاري حين سمعت شيخون يصرخ: «أوهو... اليابسة، اليابسة! تجمع البحارة عند حافة السفينة بفرحٍ يلوحون لبقعةٍ سوداء لا تكاد ترى في الأفق.

قال القبطان: «أخفضوا الأشرعة وأنزلوا العلم، لندخل إلى هذه المدينة كتجارٍ لطفاء محترمين». وبدأت البقعة السوداء تقترب، وكانت الشمس تميل إلى الغروب.

أسئلة الجزء السابع

1. لماذا قررت قمر أن تذهب عن طريق البحر إلى جنوة؟
2. كيف غيرت هيأتها لتبدو رجلاً؟
3. لماذا رفض القبطان أن ترتحل مع السفينة؟
4. ما المشكلات التي واجهتها قمر مع القبطان؟
5. ما الصفات التي أحبتها قمر في القبطان؟
6. أين كانت تقيم قمر في السفينة؟
7. كيف عرفت قمر أن البحَّارة قراصنة؟
8. صف المعركة بين القراصنة وسفينة الذهب الإسبانية.
9. صف الدور المهم الذي قامت به قمر.
10. هل توافق قمر على المغامرة التي قامت بها؟ وضح رأيك.
11. كيف جعلت الكاتبة اسم الملاك الأسود اسماً للسفينة؟ هل ثمة علاقة بين اسم السفينة وشخصية علاء الدين؟

الجزء الثامن
الكشف

كنت أجلس مع صديقي شيخون في ساحة فسيحة تحت مصابيح مضاءةٍ بالغاز أرقب الساحة المليئة بالناس يتمشون في هذا المساء الدافئ، وأرقب مجموعات الحمام الكثيرة تتجول في الساحة كأنها تملك المكان، ولا تكلف نفسها عناء الطيران عندما يقترب منها إنسان.

«ها أنت الآن في بلدٍ غريب، كم تبدو فلسطين بعيدة! ماذا سيفكر الناس في قريتنا إذا رأوا هذه المدينة رائعة الجمال، وفيها من الأجناس والأشكال والألوان ما لا يستطيع أحدٌ تخيله، ملابس غريبةٌ وألوانٌ أكثر غرابة».

في صباح اليوم التالي كنت في السوق مستغرقةً باستعراض الملابس الحريرية ذات الألوان الزاهية، كم اشتقت لملمسها فوق جسدي بدلاً من تلك الأحزمة الخشنة! ثم سمعت صوتاً مألوفاً يقول: «ولمن ستشتري هذ الملابس الجميلة؟»

ارتبكت واحمر وجهي، لقد أمسكني بالجرم المشهود، هل أعترف له الآن؟

«إنها لأختي».

قال: «لم تخبرني أن لديك أخوات، ظننتك وحيدًا «.

قلت: «إنها متزوجة وكنت أراها قليلاً و...»، ثم قال وكأنه لم يسمع ما قلته ودون اكتراث: «اشتر لها هذا الثوب الأحمر، إنه جميل»، واختفى في السوق الكبير بين الباعة والمشترين والبضائع.

اشتريت الثوب الأصفر وحملته إلى صندوقي . ، ومضت أربعة أيامٍ لم أر القبطان

خلالها أبداً، لم يأت إلى السفينة ولم أره في السوق ولم أجده في المقاهي التي يرتادها البحارة. سألت عبدون: «أين القبطان؟ لم أره منذ فترة».

قال: «ولن تراه قبل موعد الرحيل».

ها قد جاء أخيراً اليوم الأخير لنا في جنوة، غداً سنبحر.

كان مشغولاً جداً بعد أن عاد إلى السفينة بإلقاء الأوامر وترتيب الأمور ونقل الطعام والماء والاحتياجات الأخرى لرحلة أخرى. كان واقفاً ويتأمل أحد البحارة يترنح تحت برميلٍ كبيرٍ من الماء، عزمت أمري، سأخبره الآن وإلى الجحيم بكل العواقب!

«أيها القبطان، أريد أن أحدثك بأمرٍ ما»، قلت له بصوتٍ مرتجف.

«ليس الآن، ليس الآن، غداً، أنا مشغول»، وبدأ يلقي سلسلةً من الأوامر على البحارة.

نزلت إلى صندوقي. وفي اليوم التالي صحوت على صراخه: «ارفعوا المرساة، شدوا الحبال»، وبدأت السفينة تتحرك ببطء. خرجت إلى سطح السفينة ، وبدأت أرقب الميناء يبتعد، وبدأت أصوات جلبة اليابسة تختفي، وعاد الهدوء وصوت البحر، كان مزاج البحارة ما زال فرحاً، وأخذوا يتبادلون القصص حول مغامراتهم في جنوة.

«سأخبره هذا المساء، هذه الليلة». وفي المساء ذهبت إلى صندوقي وخلعت الحزامين الجلديين ولبست الثوب الأصفر ، كم أحسست بالانطلاق والحرية دون أحزمتي وفي هذا الثوب الفضفاض، يا إلهي كم اشتقت لأكون امرأة! أطلقت شعري الذي أصبح أطول قليلاً، ثم نظرت إلى يدي، لقد أصبحتا خشنتين كأيدي البحارة، لكن لا بأس عموماً، فأنا أبدو امرأة! وبدأت أعد في ذهني الجمل التي سأقولها للقبطان حين يعود إلى قمرته، ثم سمعت صوت خطواته ينزل الدرج ثم

يدخل إلى قمرته، وبعدها صوته يتحرك في الحمام.

«يا عجيب، أين أنت يا صديقي؟» قال بصوته الذي صرت أعرف من نبرته نوع مزاجه، وكان مزاجه هذا المساء هادئاً ونبرته تدل على أنه جاهزٌ للاستماع إلى حديثي.

قلت من خلف الباب: «ها أنا قادم». وضعت يدي على المزلاج وقلبي يسبقني ورجلاي ترتجفان، «ها هي اللحظة قد أتت.

في تلك اللحظة سمعت صراخاً في الأعلى وأصوات أقدامٍ تنزل بسرعةٍ على الدرج، وصوت عبدون يقول لاهثاً للقبطان: «لقد طعن شيخون عليّاً في صدره وهو ينزف!» عندها سمعت القبطان يقول: «بسرعة يا عجيب»، وسمعت أقدامه وأقدام عبدون تتسلق الدرج بسرعة.

«لماذا اخترت يا صديقي هذه اللحظة بالذات لتطعن عليّاً؟» ولم أترك لنفسي مجالاً للتفكير، خلعت الثوب الأصفر بسرعة ولبست الأحزمة وبقية ملابسي كرجلٍ وخرجت إلى سطح السفينة. كان عليٌّ ممددًا على الأرض وقد وضع أحدهم كيساً تحت رأسه، أما شيخون فقد كان يمسكه اثنان من البحارة الأشداء وكان يبصق دماً ويصرخ.

قال القبطان: «خذوه بعيداً قبل أن أفقد أعصابي»، فشد البحاران شيخون من مرفقيه وأنزلاه إلى باطن السفينة، اقتربت من عليّ الذي لم يكن جرحه قاتلاً لحسن الحظ، فلو أراد شيخون أن يقتله لقتله فعلاً، وبدأت بعلاجه وتضميده ثم أنزلناه إلى أسفل السفينة حيث بقيت تلك الليلة ساهرةً إلى جانبه. لا بد أني غفوت قليلاً، لأني استيقظت برعبٍ على صراخٍ في الأعلى يقول: «سفينةٌ على البعد». صعدت مسرعةً وكانت سفينةٌ تقترب منا، هذه المرة لم يأمرني القبطان بالنزول إلى صندوقي، بل أمر الجميع بالاستعداد وطي الأشرعة ورفع العلم.

عندما اقتربت السفينة الأخرى منا وجدنا أنها سفينةٌ صغيرة الحجم في حجم سفينتنا تقريباً، ثم لاحظت علم القراصنة مرفوعاً فوقها. رأيت قبطان السفينة الأخرى، ضخم الجثة له لحيةٌ سوداء كبيرةٌ وشوارب كثيفة، وقد وضع يديه فوق فمه وصرخ على القبطان علاء الدين: «هيه، يا علاء الدين، ها قد التقينا مرة أخرى!»

فصرخ علاء الدين: «أنا سعيدٌ بلقائك يا سيدي القبطان»، قالها وهو ينحني في حركةٍ مسرحيةٍ ساخرة.

فصرخ القبطان: «لنر من هو ملك البحار إذاً»، وبحركةٍ من يده قذفت السفينة الأخرى نحونا قذيفةً وقعت في البحر، كان القبطان الآخر يضحك بصوتٍ عالٍ فصرخ علاء الدين: «ردوا للقبطان جعفر التحية»، فقذفت سفينتنا قذيفةً باتجاههم سقطت هي الأخرى في البحر.

«هل سنقاتل تلك السفينة؟» سألت عبدون الذي كان يقف إلى جانبي، فقال: «طبعاً».

كانت السفينة الأخرى قريبةً جداً، وأخذت تقترب أكثر ونحن نسير باتجاهها، لا بد أنه سيحدث اصطدام، ستتحطم السفينتان! وبدأ قلبي يدق خوفاً: «هل سأتمكن من القتال؟» رمى بحارتنا الحبال على السفينة الأخرى وشدوها نحونا، حتى وقفت السفينتان متلاصقتان، وقفز بحارتنا إلى السفينة الأخرى وقفز بعض بحارتهم إلى سفينتنا. وقفت وسيفي في يدي لا أدري بالضبط ماذا أفعل، هذا قتال حقيقي وليس تمريناً، وكان البحارة من السفينتين يتقاتلون بشراسة، ثم سمعت خلفي أحد بحارتنا يصرخ، التفتُّ لأراه ورائي يشتبك مع أحد قراصنة السفينة الأخرى، وكانت يد بحارنا التي تحمل السيف تنزف بغزارة وقد انزلق السيف من يده وبدأ يتراجع بخطواتٍ متعثرةٍ إلى الوراء، رفع الرجل الآخر سيفه

فوق رأسه بكلتا يديه ليضرب، وفي تلك اللحظة، ودون تفكير، هجمت على الرجل بسرعةٍ وطعنته في صدره، دخل السيف إلى قلبه مباشرةً فوقع على الأرض، وقبل أن أفكر فيما فعلت ساعدت البحار على الوقوف: «هل أنت بخير؟» قال: «لا بأس، شكراً لك، انتبه!» قال الكلمة الأخيرة وهو يصرخ وينظر خلف ظهري، التفتُّ خلفي لأجد أحدهم يقترب مني حاملاً في يده سيفاً طويلاً، كان الرجل ضخم الجثة وكان شعره طويلاً يتهدل على كتفيه وعلى وجهه ابتسامةٌ مرعبةٌ كمن يريد أن يشرب من دمي، اقترب مني فرفعت سيفي، لكنه أسقطه مني بضربةٍ واحدةٍ قويةٍ من سيفه، وبدأت أتراجع إلى الخلف وهو يقترب أكثر موجهاً سيفه إلى قلبي، رفع سيفه إلى الأعلى بيده اليمنى ثم هوى به، لكني رأيت بطرف عيني قبل أن أسقط عنفرة يقف على البعد يحمل قوسه ويغمز لي بعينه، لقد رمى سهمه في ظهر مهاجمي في اللحظة المناسبة.

مدّ القبطان لي يده ليساعدني على الوقوف وناولني سيفي، وبقفزةٍ واحدةٍ كان على السفينة الأخرى يستأنف القتال. وقفت لاهثةً أراقب حركاته الرشيقة وكيف كان يتفادى الضربات بمهارةٍ وكأنه كان يرقص، ثم أحسست شيئاً ثقيلاً يضرب رأسي. استفقت حين أحسست ماءً بارداً يلقى فوق وجهي، كنت ما زلت مستلقيةً على الأرض، فتحت عيني فأرغمتني أشعة الشمس على إغلاقهما من جديد، ثم حاولت أن أرفع رأسي فأحسست أن السفينة تدور، فوضعته ثانيةً على الأرض ووضعت كفي فوق عيني لأحميهما من أشعة الشمس الحارقة، وفتحتهما ببطءٍ ثانيةً فرأيت فوقي وجه «ملفوفة» الطيب ينظر إلي بقلق: «الحمد لله أنك بخير!»

قلت: «ماذا حدث؟» وعندما فتحت فمي أحسست بوجعٍ شديدٍ في مؤخرة رأسي، وضعت يدي مكان الوجع لأحس ورماً بحجم برتقالةٍ صغيرة.

قال الطباخ وهو يمسك يدي ليساعدني على الجلوس: «لقد ضربك أحدهم على رأسك بصندوق».

وضعت يدي ثانيةً فوق الورم وكان رأسي يؤلمني ألماً كبيراً، وأحسست كأن هناك من يضرب رأسي بعصا ضربًا منتظمًا متواصلًا، نظرت حولي وما زال الدوار يجعل السفينة ومن عليها تدور، ومع ذلك تمكنت في هذه النظرة الخاطفة ملاحظة بعض الجرحى، وكانت السفينة تبدو وكأنها لم تصب بأذى، ولم أرَ أثراً للسفينة الأخرى. أحسست الطباخ يضع ضمادة ماءٍ باردٍ فوق الورم، فأمسكتها لأثبتها هناك وسألته: «والقبطان، هل هو بخير؟».

قال بابتسامةٍ مطمئنة: «إنه بخير، وكذلك معظم البحارة، هيا ساعد نفسك لتساعدهم»، وربت على كتفي بأبوة وتركني عائداً إلى المطبخ.

كنت ما زلت أجلس على أرض السفينة أتحسس الورم في رأسي حين اقترب القبطان، وكان ملطخاً بالدماء، فسأل بابتسامة: «هل أنت بخير؟»

قلت: «نعم، وأنت؟»

قال: «الجرحى بحاجةٍ إليك»، ومد يده ليساعدني على الوقوف، وقال: «بالمناسبة، ما زال دفاعك ضعيفاً»، وتركني ومشى بعيداً. بدأت أضمد الجرحى بالرغم من الألم الشديد في رأسي، لم تكن جراحهم خطيرةً ما عدا أحد البحارة ويسمى «طرفة»، كانت يده قد قطعت من المرفق، فاضطررت لإحضار بعض الجمر وحرقها، ففاحت رائحة اللحم المحروق التي تثير الغثيان، وبعد أن ضمدتها كان قد أغمي عليه لحسن الحظ، فنزلت إلى الحمام وتقيأت. صعدت في المساء إلى ظهر السفينة وكان الهدوء يخيم على المكان، رأيت شيخون يرقص مغنياً فوق البحر على صندوقه فوق الصارية، ونسيمٌ خفيفٌ له رائحة الملح يهب على وجهي. أحسست بيدٍ تضرب على ظهري: «ما رأيك بهذا الخاتم؟» كان عبدون

يمد لي يده اليمنى ويلبس في إصبعه خاتماً ذهبياً كبير الحجم.

قلت: «لا بأس».

قال: «هي غنيمتي لهذا اليوم».

سألته: «ولكن ماذا حدث؟ وكيف انتهت المعركة؟ وماذا حصل للسفينة الأخرى؟» فضحك عبدون ضحكةً عاليةً وقال: «لقد ذهبوا في حال سبيلهم»، وبدت على وجهي علامات الحيرة، فقال وهو ما زال يضحك: «القبطان جعفر هو شقيق القبطان علاء الدين، وهو يحب المزاح»، صعقت! هذه المعركة والدماء التي نزلت والقتال والورم في رأسي والرجل الذي قتلته كان مزاحاً؟ لحظتها بدأت أرتجف، فأنا من هول المعركة والمفاجأة نسيت أنني قتلت رجلاً، لقد أصبحت قاتلة!

قال: «لقد كنت بطلاً هذا اليوم، وسيدين لك خنفر بحياته إلى الأبد، هيا، إلى أين أنت ذاهب؟»

ركضت إلى أسفل السفينة وأغلقت صندوقي على نفسي وبدأت أبكي بمرارة، حبست نفسي يومين متواصلين تنازعني مشاعر الذنب والخوف والقرف، ثم أخرجني القبطان من عزلتي: «هيا يا رجل، لنر ماذا سنفعل بدفاعك الضعيف».

كنت كلما حاولت أن أنفرد بالقبطان لأبوح له بسري يحدث شيءٌ يمنعني من الكلام، لذلك قررت أن أصمت وقلت في نفسي ستأتي الفرصة وحدها. ومرت الأيام والشهور ولكن تلك الفرصة لم تأت. في تلك السنة استولينا على ذهب ثلاث سفنٍ وفرت اثنتان منا قبل القتال. نزلنا في كثير من الموانئ، وتعرفت كثيراً من المدن الكبيرة والصغيرة، الصديقة والعدوة، وانغمست تماماً في دوري كقرصان حتى كدت أنسى أني امرأة.

قد استغرقتني حياة المغامرة هذه، وأحس بالفرحة الممزوجة بالخوف كلما اقتربت سفينة منا، أصبحت أحسن القتال والدفاع وأحسست أني خلقت لأكون «قرصانة»، وأصبحت حياتي في فلسطين كأنها حلمٌ مضى وانقضى. صارت علاقتي بكل البحارة تقريباً شديدة الوثاق، وتطورت علاقتي مع القبطان الذي صار يعاملني كصديقٍ وكرفيقٍ وليس كخادم، لكنني فكرت أنني إذا أخبرته سأفسد على نفسي وجودي فوق هذه السفينة، وصارت حياتي السابقة وكأنها شبحٌ يظهر ويختفي بين الفترة والأخرى، إلا أنني ظللت أحس بوخز الشوق عندما أتذكر أختي شمس، لا بد أن أطفالها صاروا شباباً! وعندما أتذكر السيدة الطيبة أم نجم، ترى هل ما زالت على قيد الحياة؟ وما زلت أحس بحزن لنور الهدى التي، بالرغم من موتها، ما زلت أشعر بها وكأنها حيةٌ وكأنها تنتظرني، لكن هذه الحياة الجديدة صارت جزءاً مني وكأنها حاضري ومستقبلي.

وهكذا بقيت أؤجل مفاتحته في الأمر حتى كان ذلك اليوم ، كنا في جنوة مرةً أخرى وكان معظم البحارة في المقاهي، وكعادته كان القبطان معهم ، وبقيت في السفينة مع اثنين من البحارة، لا أذكر الآن اسميهما، للحراسة بعد أن فشل القبطان وعبدون وشيخون وحتى عنفرة في إقناعي بالذهاب معهم إلى أحد المقاهي.

كانت ليلةً صافيةً وكان القمر بكامل بهائه يعكس ضوءه على البحر، فتحول البحر إلى سائلٍ من فضة، وكانت نسمةٌ عليلةٌ تداعب وجهي، كنت لحظتها أتمنى أن أفلت شعري لينطلق مع الهواء الدافئ ويتنفس ملح البحر.

كان أحد البحارة يجلس على حافة السفينة متكئاً على عمودٍ ويغني بصوتٍ حنونٍ ودافئٍ، فلم أستطع أن أمنع دمعةً سالت من عيني وإحساساً بالشوق العارم :

كان البحار الآخر يقف على حافة السفينة من الجهة الأخرى ، ويستغرق في تفكيرٍ عميقٍ أو ربما في حالة تأملٍ وجدانية، وفجأة رأيت قارباً يقترب من السفينة وصوت المجاديف تضرب الماء بجنون، لا بد أنه مستعجلٌ هذا الذي يتحدى البحر أن يعيقه! كان هناك مصباحٌ هزيلٌ معلقٌ في القارب، لكنني لم أستطع أن أميز البحارة الذين كانوا على متنه، ثم اقترب القارب أكثر وسمعت صوت عبدون يصرخ بقوة: «أنزلوا الحبال بسرعة، القبطان مصاب!»

رفع البحارة الذين كانوا على متن السفينة، بمساعدة عبدون وعنفرة، القبطان علاء الدين إلى سطحها وكانت ثيابه ملطخةً بالدماء في منطقة الصدر، أمرتهم أن ينزلوه بسرعةٍ إلى غرفته وأن يوقظوا الطباخ. وضعوا القبطان بلطفٍ فوق سريره ووقفوا حوله، وأكاد أقسم أني رأيت دمعةً تتدحرج من عين عنفرة! مزقت قميصه فوجدت جرحاً غائراً في صدره في منطقة القلب، وكان القبطان فاقد الوعي والدم ما يزال ينزف من صدره، فأدركت لحظتها أنني ربما لن أستطيع إنقاذه، حاولت إيقاف الدم النازف لكنه لم يتوقف، غسلت الجرح بالأعشاب المطهرة ووضعت ضماداتٍ فوقه ولكنها كانت تمتلئ بالدماء بسرعةٍ بالغة. سألت عبدون الذي كان واقفاً مذهولاً إلى جانب رأس القبطان عما حدث، فقال: «وقعت مشاجرةٌ بين القبطان وأحد البحارة من سفينةٍ أخرى، فهجم الرجل على القبطان لكنه كان ضعيفاً تماماً ولم يستطع أن يسدد السيف بشكلٍ جيد، وكانت ضربة القبطان له أسرع فمات على الفور، وعندها هاجم بعض بحارة السفينة الأخرى القبطان فهببنا لمساعدته وجرت معركةٌ شديدةٌ داخل المقهى، وبعد أن انتهت المعركة وجدنا القبطان ملقىً على الأرض وفي صدره سكين!» سكت عبدون ولم يستطع أن يكمل، فقد خنقه البكاء، فتابع عنفرة الكلام: «لقد!» قتلوه !

نظرت إليه باستغرابٍ: «ماذا قلت؟

كان صوت القبطان واهناً ومتعباً وإن كان يحاول أن يجعله طبيعياً، كان قد

استعاد وعيه ويحاول الجلوس، ولكني أمرته أن يبقى مستلقياً على ظهره، فنظر إلي وقال: «ها أنت تبكي كالنساء ثانيةً!» وكنت أغير ضمادته المليئة بالدماء ودموعي تغسل وجهي، فبكيت أكثر ، فرفع يداً ضعيفة وربت على ظهري: «إن لم أمت من ضربة السكين فسأموت خنقاً منك»، عندها ابتعدت عنه وأنا أحاول أن أبتسم من خلال دموعي، ثم أغمض عينيه، فأخذت أصرخ وقد اقترب منه البحارة أكثر وهم يبكون. فتح القبطان عينه مرةً أخرى وبدا كأنه لا ينظر إلى مكانٍ محددٍ وكأنه لا يرى، ثم قال بصوتٍ هامسٍ وضعيفٍ: «ما هذا المأتم؟ أنا لم أمت بعد! رجلٌ مثلي لن يموت بهذه السهولة...»، وأغمض عينيه ولكنه لم يفتحهما بعد ذلك.

أسئلة الجزء التاسع

1. لماذا ذهب البحَّارة إلى المقهى في جنوة؟
2. لماذا اشترت قمر ملابس نسائية جميلة؟
3. ماذا فعلت قمر بالقرصان الذي اعتدى على أحد البحَّارة؟
4. ماذا كانت نتيجة المزاح بين القراصنة في سفينتيهما؟
5. ماذا جرى للقرصان علاء الدين في المقهى؟
6. اكتب تعليقاً من خمسة أسطر على حياة القراصنة مبيناً رأيك.
7. لماذا سمي هذا الجزء بالكشف؟

الجزء التاسع

العزلة

كنت قد عزمت أمري بعد موت علاء الدين ألّا، أستمر في حياة القرصنة بعد الآن، وربما آن الأوان لأعود إلى وطني وربما قريتي، وأعيش هناك وأموت بهدوء، قررت ترك السفينة عند أول مرفأ. حين وصلنا إلى طنجة أخبرت أصدقائي بقراري اعتزال حياة القرصنة، فحاولوا إقناعي أن أغير رأيي ولكني كنت مصرة، لم أعد أطيق حياة البحر.

قبل أن أغادر السفينة ناداني عنفرة وناولني كيسين مليئين بالذهب، قائلاً بأن هذا حصتي من الغنائم وحصة القبطان علاء الدين ، رفضت ذلك بشدة ووودعت أصدقائي بالدموع وغادرت السفينة إلى الأبد، محاولةً ألا ألتفت ورائي.

استأجرت غرفةً في الخان، وبقيت هناك أفكر فيما سأفعل في حياتي، وقضيت الأيام والساعات لا أفعل شيئاً سوى المشي على شاطئ البحر دون هدىً، وكنت عندما أرى سفينةً على البعد أو راسيةً في الميناء أهرب من المكان وأهرب من الذكريات.

بعد شهرين من التجوال والتفكير قررت أن أعود إلى شخصيتي الحقيقية ، فاشتريت ملابس نسائيةً واستأجرت بيتاً متواضعاً على شاطئ البحر وبقيت فيه أفكر ماذا سأفعل. فكرت مراراً في العودة إلى فلسطين، لكن في كل مرةٍ كانت الفكرة تبدو بعيدة، ليس فقط بسبب الرحلة الطويلة، لكن لأني لم أكن أعرف ماذا سأفعل هناك، وبدت العودة إلى القرية مخيفة، ذلك أني خشيت حياة الوحدة والعزلة، ثم تساءلت إن كنت سأذهب إلى بيت شمس، ولكن حتى هذه الفكرة بدت بعيدةً وغير واقعية، ولم يجعلني التفكير بأي من الخيارين أحس بالراحة، ماذا إذاً؟ فكرة مواصلة الترحال بدت أيضاً غير مقبولة، فقد تعبت من الرحيل

وما زال قلبي مثخناً بألم الفقد وذكريات البحر، وصار الإحساس بالتعب والخوف يراودني كلما فكرت في السفر ومواجهة رحلةٍ أخرى. وبعد فترةٍ طويلةٍ من التفكير المضني عزمت أمري وقررت أن أبقى بعض الوقت في طنجة، على الأقل لفترة تكفي لأن أتعافى من كل ما مرَّ بي، فقررت أن أفتح حانوتاً للكتب وشغل ذلك تفكيري والكثير من وقتي، وبذلك فتحت أكبر حانوتٍ للكتب في طنجة، واخترت شاباً مخلصاً وأميناً ليشرف على شؤونه، أما أنا فبقيت في بيتي أقضي معظم وقتي على الشرفة المطلة على البحر، أقرأ كل ما يصل إلى يدي من جديد الكتب.

بدأت أرتاح قليلاً في حياتي الهادئة، وعادت السكينة إلى نفسي وأخذت أتعافى ببطءٍ من جراحي ومن الألم، وبعد ثلاثة أعوامٍ تقريباً وجدت الهدوء الذي أنشده وصارت طنجة مدينتي، وصارت شرفتي على البحر ملجئي ومكاني.

ذات يوم جاء الشاب الذي يعمل في الحانوت قائلاً إن هناك رجلاً يريد أن يشتري معظم الكتب في الحانوت مرةً واحدة، استغربت كثيراً، من يريد أن يشتري كل هذه الكتب! ولماذا؟ فقلت له إذا كان سيفتح حانوتاً للكتب فليذهب إلى مكانٍ آخر، لكن الشاب عاد في اليوم التالي مصحوباً بالرجل، فأدخلته إلى الشرفة.

انحنى الرجل قائلاً: «أرجوك يا سيدتي، أريد أن أتحدث إليك»، فدعوته إلى الجلوس ورحت أتامله، كان رجلاً عادياً جداً في مظهره، في منتصف الأربعينيات بشعرٍ أسودَ كثيفٍ يشوبه بعض الشيب، وعينين سوداوين تشعّان في ذكاء، وأسنانٍ في غاية البياض من الواضح أنه يعتني بها جيداً، هندامه يدل على سعة ثراءٍ وكان يجلس منتصب القامة ويرفع رأسه بثقة. تنحنح قليلاً وبدأ كلامه: «جئت لأزيل سوء الفهم الذي حصل يا سيدتي، فأنا لا أريد شراء الكتب لأفتح حانوتاً»، ونظر إلي كأنه يدرسني ثم تابع: «لقد سافرت كثيراً يا سيدتي وزرت مدناً وبلاداً كثيرة، وعشت مغامراتٍ لا تعد ولا تحصى، واجهت الموت أكثر من مرةٍ ولم أتزوج، والآن يا سيدتي الفاضلة قد تعبت من السفر والترحال وأريد أن أستقر

في جزيرتي، وأعيش بقية أيامي في هدوءٍ وعزلةٍ مع الكتب»، ثم سكت ومد يده إلى كأس الماء التي أحضرتها الخادمة، وعندما انتهى من الشرب أبقى الكأس في يده ونظر إلي، ولما لم أجب تابع: «لقد وجدت في حانوتكم أفضل الكتب وأثمنها»، وسكت، ثم أعاد الكأس الفارغة إلى المنضدة.

قصة هذا الرجل تكاد تتطابق مع قصتي، والنهاية التي اختارها هي نفس النهاية التي اخترتها: العزلة مع الكتب. أحسست بتعاطفٍ شديدٍ معه وبنوعٍ من الرابط الخفي يربط بيننا، ذلك الرابط الذي يربط الناس الذين مروا في التجربة ذاتها.

قلت: «الحانوت مفتوحٌ لك فاختر من كتبه ما شئت».

ابتسم الرجل ابتسامةً بانت معها كل أسنانه البيضاء، ثم انحنى انحناءة احترامٍ وقال: «شكراً لك يا سيدتي»، وخرج.

بعد أن رحل الرجل انشغلت فترةً في التفكير فيه، ترى هل واجه مغامراتٍ كالتي مررت بها؟ وهل زار البلاد التي زرتها؟ ليتني تحدثت إليه أكثر، ليتني سألته أن يحكي المزيد أو طلبت إليه البقاء فترةً أطول، ترى هل كنت سأحكي له بدوري عن تجربتي؟ لا أظنه سيصدق! لن يصدقني أحد، وفي بعض الأحيان حين أفكر فيما مررت فيه أشك في أنني فعلت كل هذا! ربما كان حلماً، ولكن هل استفقت منه؟

بعد فترةٍ أعدت بناء الحانوت وزودته بكتبٍ جديدةٍ ونسيت أمر الرجل، مع أنني أعترف الآن، وبعد مرور هذه الأعوام، أنني وقتها أحسست بنوعٍ من الارتياح له بعض الشيء، لا أدري بالتحديد ما الذي جذبني إليه، ربما وجود ذلك الماضي المتشابه، أو ربما ثقته بنفسه، ولكن مهما يكن، فقد انشغلت عن التفكير فيه، وبعد فترة نسيت أمره وانتهى، أو هكذا اعتقدت.

بعد الانتهاء من شراء الكتب الجديدة أعدت ترتيب شؤون الحانوت وعدت

ثانيةً إلى شرفتي على البحر وعزلتي مع الكتب. أحاول الآن تذكر تفاصيل تلك الشهور لكني لا أستطيع، فقد كانت أيامي متشابهةً تماماً، ومرت بهدوءٍ دون أحداثٍ تذكر. أذكر أنني وقتها كنت أحس بتمام السكينة والهدوء، وكأنني وصلت إلى تلك المعادلة السحرية من الإحساس بالرضا عن نفسي وعما حولي، فقد الزمن معناه في تلك الفترة، وحتى الآلام التي كنت أحسها تمزق قلبي كلما تذكرت البحر وعلاء الدين صارت ذكرى تمر كالأشباح، تثير قشعريرةً في جسدي ثم تختفي، وكأن الأشياء أخذت معانيَ أخرى وصارت ذكرياتي، المفرحة منها والمؤلمة، ضيوفاً أستحضرهم في الوقت الذي أشاء، ولم يعودوا يقيمون معي في كل لحظةٍ كالسابق. كنت أفعل كل يومٍ الأشياء نفسها تقريباً، الشيء الوحيد الذي كان يختلف فقط هو عنوان الكتاب الذي أقرؤه. فكرت في لحظة صفاءٍ أن أكتب مذكراتي وأن أحكي على الورق كل ما مر بي من مغامراتٍ وترحال، ثم عدلت عن الفكرة، لمن سأكتب هذه الذكريات وليس هناك من يقرؤها ؟ وإن وجد، ألن يظن أنها مجرد هذيان امرأةٍ وحيدة؟ أو ربما لم أكتبها لأنني لا أريد أن أحس بطعم مرارتها ثانية.

أرسلت الرسائل إلى أختي شمس وتخيلت أبناءها قد صاروا شباباً، وكتبت إلى السيدة أم نجم وإن كنت لا أعرف إذا ما كانت لا تزال على قيد الحياة، أتذكرها كثيراً وأتذكر الأوقات الهادئة التي قضيتها في بيتها.

كنت كثيراً ما أقحم الذكريات على وحدتي ويمثل أشخاصها أمامي، وحينها يعاودني الشوق والحنين، أشتاق لنور الهدى، وأشتاق لأحاديثنا المرحة الممتعة وأعود لأبكي فراقها ثانيةً، ويعاودني ألم الفقد الذي ظننته قد صار شبحاً، فأبكيها وكأنني فقدتها للتو: «يا نور، لقد سافرت ما استطعت وغامرت ما أردت وأوفيت بعهدي لي ولك، ولكني الآن تعبت، سامحيني يا نور، لقد تعبت وأريد أن أستريح قليلاً». كان كتاب الرحلات العجيبة ما زال لا يفارقني، كنت أتحسس جلده

الأملس وأقلب صفحاته المكتوبة بخطٍ جميلٍ فتنتابني للحظةٍ حمى السفر، ثم أعود فأذكر فقدي وألمي وأقنع نفسي أنني فعلت خيراً بالاعتزال وأنني فرحةٌ بالهدوء، والحق أنه بدأت تراودني أفكارٌ بالسفر، لكني كنت أبعدها بسرعة. مرت أيامي رتيبةً متشابهةً تشوبها الذكريات وأشباحٌ من الماضي والكثير من الهدوء، واستكنت لهذه الحياة ووجدت في رتابتها شيئاً من الراحة، كمن يسكن إلى المألوف ولا يريد أن يغير شيئاً فيه.

ذات صباحٍ ربيعيٍّ جميلٍ دخلت الخادمة إلى الشرفة لتعلن عن وجود رجلٍ في الباب يريد مقابلتي، رفعت عيني عن الكتاب الذي كنت أقرؤه لأجد أمامي الرجل ذاته الذي جاءني قبل عامٍ طالباً شراء الكتب، لا أعرف كيف ولماذا، ولكني حين رأيته واقفاً أمامي ، سلمت عليه وبادرته قائلة: «هل انتهيت من قراءة كل تلك الكتب؟»

فابتسم وقال: «أحتاج إلى بضع سنين أخرى لقراءتها».

أشرت إليه بالجلوس محاولةً معرفة سبب زيارته من خلال قراءة وجهه، لكن وجهه لم يبح بشيء، كانت حركاته توحي ببعض الارتباك، ثم شرب العصير الذي قدمته الخادمة ، وتبادلنا بعض المجاملات والأحاديث العامة حول البحر والطقس في هذا الوقت من السنة. لم أعرف بالضبط ما الذي جعلني أحس بارتياحٍ لهذا الرجل الغريب، هذه المرة الثانية التي أراه فيها، الأولى كانت قصيرةً ومقتضبةً جداً، وحتى الآن لم نتحدث إلا عن الطقس والبحر، ومع ذلك أحسست براحةٍ كبيرةٍ لوجوده، بشيءٍ لا أدري ما هو، وكأن مكانه الطبيعي هنا على هذه الشرفة في المقعد المقابل لي. تنحنح بارتباكٍ عندما رآني أدرس وجهه وقال بصوتٍ رقيقٍ وخافتٍ: «وددت الحديث إليك يا سيدتي»، ثم نظر إلى وجهي وسكت، فابتسمت ابتسامةً مشجعةً جعلته يتابع: «منذ أن رأيتك في المرة الأولى وأنا أفكر... أعني... أردت أن أراك ثانيةً»، وقبل أن أعطي أية ردة فعلٍ على كلامه

تابع بسرعة: «أرجو ألا أكون قد ضايقتك بكلامي، لم أقصد...».

فقلت له مشجعةً: «أهلاً وسهلاً»، ولم أستطع أن أفكر بأي شيءٍ آخرَ أقوله، فقال: «أردت أن أراك ثانيةً وأن أتحدث إليك، وها أنا ذا، ولأول مرةٍ في حياتي تخونني الكلمات».

ابتسمت ابتسامةً أردتها أن تبدو مشجعةً وقلت: «لا أعتقد أن رجلاً مثلك تخونه الكلمات!»

في تلك اللحظة حانت منه التفاتةٌ إلى المنضدة التي أمامي وكانَ عليها كتاب الرحلات العجيبة، فتناوله وهو يسأل: «أتسمحين؟» فأومأت برأسي.

قال: «هذا الكتاب الجميل الذي جعلني أبدأ سنواتٍ من الترحال والسفر، هل قرأته؟»

عجباً لهذا الكتاب الذي جمع أمي بأبي، وجمعني بنور الهدى، وساقني إلى ما أنا عليه الآن، والآن يجمعني بهذا الرجل! أمصادفةٌ؟ أم أن القدر ما زال يخبئ لي شيئاً؟ فقلت له: «نعم، لقد قرأته»، ويبدو أن تعبيراً ما على وجهي جعل الرجل يقول: «لقد لعب دوراً في حياتك أيضاً، أليس كذلك؟» فأومأت برأسي. نظر إلي نظرةً متسائلةً كمن يريدني أن أتابع الكلام، لكني في تلك اللحظة أحسست بنوعٍ من الضيق، وكأن هذا الرجل يستطيع أن يرى ما في داخلي، فحاولت أن أغير الموضوع وقلت ضاحكةً: «هل جئت لشراء المزيد من الكتب؟»

«لا، بل جئت لأراك».

تساءلت: «لتراني؟»

فقال: «لقد أحسست عندما رأيتك في المرة الأولى أن هناك أشياء كثيرةٌ مشتركةٌ بيننا، والحق أنني لا أعرف ما هي، ، ولقد هممت بالحضور إليك عدة مراتٍ في

العام الماضي، لكني خفت ألا أجد ترحيباً لديك»، ونظر إلي ثانيةً وكأنه يريد أن يقرأ جواباً في ملامحي، ولا بد أنه لاحظ الاحمرار على وجهي، أحسست بالارتباك و قلت له : «أهلاً بك، هل تريد المزيد من العصير؟»

فأجاب وكأنه لم يسمعني: «هل تسمحين لي بزيارتك ثانيةً؟»

قلت: «على الرحب والسعة».

فوقف ليصافحني ماداً يده، وقال: «إلى اللقاء يا سيدتي»، وخرج.

بعد خروجه وضعت يدي فوق وجهي الساخن: «أتريد مزيداً من العصير؟ أهذا كل ما تمكنت من قوله؟ وفي اليوم التالي دخلت الخادمة لتعلن عن حضوره.

دخل بقامته المنتصبة وابتسامته المضيئة وأسنانه التي كانت تبدو أكثر بياضاً تحت شاربه الأسود الكثيف، مد يده مبتسماً ثم بادرني: «أرجو أنه لا يزال لديكم بعض العصير». مددت يدي وأنا ما زلت لا أفهم ماذا يقصد، «ماذا؟» سألت.

قال: «مزيداً من العصير»، وبدأنا بالضحك بصوتٍ عالٍ لدرجة جعلت الخادمة تأتي راكضةً لتستطلع الأمر، فطلبت منها إحضار العصير وعدنا للضحك ثانيةً. أحسست بأن الكثير من الحواجز قد تكسرت، وأن الغربة أمام هذا الرجل قد اختفت تماماً، ها نحن نضحك معاً كأصدقاءٍ قدامى، فقلت له وأنا أمسح الدموع من عيني: «لا عليك، لقد كان العصير مخرجاً من موقفٍ محرجٍ لكلينا»، ثم نظر إلى البحر وسأل: «ما رأيك أن نتمشى قليلاً على شاطئ البحر؟» رحبت بالفكرة ونزلنا من الشرفة وسرنا باتجاه الشاطىء، وعندما وصلنا الرمل الذي بلله موج البحر خلعت خفي ورفعت طرف ثوبي بحركةٍ طبيعيةٍ وتلقائية، وكنت أفعل ذلك دائماً عندما أسير وحدي على الشاطئ لأحس برودة الرمال ونعومتها تحت قدمي، فنظر إلي مشجعاً ثم خلع خفيه هو الآخر ورفع طرف عباءته، وتابعنا السير والحديث وكأننا نستأنف حواراً بدأناه معاً قبل ألف عام. لم نلحظ مرور

الوقت وقد بدأت الشمس بالمغيب وصار البحر بلون البنفسج.

توالت زيارات السيد أحمد، وتوالت مشاويرنا البحرية وأحاديثنا المطعمة بالضحك أحياناً وبالحزن أحياناً أخرى. ثم ذات صباحٍ بحريٍّ دافئٍ حضر قبل موعده بساعات، وجلس على مقعده المعتاد على الشرفة، وقال: «لقد حان موعد عودتي، أتأتين معي؟»

سألته: «هل هذا عرض بالزواج؟»

أجاب: «أريد أن أمضي بقية حياتي معك، هل تقبلين؟»

ودون تردد أو حتى لحظة تفكير قلت: «نعم».

بعد أن غادر بدأت أفكر بأني سأربط مصيري بمصير هذا الرجل، وبدت الفكرة جميلة، بل أقول الحق إنها بدت رائعة، فقد أصبحت منذ أن التقيته أعد الساعات كل يوم حتى يأتي موعد حضوره، وصار وجوده في حياتي مهماً، لقد أعاد إلي الفرح والإحساس بالراحة، واستطاع أن ينسيني أحزان الماضي وأن ينبش الأشياء الجميلة في داخلي، معه أحسست بأني الأجمل والأذكى والأفضل، لقد صار جزءاً مني، وأردت أن أبقى ملتصقةً بهذا الجزء الجميل من حياتي.

اتفقنا أن يسبقني إلى جزيرته وأن ألحق به بعد أن أرتب أموري في طنجة. حررت عقداً صورياً ببيع الحانوت لخالد، الشاب الذي خدمني بإخلاصٍ وصدق، وقد منحته إياه، وخيرت الخادمة أن تصحبني إلى حيث أذهب أو أن تتركني، فاختارت البقاء في طنجة، فأعطيتها مبلغاً من المال لتعتاش به، واشتريت بعض الملابس والزينة وما ظننت أني قد أحتاجه لحياتي الجديدة، واشتريت الكثير من الأعشاب المختلفة وحملت كتبي واتجهت إلى الشرق مع إحدى القوافل، حيث تنتظرني رحلةٌ لا تقودني إلى مصيرٍ مجهول، بل إلى رجلٍ طيّب وحياةٍ فيها استقرارٌ وهدوء، حياةٍ ستكون نهاية المطاف بالنسبة لي.

وجدته ينتظرني ، وحملني إلى بيته الكبير على شاطئ البحر وتزوجنا بطقوس بسيطة. كان أحمد رجلاً بسيطاً وسهل الطباع، ومرت الأيام معه بمتعة وهدوء، وكان يفاجئني كل يومٍ بسعة اطلاعه ولطافة شخصيته، وجدت معه الحنان والدفء والراحة. استمرت مشاويرنا اليومية على الشاطئ وجلساتنا الهادئة على الشرفة نتناقش في الكتب ونروي الحكايات عن ماضينا ونتبادل قصص المغامرات البحرية، وقد أذهلته حكاية أنني عشت كرجلٍ وكقرصانٍ بضع سنين وأضحكته كثيراً، وكان فضوله عظيماً ليعرف تفاصيل تلك الفترة، وحزن معي على موت علاء الدين. كان أحمد باختصار رجلاً رائعاً ونادر الوجود، ولم ينغص على حياتي معه سوى شيئين: شوقي لشمس، وانزعاجي من السيدة فطوم.

السيدة فطوم سيدةٌ طاعنةٌ في السن تمت بقرابةٍ بعيدةٍ لزوجي، وكان قد أحضرها من القرية وأوكل إليها شؤون البيت. كانت في غاية الكآبة ودائمة التذمر والشكوى، لا تستطيع أن تحس بالفرح أو السعادة، وتجد دائماً سبباً للنكد. ناصبتني العداء منذ اللحظة التي وطئت قدمي فيها البيت، فهي لم تتزوج في حياتها، سليطة اللسان، تتدخل في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ، وتتصرف وكأني سرقت منها سلطانها على البيت وعلى أحمد، وكانت تحاول بكل الطرق أن تزعجني وتشكوني لأحمد، ذكرتني كثيراً بمواهب جارية نور الهدى وبالعجوز الشمطاء زوجة معلمي في طنجة التي يخافها الخدم.

حاولت أن أحسن العلاقة بيننا، حاولت استرضاءها بالهدايا وتركت لها الحرية المطلقة في تسيير شؤون البيت، لكنها مضت في مضايقاتها لي فقررت أن أتجاهلها تماماً. لكنني كنت كثيراً ما أبكي خفيةً عن أعين زوجي من سلاطة لسانها وحقدها، لكني لم أشك له عنها، ولم أحك له عن مضايقتها لي، فهو لن يجعلها تترك البيت، إذ لا مكان لها في هذه الدنيا سوى هذا البيت وبضعة أقارب في القرية، وأحمد لا يستطيع أن ينهرها أو يوبخها لكبر سنها واحترامه لها، وقد قدرت موقفه هذا وقررت الصمت والتحمل لأجله.

أسئلة الجزء التاسع

1. لماذا قررت قمر الاعتزال وترك السفينة بعد موت القبطان علاء الدين؟
2. أوصى علاء الدين نائبه عنفرة أن يعطيها مبلغاًمن المال؟ ماذا أعطاها؟
3. لماذا اختارت قمر أن تقيم في بيت على شاطئ البحر؟
4. اختارت قمر أن تفتح حانوتاً، ماذا اختارت أن تبيع فيه؟ لماذا في رأيك اختارت هذا الأمر؟
5. تزوجت قمر من شاب نبيل. كيف جرى اللقاء؟ وكيف وافقت على الزواج؟
6. ماذا فعلت بالحانوت بعد الزواج؟
7. أين رحلت مع زوجها ؟
8. ما وجه الشبه بين زوجة المعلم وفطوم؟

الجزء العاشر

نجمة الصباح

بعد مرور سنتين على الزواج أنجبت طفلتي نجمة الصباح. لقد قال لي زوجي حين أنجبتها: يا لها من جوهرةٍ ثمينةٍ كنجمةٍ مضيئةٍ في السماء! ما رأيك أن نسميها نجمة الصباح؟»

كانت سعادتي بنجمة الصباح لا توصف منذ اللحظات الأولى، وأحسست بهذا الرابط العجيب بيننا، وهذا الحب الذي لا يشبهه شيء، كان يكفي أن أنظر إلى هذا الوجه البريء وهاتين العينين المدهشتين المدهوشتين دائماً لأحس أن كل هموم الدنيا قد ذابت وتبخرت. وبالرغم من أن أحمد أحضر لها مرضعةً ومربيةً، إلا أنني رفضت أن أسمح لأحدٍ غيري أن يهتم بشؤونها، كنت أرضعها وأحممها، وأغني لها حتى تنام، وكنت أحملها وأسير بها على شاطىء البحر وأحدثها، كنت أعرف أنها لن تفهم ما أقول، ولكني كنت أحكي لها عن كل شيء: عن قريتي وأهلي وحياتي في البحر مع القراصنة، وكانت تراقبني بعينيها السوداوين وأنا أحدثها، وأكاد أقسم، من نظراتها، أنها في بعض الأحيان كانت تفهم ما أقول، وكثيراً ما كنت أجدها قد غفت مستكينةً بين يدي مطمئنةً لصوتي، فأتابع الكلام.

كنت أكتشف كل يومٍ متعةً جديدةً في الأمومة، وأحس بالسعادة الغامرة في تعليمها، وفي شهرها الثالث كنت أجلسها مستندةً إلى الوسائد وأمسك الأشياء وأحكي أسماءها، فتفتح عينها بدهشةٍ وتضحك من حركاتي. كم كان رائعاً أن أكون أول من يعلمها الأشياء الأولى والخطوات الأولى والكلمات الأولى، وأن أساعدها على اكتشاف العالم من حولها، حتى بالنسبة لي صارت الأشياء الصغيرة تأخذ شكلاً ومعنىً مختلفاً.

كان أحمد يراقبنا وعلى وجهه سعادةٌ لا توصف، يحملها ويدور بها في أرجاء

البيت قائلاً للجميع: «هذه نجمة الصباح، ابنتي»، وكأنهم لم يعايشوا حياتها معنا لحظةً بلحظة. كان يغيب في المدينة ليوم أو اثنين ويعود محملاً بالهدايا والألعاب والملابس، وحين أحاول الاحتجاج يقول: «ستكون ابنتنا أميرةً حقيقيةً»، كان يحكي لها القصص كل ليلةٍ قبل النوم ويغني لها، ويتابع كل تفاصيل طقوسها اليومية، من الحمام إلى تغيير الملابس إلى الوجبات، كانت نجمة شمس نهارنا، ونسمة يومنا وضحكةً كسرت رتابة أيامنا ومنحتنا سعادة صافية.

كنا وأحمد نجلس الساعات على الشرفة المطلة على البحر نتحدث عنها بعد أن تنام ونتبادل الملاحظات حول كل حركةٍ قامت بها وكل كلمةٍ تفوهت بها، وكان الخدم في البيت يتسابقون إلى حملها أو تدليلها وملاعبتها، ما عدا فطوم التي لم تحاول الاقتراب منها أو حتى الابتسام لها، وكانت نجمة تخاف منها وتهرب عندما تراها أو تدير وجهها عنها.

عندما بدأت نجمة خطواتها الأولى كانت تتشبث بكل شيء حتى لا تقع، وذات مرةٍ كادت تفقد توازنها فلم تجد شيئاً تمسك به إلا طرف ثوب فطوم، التي كانت بالمصادفة واقفةً بالقرب منها، فصرخت فطوم: «أبعدي يديك عني، إنهما وسختان، انظري، لقد اتسخ ثوبي!»

كان أحمد في الغرفة المجاورة فسمع صراخ فطوم الهستيري وبكاء نجمة المستغرب. كنت طوال الفترة الماضية أحاول أن أتجنب فطوم وأن أبعد نجمة عنها، لكن تلك اللحظة كانت مصادفةً سيئةً للغاية. خرج أحمد من الغرفة وحمل نجمة بين يديه وضمها إلى صدره محاولاً تهدئتها، وقال لفطوم بصوت هادئٍ وبارد: «أعتقد أنه آن الأوان لتزوري القرية».

صرخت فطوم وبكت وولولت: «أتطردني يا أحمد! أنا التي ربيتك واعتنيت بك وأدرت شؤون البيت، تطردني! لقد أثرت عليك هذه الغريبة!»

فقال أحمد بصوتٍ جعله هادئاً ما أمكنه: «لا أطردك، ولن أنسى أبداً ما فعلتهِ من أجلي، لكني أعتقد أنك بحاجةٍ إلى زيارة القرية لبعض الوقت، فأعصابك متعبةٌ هذه الأيام، ومضى وقتٌ طويلٌ منذ آخر زيارة لك إلى هناك».

بعد أسبوع كانت فطوم على السفينة المغادرة تبكي بحرقةٍ وتنظر لأحمد من بين دموعها عله يرجع عن قراره. ابتعدت السفينة وشبح فطوم ما يزال ماثلاً فوقها. بعد رحيلها عاد الهدوء إلى البيت، وأحسست للمرة الأولى منذ أن دخلت إلى هذا المكان بأنه بيتي، وأنني أستطيع أن أفعل فيه ما أشاء، فأعدت طلاءه بألوانٍ زاهية، وأعدت ترتيبه وغيرت الأثاث القديم الذي كان في كل قطعة منه شبح فطوم، حتى الخدم صاروا أكثر مرحاً وحيوية. كانت تلك أجمل أيام حياتي، أحمل نجمة أو تركض ورائي تمسك ذيل ثوبي وتركض من غرفةٍ إلى أخرى وتلعب في كل مكان، نكتشف الأشياء معاً وتصرخ بفرح، وكان أحمد يشاركنا هذه اللحظات ويركض معنا على الشاطئ ويصنع لنجمة قوارب صغيرةً من الورق ترسلها في البحر وتودعها بيدها الصغيرة، أو تجلس نجمة في حضني على الشرفة ويقرأ لنا أحمد من كتابٍ أو قصيدة.

كنت أعرف أن تلك الأيام ستكون أجمل ما في حياتي، وكنت أتمنى لو أجعلها تمضي ببطءٍ أكثر، وفي لحظاتٍ كنت من شدة فرحي وسعادتي، أحس فجأة أن قلبي توقف عن النبض وكأنني أخاف أن يحدث شيءٌ يحطم هذه السعادة، ثم أقنع نفسي أني واهمةٌ وأبالغ في تفكيري، وأعود لأغرف من هذه السعادة الغامرة بكلتا يدي وبكل عقلي وروحي.

صارت نجمة في الخامسة، تمشي بثقة وتتكلم كثيراً وتحاول أن تقرأ الكتب، تقلب الصفحات وتنظر إلى الصور وتتمتم بكلماتٍ غير مفهومةٍ، وكنت أتساءل وأنا أراقبها إذا كانت ستصبح مثل جدتها وأمها مهووسة بالكتب والترحال، ولا أعرف ماذا أتمنى لها! أن تعيش حياة هادئةً ومستقرة، أم أن تخرج وتكتشف العالم كما

فعلت؟ وينقبض قلبي في الحالتين، ثم أقنع نفسي بأنها ستختار ما تشاء، وأني لن أجبرها على فعل شيءٍ لا تريده.

جاء أحمد من سفر إلى المدينة وصرخ حتى قبل أن يدخل إلى البيت: «لكما عندي مفاجأة!» فركضت نجمة إليه تريد أن ترى ما هي. دخل إلى البيت وأخرج لفافةً صغيرةً من الحرير وأجلس نجمة على ركبيته وقال: «افتحي الهدية»، فسألت: «وهذه هي المفاجأة؟»

قال وهو ينظر إلي بابتسامةٍ متوهجة: «لا، هذه هدية، أما المفاجأة فستأتي لاحقاً».

فتحت نجمة الهدية وأخرجت بيدها الصغيرة عقدين ذهبيين تتدلى من كل سلسلةٍ ذهبيةٍ نصف صدفة، فقال وهو يُلبس واحداً من العقدين لنجمة ويناولني الآخر: «هل تذكرين الصدفة الغريبة التي وجدناها على الشاطئ؟ لقد أخذتها وصنعت منها عقدين، كل نصف لواحدة منكما، فأنتما أعز وأغلى ما لديَّ».

«وما هي المفاجأة إذًا؟ أين خبأتها؟»

فقال: «ما رأيكما أن نذهب في رحلةٍ معاً؟»

سألت: «رحلة؟ إلى أين؟»

أجاب: «نقضي بضعة أيامٍ في طنجة ثم نسافر على أية سفينةٍ إلى أي مكانٍ تريدين، ألم يعاودك حنين السفر؟» وقبل أن أرد تابع: «وأريد أن أري العالم لنجمة، فهي لم تركب سفينةً في حياتها».

فقلت محتجةً: «لكنها ما تزال صغيرةً، وأمامها كل الوقت لتركب سفينةً وتفعل أشياء كثيرة، ثم لا أعتقد أنها ستحتمل رحلة كهذه، لا تزال صغيرة».

فنزلت نجمة عن ركبة أبيها وعانقتني وهي تقول: «أرجوك يا أمي وافقي، ستكون رحلةً ممتعةً وسأركب السفينة، أريد أن أرى المدينة، أرجوك يا أمي قولي نعم».

نظرت إلى أحمد راجيةً أن يعود عن رأيه، لكنه قال بلهجة نجمة: «أرجوك وافقي، قولي نعم».

لم يكن أمامي إلا أن أسأل: «ومتى نقوم بهذه الرحلة بإذن الله؟»

فقال: «بعد يومين».

فوجئت: «يومان؟ بهذه السرعة! هذا لا يعطيني الوقت الكافي لأحضر للسفر».

فقال أحمد: «لن تحضري أي شيء، سنشتري ثياباً جديدةً من طنجة»، وحمل نجمة وخرج بها إلى الشرفة، وكنت أسمعه يحدثها عن السفن وعن المدن الكبيرة.

حاولت إقناعه في اليومين قبل السفر أن نبقى في طنجة وألا نركب البحر، حاولت ان أذكره بأهواله، لكنه أصر على موقفه قائلاً إنه إذا تعودت الصغيرة على البحر الآن فلن يخيفها عندما تكبر.

مضى اليومان بسرعة وركبنا القافلة، ركبت نجمة أمام أبيها على الجمل يحضنها بيد ويسوق الجمل بالأخرى. كنت طوال اليومين متوجسةً وخائفةً لا أعرف لماذا، لكن قلبي كان يخفق بسرعة وكأني أتوقع شيئاً ما، وبقيت فوق جملي صامتةً حتى عندما كانت نجمة تصيح: «انظري يا أمي ما أكثر الرمال!» فأنظر إليها مبتسمة.

وصلنا إلى طنجة عند المغيب ونزلنا في الخان. في اليوم التالي استيقظت نجمة مبكرةً جداً وبدأت تقفز فوق الفراش وتغني: «هيا نذهب إلى المدينة، هيا، هيا، استيقظا».

في المدينة نسيت قلقي وخوفي، واستعدت حيويتي وسعادتي وأنا أرقب نجمة وأرى الفرح والدهشة على وجهها، وهي تقفز من مكانٍ إلى آخر مثل الفراشة. بعد ذلك ذهبنا إلى الشاطئ فأشار أحمد إلى سفينةٍ ضخمةٍ رابضةٍ في الميناء وقال: «هذه سفينتنا «قاهرة البحار»، ستغادر بعد يومين إلى الأندلس، ما رأيك؟»

قلت دون تفكير: «إنها كبيرة!» لكن الحق أن رؤية السفينة والبحر أعادت إلي الإحساس بالخوف والقلق، وعادوتني المشاعر المتشائمة بأن شيئاً ما سيحدث. أخبرت أحمد بمخاوفي، وحاولت أن أقنعه بأن نبقى في المدينة بدلاً من السفر في البحر، لكنه كان عنيداً جداً، فحاولت أن أقنعه بالبقاء في المدينة مزيداً من الأيام على الأقل، وأن نركب السفينة التي تغادر بعدها.

لكنه قال بابتسامةٍ ساحرةٍ وهو يشير إلي: «هذه ليست المرأة التي أعرفها! أين حسك بالمغامرة؟ أين المرأة الشجاعة المقاتلة؟»

فقلت له: «هذه المرأة المغامرة المقاتلة لم يكن لديها طفلةٌ تخاف عليها».

فأكد لي: «دعك من هذه الوساوس، لن يحدث شيء، أعدك، رحلةٌ بحريةٌ لعدة أيامٍ فقط، من يسمعك يظن أنك لم تركبي البحر في حياتك».

لكني ترددت، فقال وهو يشد على يدي: «هيا، أريني ابتسامتك الجميلة، ولنذهب لتناول السمك»، فأمسكت بيد نجمة وانطلقنا، لكني لاحظت أني أشد على يدها بقوة، فتركت يدها ومشيت إلى جانبها صامتة.

جاء يوم السفر بسرعة، وكنت أمام ثقة أحمد وتشجيعه وحماسة نجمة قد وضعت جانباً مشاعري المتشائمة ومخاوفي وبدأت أستعيد حماستي، والحق أن الشعور بالمغامرة بدأ يسيطر علي، وبدأت أستعيد مشاعر لحظات ما قبل الصعود للسفينة من تشوق وتطلع، وذلك الإحساس اللطيف وكأن هناك عصافير تطير وتزقزق في معدتي، فسرت بحماسة نحو السفينة، وعندما وصلنا إلى ظهرها

بدأت نجمة بالقفز والركض في كل مكان وأحمد يركض وراءها ويشرح لها بصبره المعتاد عن كل شيءٍ تراه وتسأل عنه، فتركتهما ونزلت إلى القمرة المخصصة لنا لأرتب الملابس، وبعد ساعة بدأت أحس بالاهتزاز المألوف للسفينة وهي تبحر، نفس الإحساس اللطيف الذي كان يراودني في كل مرةٍ عندما تبدأ فيها السفينة بالتحرك، التوتر والسير نحو شيءٍ جديد، الإبحار إلى مغامرةٍ جديدة. عاودتني الذكريات وابتسمت لشبح القبطان علاء الدين الذي مثل أمامي بقامته الفارعة.

مر أول يومين بسهولةٍ ويسر، ومع أن نجمة كانت تعاني من نوبات غثيانٍ، إلا أنها تغلبت عليها بسرعةٍ بفضل طبيعتها المرحة التي لا تترك مجالاً للمرض بأن يقعدها عن مغامرات اكتشافٍ فوق السفينة، وبفضل الأعشاب التي سقيتها نقيعها. حازت نجمة على إعجاب الجميع من مسافرين وبحارة، وكثيراً ما كنت أفتقدها لأجدها تتحدث مع الطباخ العجوز أو تجلس عند نجار السفينة الذي صنع لها حصاناً من الخشب، حملته في اليوم الثالث وبقيت متمسكة به قائلة: «إنه هدية من صديقي».

مرت الساعات بهدوءٍ وهناء، وكان البحر لطيفاً تتمايل فوقه السفينة بيسرٍ ورشاقة. في اليوم الرابع بدأت الريح التي كانت في البداية نسمةً لطيفةً تتحرك بسرعةٍ أكبر، وصارت السفينة تهتز بقوةٍ أكثر، وقد أعاد هذا الاهتزاز حالة الإحساس بالغثيان لدى نجمة، لكن، وحسب تجربتي السابقة، لم يكن هناك من داعٍ للقلق، فقد كنت أحس أن حركة الرياح طبيعية في مثل هذا الوقت من السنة، وكنت أحس بثقةٍ من أن السفينة لن تتأثر كثيراً بحركة الريح هذه، فقد كانت أكبر بكثيرٍ من سفينة القراصنة التي عشت فوقها سنوات، وكانت سفينتنا أكثر قدرة على التحمل، وإن كانت أقل قدرة على المراوغة بسبب حجمها، لكن لا حاجة للمراوغة، فلن تحصل معركة في البحر تجبرها على ذلك.

ذهبنا للنوم ليلتها ووضعنا نجمة معنا على السرير لنعطيها الإحساس بالأمان،

لكني بقيت مستيقظةً أحسب شدة الريح واتجاهها من حركة السفينة واهتزازتها، وبدأت ألاحظ أن حركة الريح أخذت بالاشتداد المتسارع فخرجت إلى ظهر السفينة، تماماً كما كنت أفعل في سفينة القراصنة. لم أستطع أن أرى شيئاً، فقد كان الضباب الكثيف يغلف المكان كله، وكنت أستطيع بصعوبةٍ بالغةٍ أن أرى ضوء المصابيح، كنت أهتز فوق السفينة بقوةٍ حتى كنت بالكاد أتمكن من أن أقف على قدمي. اقتربت من القبطان الذي كنا قد تعشينا على مائدته في الليلة السابقة، وكان مشغولاً بإلقاء الأوامر ومراقبة الأفق، فسألته إن كان بحاجةٍ إلى مساعدة فقال: «أرجوك يا سيدتي أن تعودي إلى قمرتك، وجودك هنا يعرضك للخطر، أرجوك سارعي بالعودة»، ثم قال بصوتٍ جعله يبدو واثقاً: «لا داعي للخوف، فنحن نسيطر تماماً على الموقف»، لكني أحسست بالقلق والتوتر في صوته. انتبهت إلى نفسي وكنت قد نسيت أنني الآن سيدةٌ مسافرةٌ برفقة زوجٍ وابنة، وأنني لست قرصانةً ولا يجب أن أكون فوق سطح السفينة. حاولت العودة إلى القمرة وقد بدأت السماء تمطر بشدة، كان علي وقتها أن أدرك الخطر، فحاولت التقدم نحو الدرج وكان تقدمي بطيئاً جداً بسبب قوة الريح وقوة المطر وانعدام الرؤية تقريباً، ثم سمعت صوت ضربةٍ وصراخ، فعدت أدراجي من الناحية التي أتيت منها، فوجدت أحد البحارة ملقىً على الأرض وينزف دماً غزيراً من رأسه بعد أن ضربته بقوة قطعة خشبٍ انكسرت من الصارية بفعل الرياح الشديدة، ذهبت إليه وحاولت مساعدته على الوقوف، لكني وجدت أنه قد أغمي عليه، فحاولت أن أسحبه من يديه نحو الدرج أو أي مكان يحميه من الرياح والأمطار، وكان الرجل ضخم الجثة ثقيلاً جداً، فسحبته بكل قوتي، لكن ثقل جسده كان يقاومني، ثم فجأة أحسست أن سحبه صار أسهل وأن وزنه صار خفيفاً، انتبهت إلى أحمد وهو يمسك الرجل من قدميه ويساعدني على دفعه، فصرخت أحاول أن أوصل صوتي إليه في صوت الريح والمطر: «لنضعه بجانب هذا الصندوق». أسندنا ظهر الرجل إلى الصندوق، وخلعت الشال الذي كان على

رأسي وبدأت أضمد رأسه، ثم سألت أحمد: «أين البنت؟»

قال: «إنها نائمة».

فقلت: «أرجوك لا تتركها وحدها، سألحق بك بعد قليل».

اتجه نحو الدرج بتردد ثم سأل وهو يحاول البقاء واقفاً: «لكن، وأنت؟»

قلت: «أنا بخير، سأضمد رأس الرجل وألحق بك».

بعد أن اختفى أحمد عن ناظري عدت لأكمل تضميد رأس الرجل، ثم انتبهت إلى أنه فارق الحياة، فقمت من مكاني واتجهت نحو الباب المؤدي إلى الدرج ممسكةً بأي شيء أستطيع التشبث به في سيري، حتى لا ترميني الرياح من فوق ظهر السفينة. كانت الريح شديدةً جداً والمطر ينزل بقوة، لم أعرف أن السماء تحتوي على هذه الكمية من الماء وتنزلها مرةً واحدة، كان الموج عالياً يتخبط ويضرب جنبات السفينة التي كانت تتمايل تمايلًا عنيفًا، هناك شيءٌ غير صحيح، فحسب حساباتي ومعرفتي السابقة فإن هذه الريح لا يمكن أن تهب قبل شهرين من الآن، فقدت القدرة على التركيز، لا أريد أن أفكر الآن بحسابات الريح، أريد فقط أن أنزل إلى القمرة، أريد شيئاً أتشبث به حتى لا أقع، وفي رأسي هدفٌ واحدٌ أن أصل إلى ابنتي وأن أكون إلى جانبها، لابد أنها استيقظت الآن على هذه الأصوات المرعبة، لكن هذه الريح الشديدة ! والمطر يضرب وجهي وجسمي كالسكاكين ويمنعني أن أرى أمامي، ثم سمعت خلفي صوت شيءٍ يتحطم، رفعت عيني إلى أعلى لأرى من خلال الضباب شبح الصارية يميل بشدة، ستسقط الصارية! بدأ الشراع يتمزق محاولاً الإفلات، ثم سمعت صوت الخشب يتحطم، وكان الصوت عالياً حتى سمعته بوضوحٍ فوق صوت الريح، ثم بدأت الصارية تسقط ببطءٍ في البداية ثم تسارع سقوطها، نظرت حولي بسرعةٍ لأجد مكاناً أحتمي به، بدأت أتخبط لا أستطيع الرؤية، ثم تعثرت قدمي بحبل لم أستطع الإفلات منه، وقعت

على الأرض وأنا أحاول الإفلات وبدأت أصرخ وأنادي على أحمد وأستغيث بأحدٍ ليساعدني، لكن صوتي خرج ضعيفاً واختفى مع صوت الريح والمطر، حاولت الزحف نحو مكان ظننته الصندوق الذي أسندت البحار إليه، ثم ضربني شيء، بعدها لا شيء... ظلام.

استفقت على وجعٍ شديدٍ في مؤخرة رأسي وإحساسٍ شديدٍ بالعطش وشيءٍ كاللهب يحرق وجهي، فتحت عيني بصعوبةٍ لكن الضوء اخترقهما بشدةٍ آلمتني، فأغلقتهما على الفور، أحسست ببرودةٍ في قدمي، أين أنا؟ هل مت؟ حاولت أن أفتح عيني مرةً أخرى، لكن الضوء وإحساساً بأن أحداً ما قد وضع ملحاً في داخلهما منعاني، نزلت الدموع بغزارةٍ ورفعت يدي لأمسحها فأحسست أني سأسقط. بدأت أستعيد حواسي شيئاً فشيئاً ببطءٍ شديد، أبقيت عيني مغلقتين وبدأت أتفحص وضعي، قدماي كانتا في الماء وكذلك معظم جسدي، صدري يتكئ على خشبةٍ كبيرةٍ أسطوانية الشكل وذراعاي يضمانها بقوة وهما مربوطتان بحبلٍ حولها، إذاً أنا في الماء، في البحر! أحسست بخدرٍ في ذراعي والألم في رأسي يضربني بشدة، فتحت عيني نصف فتحةٍ فرأيت أمامي البحر، حركت رأسي إلى اليمين واليسار وكان البحر. ما زلت لا أدرك وضعي جيداً، ربما أنا أحلم أو أهذي بسبب الضربة التي تلقيتها على رأسي، أو أنها الحمى، حتى صرت أتخيل أنني أعوم فوق خشبةٍ في وسط البحر، أم أنه كابوسٌ سأستيقظ منه بعد قليل، سأغفو قليلاً ثم أستيقظ ويكون كل شيء على ما يرام، لكني أحسست بألم في ذراعي، إنه حلم، أستطيع أن أغير وضع ذراعي، لكني عندما حاولت أن أسحبهما منعني الحبل المربوط فيهما من التحرك، تكون الأشياء مخيفةً هكذا في الأحلام والكوابيس، أمي كانت تقول إن الألم يبدو حقيقياً في الحلم، أمي ستوقظني بعد قليل، بدأت أحرك أصابعي لأجعل الدم يتحرك فيها، لو فتحت عيني تماماً سوف أستيقظ، أجبرت نفسي أن أفتح عيني ولكن كان البحر ما يزال أمامي وحولي، وأشعة الشمس تنعكس فوق المياه فتدخل إلى عينيّ وتحرقهما كشفراتٍ حادة،

هل هناك احتمالٌ ألا يكون هذا حلماً؟

حاولت التذكر، أذكر الريح والمطر والرجل الذي مات، الصارية التي تحطمت ثم... يا إلهي، أين السفينة؟ وكمن لسعته أفعى، فتحت عيني بقوةٍ ونظرت حولي: لا شيء سوى البحر! أين السفينة؟ أين الناس؟ أين أحمد ونجمة؟ أين أنا؟

حاولت أن أتذكر كيف وصلت إلى هنا، هل وضعني أحد فوق هذه الخشبة وقام بربط ذراعي، يا لبرودة الماء والعطش الشديد! أريد ماءً، قطرة ماءٍ واحدةً، وبدأت أصرخ حتى آلمني حلقي وصار الألم في رأسي لا يطاق، لا أستطيع أن أترك الخشبة لأتحسس مكان الألم! فكري، فكري، ماذا يمكن أن يكون قد حدث، هل غرقت السفينة؟ لا يمكن! لا بد أن سفينةً أخرى ساعدتها، فهذا البحر يعج بالسفن، لا بد أنهم وجدوا مساعدة، لا بد أن أحمد ونجمة يتساءلان الآن أين أنا، هل كنت الوحيدة التي سقطت في البحر؟ لا بد أن هناك آخرين، وبدأت أصرخ: «هل هناك أحد؟»

لا شيء سوى الصمت والمياه والزرقة، زرقة المياه متصلة بزرقة السماء، كم مضى من الوقت وأنا هنا؟ لا بد أنهم يبحثون عني، حاولت أن أرفع نفسي لأستلقي على الخشبة بشكلٍ طوليٍّ وأحضنها بين يدي، وبعد عدة محاولاتٍ تمكنت من أن أرفع جسدي وأفك الحبل من ذراعي وأعتلي الخشبة وأحتضنها بين ساقي ويدي. أحسست بالإرهاق الشديد وأردت أن أنام، لا أريد أن أفكر بأي شيء، أريد أن أنام فقط وأستيقظ لأجد هذا الكابوس قد انتهى.

حاولت النوم لكن وضعي على الخشبة لم يكن مريحاً، وخفت أن أغفو فأسقط في الماء، الماء... أحس بالعطش الشديد، مددت لساني لألحس شفتي، فأحسست بقرصة الألم بسبب الشقوق فيها.

حلّ الظلام وأنا لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا مغمىً علي، لكن حين عدت

إلى وعيي كانت الدنيا غارقةً في السواد، وكان هناك قمرٌ لم أر في حياتي في مثل ضخامته، خيل إلي أنني لو مددت يدي لاستطعت الإمساك به، كان ضوؤه ينعكس فوق الماء، فخلتني أعوم فوق بحرٍ من الفضة، ما زلت أحس بالعطش الشديد، هل سأموت هنا في هذا البحر الشاسع؟ إن لم أمت من العطش أو الجوع فقد أموت غرقاً، وإن تمكنت بمعجزةٍ ما أن أبقى متشبثةً بهذه القطعة من الخشب ألن تأكلني في النهاية الأسماك المتوحشة؟ يا إلهي عجل في موتي، فأنا لن أستطيع التحمل أكثر، فقط أعطني جرعة ماء وأمتني، أمتني بسرعة، فإن هذه الآلام لا طاقة لي بها! ثم رحت في غيبوبةٍ أخرى.

هل هذا حقاً ماءٌ عذبٌ أم أنني أهذي من جديد؟ ربما مت وذهبت إلى الجنة وها أنا أشرب هناك الماء! لكني حقاً أحس بماءٍ عذبٍ فوق شفتي، أريد ماءً أكثر، مزيداً من الماء أرجوكم، أنا مازلت عطشى. سمعت أصواتاً تهمهم حولي، لا أريد أن أفتح عيني، لا بد أنها مرحلةٌ أخرى من الهذيان، ثم أحسست يداً فوق جبيني وقطرات ماءٍ تنساب فوق شفتي، مددت لساني ألحسها وفتحت فمي لألتقط المزيد، ثم فتحت عيني فرأيت وجه امرأةٍ تنظر بعمقٍ إلى وجهي وفي يدها كأس ماء، رفعت يدي وأمسكت الكأس بقوةٍ خوفاً من أن تأخذه مني وشربته دفعةً واحدة، واستلقيت على ظهري ثانيةً، ثم فجأةً انتبهت إلى نفسي وفتحت عيني، نظرت إلى السقف فوقي، إنه حقاً سقفٌ وليست السماء، سقفٌ من القش يدخل الضوء من خلاله، إذاً أنا لست عائمةً فوق الماء، أنا في فراشٍ جافّ! جلست على الفراش أنظر حولي: غرفةٌ صغيرةٌ جدرانها مصنوعةٌ من أعواد القصب، خاليةٌ من الأثاث سوى الفراش الذي أنام عليه، وصندوقٍ في الزاوية مصنوعٍ أيضاً من أعواد القصب، أرض الغرفة رملية. نظرت إلى المرأة الجالسة إلى جانبي وكانت تلبس ملابس بسيطة، سروالاً قطنياً وفوقه ثوبٌ طويلٌ بني اللون مفتوحٌ قليلاً عند الجانبين، وتلف رأسها بشالٍ بنيٍّ أيضاً، ابتسمت عندما نظرت إليها فظهرت أسنانها بيضاء، قالت بضع كلماتٍ لكني لم أفهم ما كانت تقوله،

ربما كانت تتحدث الإسبانية، لا أدري، فأعادت ما قالته ودفعتني برفقٍ للاستلقاء على ظهري، فقلت لها: «أين أنا؟ وما هذا المكان؟» لكنها ردت علي بلغتها وخرجت، بعد لحظاتٍ أطل وجه طفلٍ من الباب أشعث الشعر يلبس قميصاً وسروالاً طويلاً، كان ينظر إلي باستغرابٍ بعينين متسعتين من الفضول، كأنه ينظر إلى كائنٍ غريب، أشرت إليه أن يقترب فابتسم ابتسامةً خجولةً وهرب، كان تقريباً في مثل عمر نجمة، فبدأت بالبكاء، هل فقدت ابنتي الحبيبة وزوجي؟ هل هما بخير؟ هل غرقت السفينة؟ كيف لي أن أعرف أي شيءٍ عنهما؟ لا بد أن أعرف شيئاً، فقمت من الفراش واتجهت نحو الباب، لكن داهمني شعورٌ بالإغماء فوقعت على الأرض، جاءت المرأة التي سقتني الماء راكضةً وساعدتني على العودة إلى الفراش وهي تحكي وتتمتم بلغتها.

عندما استلقيت ثانيةً على الفراش انتبهت إلى أن ثوبي الذي كنت ألبسه وقت غرق السفينة قد طوي بعنايةٍ إلى جانب الفراش، ثم فجأةً وضعت يدي على عنقي لأتأكد من أن القلادة التي أهداني إياها أحمد بنصف الصدفة ما زالت موجودةً وأنها لم تضع مني، لكني وجدتها ما زالت في عنقي، فتذكرت أن نجمة تحمل النصف الآخر من الصدفة وعاودني البكاء.

أخذت أسال المرأة: «هل رأيتم سفينةً تغرق؟ هل شاهدتم سفينةً تمر من هنا؟ هل هناك ناجون؟ أرجوك، هل تعرفين أي شيء؟»

لم تفهم المرأة ما كنت أقوله، لكنها كانت تنظر إلي بشفقة، ثم غادرت الغرفة لتعود بعد قليلٍ وفي يدها وعاءٌ فيه حساءٌ تفوح منه رائحة السمك، وقدمته لي، لكني رفضت بحركةٍ من يدي، كنت أحس بالجوع لكن لم تكن لدي رغبةٌ في تناول الطعام، قدمته لي مرةً أخرى وقالت شيئاً فهمت منه أنها تصر بأن آكل، فحاولت أن أشرب قليلاً من الحساء وأعدت لها الوعاء، فأخذته وخرجت. بدأ الظلام يحل، فقد بدأ الضوء الذي كان يتسلل من بين قش السقف يختفي.

عادت المرأة وهي تحمل في يدها مصباح زيتٍ علقته بحبلٍ كان يتدلى من السقف، وبعد لحظات دخل شابٌّ إلى الكوخ ومعه رجلٌ عجوزٌ أشيب الشعر ومحني الظهر يمشي ببطء، وكان كلٌّ منهما يلبس سروالاً وقميصاً قطنياً. بقي الشاب واقفاً عند الباب ينظر إلي بينما اقترب مني الشيخ، وكان وجهه مجعداً جداً وكان ضوء المصباح الخافت يزيد من عمق التجاعيد على وجهه، جلس على الفراش إلى جانبي وأمسك يدي ونظر في وجهي بتمعن، ثم وضع يده فوق جبيني تماماً كما يفعل الأب مع ابنته المريضة، ثم قال بضع كلماتٍ للمرأة، فلاحظت أن فمه يخلو تقريباً من الأسنان، هزت المرأة رأسها وبدأ الرجل يوجه كلامه إلي، تكلم لفترةٍ طويلةٍ ولم أفهم شيئاً مما قاله، فقلت له وأنا أحاول أن أشرح له بحركات يدي: «أنا لا أفهم ما تقوله! هل رأيتم السفينة؟ سفينةً مرت بالقرب من هنا، هل سمعتم عن سفينةٍ تغرق؟»

لكنه رفع يديه بالهواء وقال شيئاً وخرج ثم تبعه الشاب، أخذت المرأة المصباح وأشارت إلي قبل أن تخرج بأن أنام.

حاولت النوم، لكني كلما غفوت كانت تراودني أحلامٌ مرعبةٌ: سفينةٌ تغرق، نجمة تصرخ وتناديني، فبقيت مستيقظةً أبكي حتى جاء الصباح. دخلت المرأة وأمسكت يدي لتساعدني على الوقوف، فوقفت وخرجت معها، وكان الضوء في ذلك الصباح باهراً، فوضعت يدي فوق عيني ونظرت حولي، كان هناك الكوخ الذي نمت فيه وكذلك بضعة أكواخٍ أخرى شبيهةٍ على شاطئ البحر, وبضعة قوارب صغيرةٍ راسيةٍ هناك، وكان بضعة صيادين يعالجون شبكاهم، ثم رأيت الرجل العجوز الذي زارني في الليلة السابقة والشاب نفسه يتقدمان نحوي، وأشار الرجل العجوز إلى خط من الأشجار الكثيفة حولنا، وحين بقيت واقفةٌ مكاني أشار إلي العجوز أن أتبعهما.

مشينا مسافةً طويلةً في طريقٍ متعرجٍ وضيقٍ جداً بين أشجار الموز وأعشابٍ

طويلةٍ يصل بعضها إلى كتفي، مشينا بصمتٍ وبطء، فقد كان العجوز يتوقف في كل فترةٍ ليرتاح، وفجأةً انتهت الطريق لأرى عند حافة الغابة قريةً صغيرة، مررنا ببضعة حوانيت متواضعةٍ وكئيبةٍ يجلس باعتها على الأرض أو على مقاعد منخفضة، كان الجميع ينظرون إلي بفضول، وتوقفت بعض النساء المارات في الطريق وكن يحملن قطوف الموز الأخضر فوق رؤوسهن، وبقين ينظرن إلي حين مررنا من جانبهن. أخيراً وصلنا إلى فسحةٍ ترابيةٍ نظيفةٍ ووقفنا أمام بيتٍ بدا لي أكبر البيوت التي رأيتها في القرية، وحوله أزهارٌ من كل الألوان وله بابٌ خشبيٌّ كبير، طرق العجوز الباب بعصاه فخرجت بنت في حوالي العاشرة، تحدث إليها العجوز قليلاً ثم دخلت وأبقت الباب خلفها مفتوحاً، فنظرت إلى الداخل لأجد باحةً في وسطها بركة ماءٍ وحولها بضعة مقاعد، خرج إلينا رجلٌ عجوزٌ في مثل عمر الشيخ الذي كان معي، وكان يضع شالاً صوفياً على كتفيه، تحدث الرجلان قليلاً وأشار إلينا صاحب البيت بالدخول، جلسنا على المقاعد ثم نادى على البنت التي اختفت من باب في الجهة الأخرى من الباحة. قال الشاب الذي معنا شيئاً للرجل المضيف الذي كان يستمع إليه ويهز رأسه وينظر إلي، ثم نظر إلى الرجل وقال بلغةٍ عربيةٍ بها لكنة: «هل تتكلمين العربية؟»

فقلت: «الحمد لله الذي جعل هناك من يفهمني!» ثم بدأت أشرح له، وبسرعةٍ، عن السفينة وأسأله إن كان يعرف إذا كانت قد نجت أم غرقت. كنت أحكي بسرعةٍ وانفعالٍ شديدين فأشار إلي الرجل بيده أن أتوقف، وقال: «أرجوك أن تتكلمي ببطء، فأنا لا أستطيع متابعة الكلام». فحكيت له ببطءٍ عن السفينة والعاصفة، وكيف وجدت نفسي في البحر، وسألته إن كان قد سمع عن سفينةٍ غرقت أو تحطمت في الجوار، وأن زوجي وابنتي كانا معي، ولم أستطع أن أكمل وبدأت بالبكاء، فربت الرجل على يدي وترجم للآخرين ما قلته، وبقيت أبكي لفترةٍ وأنا لا أستطيع أن أتمالك نفسي.

دخلت الفتاة ومعها أكوابٌ من الشاي، فقدم لي الرجل كوباً وقال: «اشربي الشاي وحاولي أن تهدئي نفسك حتى نستطيع الكلام»، فأمسكت الكوب بيدين مرتجفيتن وشربت قليلاً منه وأنا ما زلت أشهق، وعاودت السؤال: «هل مرت سفينةٌ بالقرب من هنا؟ صاريتها محطمة، هل سمعت عن سفينةٍ غرقت؟» ووصفت له السفينة التي كنت على متنها.

قال: «لا تمر سفنٌ كثيرةٌ من هنا، وإن مرت فهي لا تتوقف، هذه يابنتي جزيرةٌ صغيرةٌ جداً، وملقة لا تبعد كثيراً، فالسفن تتوقف هناك».

فقلت: «إذاً أنا لست بعيدةً جداً عن بلدي، هل تستطيعون أن تعيدوني إلى طنجة؟ أرجوكم ساعدوني».

فقال الرجل بلهجةٍ حنونة: «اشربي الشاي يابنتي ثم سنفكر معاً».

ارتحت قليلاً وقد عرفت أنني قريبةٌ من طنجة، إذاً لا بد أن يكون أحمد ونجمة بخير، لا بد أنهما عادا إلى طنجة وأنهما ينتظراني هناك، لا بد أنهما يبحثان عني. ثم بدأ الرجل يسألني عن نفسي وعن زوجي، كان يريد معرفة التفاصيل وحاولت إجابته بقدر ما سمحت به نفسي المتألمة، ثم سألته بدوري كيف يعرف العربية، فقال إنه سكن في ملقة طوال سنوات شبابه حيث كان يعمل بحاراً.

بتنا تلك الليلة في بيت الرجل، وفي الصباح وجدنا سفينةً صغيرةً متجهةً إلى ملقة، حيث سأتمكن من هناك أن أركب سفينةً أخرى إلى جبل طارق ومنه إلى طنجة، وكنت أتلهف لرؤية أحمد ونجمة.

أسئلة الجزء العاشر

1. كانت لدى قمر معلومات طبية، كيف استفادت منها في حملها وفي مع الجة ابنتها؟
2. لماذا قرر أحمد أن يتخلى عن فطوم؟
3. ما الهدية التي أتى بها أحمد لقمر ونجمة الصباح؟ وما المفاجأة؟
4. ما وسيلة الركوب إلى طنجة؟
5. ما اسم السفينة التي استقلاها من طنجة؟ وإلى أي مكان كانت وجهتها؟
6. ماذا جرى للسفينة التي استقلوها؟
7. صف الظروف التي تعرضت لها السفينة.
8. ما المهمات الإنسانية التي قامت بها قمر على ظهر السفينة؟
9. ماذا جرى لقمر؟ وكيف اكتشفت أنها وحيدة؟
10. ماذا جرى لابنتها وزوجها؟
11. صف في سطور حالة قمر النفسية على ضوء خيباتها المتكررة.

الجزء الحادي عشر

البحث

عندما وصلت إلى طنجة ونزلت في الميناء بدأت فوراً بالسؤال عن السفينة «قاهرة البحار»، والتي كانت متجهةً إلى الأندلس قبل حوالي شهر، لكني لم أجد أحداً يعرف شيئاً عن مصيرها، فبدأت أحس باليأس، ثم سمعت صوت رجلٍ خلفي يقول: «قاهرة البحار؟»

التفتُّ لأجد بحاراً يجلس فوق صندوقٍ خشبيٍّ وفي يده عودٌ صغيرٌ يداعب أوتاره.

«لقد سمعت أن هذه السفينة قد غرقت».

«لا يمكن»، وبدأت أصرخ.

تابع الرجل وكأنه لم ينتبه لبكائي: «وسمعت أن سفينة قراصنة قد تمكنت من أسر بعض الناجين»، فاقتربت منه: «أرجوك، هل كان بينهم رجل وابنته؟ طفلةٌ في حوالي الخامسة من عمرها اسمها نجمة وتلبس عقداً يحمل صدفة كهذه»، وأريته العقد الذي كنت ألبسه.

فقال الرجل: «لا أدري، كل الذي سمعته أن السفينة قد غرقت وأن بعض النّاجين أخذهم القراصنة ليبيعوهم عبيداً».

فقلت: «عبيد؟ أرجوك حاول أن تتذكر أين أخذوهم، إلى أين؟ أرجوك ساعدني، أريد أن أعرف مصير ابنتي وزوجي»، وبدأت أبكي.

فقال الرجل الذي بان عليه التأثر: «والله لا أعرف سوى ما قلته لك».

لكني قاطعته: «ولكن، هل عرفت إلى أين أخذوهم؟ هل كانت ابنتي معهم؟»

«صدقيني لا أعرف المزيد».

تركت الرجل وأنا لا أعرف ماذا سأفعل أو إلى أين أذهب، ثم تذكرت المقهى الذي كان يرتاده القراصنة فذهبت إلى هناك، لكني لم أدخل، فالنساء لا يمكن أن يدخلن المقاهي، وقفت على الباب فخرج من المقهى بحارٌ يبدو عليه علامات الفظاظة فسألته: «أرجوك يا سيدي، هل تعرف شيئاً عن السفينة قاهرة البحار؟»

نظر إلي الرجل بحيث لم يكن يفهم ما أقوله،وقال: لا أعرف شيئًا عن قاهرة البحار.

التفتّ لأجد بحاراً يقف خلفي شابكاً ذراعيه فوق صدره، ويتكىء على باب المقهى، فقلت وقد عاودني البكاء من القهر:

«أريد أن أعرف مصير السفينة قاهرة البحار، لقد سمعت أنها غرقت، أرجوك، هل تعرف شيئاً؟»

فقال: «هممم، قاهرة البحار؟ نعم، لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل، سمعت أنها تحطمت وأن سفينة قراصنةٍ تمكنت من إنقاذ بعض النّاجين .

فقلت له: «أرجوك، أتوسل إليك أن تخبرني ماذا حل بهم، أعني الناجين، أين ذهبوا؟ أتوسل إليك، ابنتي وزوجي...!» وبدأت أشهق بالبكاء ثانيةً، فقال وقد أخذته الشفقة على حالي: «هدئي من روعك يا سيدتي، أنا لا أعرف، لكني سأسأل لك عنهم، أراك في الغد في نفس الموعد وسأكون قد حصلت لك على المعلومات إن شاء الله، اطمئني يا سيدتي، لكن عذراً يجب أن تغادري الآن، فلا يصح لسيدةٍ محترمةٍ أن تقف هكذا أمام المقاهي».

قلت له: «أشكرك، إن اسم زوجي هو أحمد المغربي وابنتي اسمها نجمة وتلبس

عقداً كهذا، وعلى رقبتها من الناحية اليسرى شامةٌ تشبه حبة التوت و...».

فقال: «حسناً، سأبذل ما في وسعي وسأحاول أن أجد لك معلوماتٍ عن الناجيين، لكن أرجوك أن تغادري الآن، ولا يستحسن أن تأتي إلى هنا ثانية، في أي خانٍ تقيمين؟» فأعطيته اسم الخان الذي كنت أنزل فيه مع زوجي ونجمة قبل الرحلة المشؤومة.

ذهبت إلى الخان الذي استقبلني صاحبه بترحابٍ وقدم لي الطعام وغرفةً نظيفة، وفي صباح اليوم التالي ذهبت لزيارة حانوت الكتب الذي كنت قد أعطيته للشاب خالد والذي كان يشرف عليه. استقبلني بحرارةٍ وأقرضني بعض المال لأشتري ثوباً نظيفاً بدل الثوب الممزق والمتسخ الذي كنت ألبسه، وعندما استحممت وغيرت ملابسي أيقنت أنّ شكلي سيئاً للغاية. بقيت جالسةً في غرفتي أعد الساعات حتى يأتي موعدي مع البحار الذي أملت كثيراً أن يحضر لي معه أخباراً جيدة، ولما لم أعد أطيق الصبر، انتظرت ما بقي من الوقت عند صاحب الخان الذي عرف حكايتي وأبدى تعاطفاً شديداً معي، بل وعرض علي بعض المال: «لتتدبري شؤونك حتى تجدي زوجك أو تعودي إلى بيتك»، فشكرت بادرته بحرارةٍ ورفضت قبول المال. أطل البحار الذي بادرني حين رآني: «أرى أنك أفضل حالاً يا سيدتي».

بدأت بسؤاله: «ما هي الأخبار؟ هل عرفت شيئاً؟»

فقال: «لقد غرقت قاهرة البحار بالفعل، كانت الرياح شديدةً حتى على سفينةٍ ضخمةٍ مثلها، إن مجيء الرياح في مثل هذا الوقت من السنة غريبٌ جداً، ليس موعدها المعتاد! ثم تنهد وأكمل: «على أية حالٍ لقد غرقت السفينة!»

سألته بلهفةٍ: «والناجون، من هم؟ هل عرفتهم؟ ابنتي، زوجي...؟»

فقال: «لم أستطع أن أعرف من هم الناجون، في الحقيقة لم يعرف أحدٌ ممن

سألتهم عن هويات الناجين، لكنني عرفت أن القرصان حابس ذو العين الواحدة هو الذي كان في منطقة الحطام، وأنه أسر بعضهم، وعرفت أنه قد باعهم فور وصوله إلى المدينة إلى بعض تجار العبيد».

«تجار العبيد!» شهقت، «إذاً أريد أن أذهب إليهم»، ووقفت، فقال: «انتظري يا سيدتي، لقد مررت بتجار العبيد وأعطيتهم أوصاف زوجك وابنتك، لكنهم لا يتذكرون أحداً بهذه الصفات، قالوا فقط إنه كان بينهم رجالٌ ونساءٌ وأطفال».

فقلت: «أين هم؟ أين أجدهم؟ أخبرني...».

فقال بحزنٍ: «للأسف، لقد بيعوا لتجارٍ ذاهبين إلى مصر».

صرخت: «مصر، يا إلهي! بهذه السرعة!»

فقال: «لقد تصادف أن كانت هناك قافلةٌ إلى مصر على وشك المغادرة، فاشتراهم أحد التجار ورحل بهم».

سألته: «متى رحلت القافلة إلى مصر؟»

فقال: «قبل أسبوعٍ تقريباً».

فقلت: «إذاً سألحق بهم»، ثم سألت صاحب الخان: «هل تعرف متى ستكون القافلة التالية إلى مصر؟»

فقال: «بعد أسبوعين، قافلة الحج ستنطلق بعد أسبوعين».

«يا إلهي! هذا كثير! لن أتمكن من اللحاق بهم، ألن ترحل قافلةٌ قبل ذلك؟ أرجوك أن تسأل لي عن الأمر، فأنا لن أستطيع الانتظار أسبوعين كاملين!»

فقال صاحب الخان: «لكنك تعرفين يا سيدتي أن القوافل تسير كل شهرٍ مرةً

تقريباً، وهذا يعتبر سريعاً جداً، في المناطق الأخرى تسير قافلةٌ كل ستة أشهر».

فقلت وأنا أتنهد: «أعرف ذلك، لكن أسبوعان؟»

شكرت البحار على مساعدته لي وعدت إلى غرفتي. كيف سأصبر أسبوعين كاملين، ستكون القافلة الأخرى سابقةً بثلاثة أسابيع، فقررت العودة إلى بيتي لأرتب شؤوني. كان البيت دون أحمد ونجمة كئيباً وخالياً من الروح، وكنت أتوقع في كل لحظةٍ أن تطل على نجمة وتفاجئني كما كانت تفعل عندما نلعب لعبة الاختفاء، لكن نجمة لم تطل، وغاب صوت أحمد تماماً.

أعددت حقائبي للسفر وودعت الخدم وأعطيتهم تعليماتٍ حول كيفية التصرف في حال طال غيابنا، وأخيراً ركبت القافلة المسافرة إلى مصر وعزلت نفسي عن بقية المسافرين، فلم أكن أحس برغبةٍ في المشاركة في أحاديثهم ولا مخالطتهم، كنت طوال الوقت ساهمةً أفكر في مصير زوجي وابنتي، وأتساءل إن كنت سألحق بهما قبل فوات الأوان. كنت متأكدةً من أني سأجدهما وأن شملنا سيلتئم مرةً أخرى، أرفض التفكير في أيِّ احتمالٍ آخر، الأمل في نجاتهما واللقاء بهما كان فقط ما يجعلني أبقى متماسكةً وأحتمل هذه الرحلة الشاقة، الأمل فقط هو الذي كان يبقيني على قيد الحياة.

حاولت بعض النسوة أن يدعونني لأتشارك معهن الطعام والحديث، لكني رفضت دعوتهن بلطفٍ وبقيت وحدي مع أفكاري ومخاوفي وآمالي، وحركة الجمل المملة والرتيبة والصحراء اللامتناهية.

كم مر علي من أحزان! العزلة في القرية، موت أمي وأبي، فراق شمس وأبنائها وفراق نور الهدى وموتها، وموت علاء الدين، ، لكن هذا الحزن مختلفٌ تماماً، لم أكن أعتقد أن الإنسان يستطيع العيش بهذا الكم الهائل من الحزن الفاجع الذي يمزق القلب في كل لحظة.

ذات مساءٍ، وكنت أتناول طعامي وحدي منزويةً كعادتي عن بقية المسافرين في القافلة، جاءت امرأةٌ بدت لي أنها كبيرةٌ في السن وجلست إلى جانبي صامتةً لمدةٍ طويلة، رحبت بها باقتضابٍ فقالت: «ما بك يابنتي؟ لماذا أنت متوحدةٌ هكذا؟»

فحاولت ألا أجعل إجابتي جارحةً فقلت: «لا أحس برغبةٍ كبيرةٍ في الاختلاط أو الحديث، أرجو أن تعذريني».

قالت: «ألمَّ بك حزنٌ كبيرٌ، وهذا واضح، ألا تظنين أن مشاركة الآخرين قد تخفف عنك هذا الحزن؟»

فقلت: «لا أعتقد ذلك، ولكن شكراً لمبادرتك»، فوضعت يدها فوق يدي بحنانٍ وقالت: «هيا تعالي اجلسي معنا، فعندما يكون المرء وحيداً تزيد آلامه مئات المرات صدقيني». حاولت أن أتملص من إلحاحها لكنها أمسكت يدي وحاولت أن ترفعني لأقف، فقلت: «ولكن...»، فقالت بإصرار: «من دون لكن، قومي الآن ولن أقبل منك الرفض»، فقمت على مضضٍ وأنا أفكر كيف سأعود إلى وحدتي، لكن المرأة كانت مصممةً تصميمًا كبيرًا. مشيت معها بترددٍ ووصلنا إلى جمعٍ من النساء يتحلقن حول النار، وعندما وصلنا إلى الحلقة توقفت النساء عن الكلام ورمقنني بنظرات الفضول، ثم تحركت واحدةٌ لتفسح لي مكاناً إلى جانبها قائلة: «تفضلي»، وأحسست بدفعةٍ خفيفةٍ على ظهري، كانت السيدة الكبيرة تشجعني على الجلوس، فجلست في المكان الفارغ وطرحت السلام، فردت علي النساء بصوتٍ واحدٍ ثم سكت الجميع وساد الصمت لفترةٍ من الزمن، ثم تنحنحت واحدةٌ بادئةً في الكلام وكان سؤالها فظاً للغاية: «هل تسافرين وحدك؟»

فقلت: «نعم»، ونظرت إلى النار في محاولةٍ يائسةٍ مني لتفادي أسئلةٍ أخرى، فقالت أخرى: «وهل...؟» فنظرت إلى السيدة الكبيرة التي كانت تجلس قبالتي نظرة استغاثة، ففهمت ما أقصد وقالت: «لا تكثرن من الأسئلة، لقد جاءت

السيدة للجلوس معنا لتتسلى»، فسكتت النسوة برهةً ثم بدأن من جديدٍ بالحديث في مواضيع أخرى، فقالت واحدة: «إني أعاني من آلام الظهر بسبب الركوب على الجمل».

وقالت أخرى: «وأنا كذلك، عندما يأتي وقت الاستراحة تكون قدماي قد فقدتا الإحساس كلياً».

وقالت ثالثة: «لولا زيارة بيت الله لما خرجت في هذه الرحلة المتعبة، وبقيت في بيتي»، فردت عليها الأولى: «الحقيقة إن زيارة بيت الله تستحق هذا العناء، تخيلي نفسك في الطواف حول الكعبة فيزول التعب».

قالت أخرى: «أي والله! حج بيت الله، إنها...»، ولم أسمع بقية الجملة، فقد انتبهت إلى الحديث الذي كان يدور بين الرجال في حلقة النار المجاورة، كانوا يتحدثون عن الملك الولد في مصر، وكيف أن كبير الوزراء يدير المملكة كيفما شاء، ففكرت: «رحمك الله يا نور الهدى، لقد حصل ما توقعته».

قال أحد الرجال وهو يتابع الحديث: «ويشتري كل ما هو غالٍ وثمينٌ على حساب الملك، لقد سمعت أنه اشترى ياقوتةً بحجم حبة التين، تصوروا كم كلفه هذا!»

فقال آخر: «بل كم كلف ذلك الملك الولد؟»

فقال ثالث: بالأحرى كم كلف ذلك الشعب المسكين؟»

تابع الأول كلامه: «ويقال إن لديه عدداً من العبيد يفوق الذي كان يملكه الملك تقي الدين».

ففكرت: «ترى هل سينتهي زوجي وابنتي في قصر الملك؟ ستكون هذه مفاجأة كبيرة!» ثم أحسست بضربةٍ خفيفةٍ فوق يدي، وقالت السيدة التي تجلس إلى جانبي: «لقد ذهبت بعيداً، سألتك إن كنت ذاهبةً إلى الحج؟»

ودون تفكير قلت لها: «نعم، نعم»، وحاولت أن أسترق السمع إلى ما كان يقوله الرجال، لكن السيدة التي تجلس إلى جانبي كانت تتحدث بصوتٍ عالٍ وتضرب على يدي مع كل جملةٍ تقولها، وبعد فترةٍ خلتها دهراً تحججت بالتعب وانسحبت.

لا أذكر كثيراً عن تلك الأيام في القافلة سوى أنها كانت بطيئةً وتمضي مملةً، وكنت أستعجل الوصول إلى مصر، ولكن السير في الصحراء في قافلةٍ ضخمةٍ كالتي كنت معها لا بد أن يستغرق وقتاً طويلاً. كنا قد أشرفنا على واحة، فأمر قائد القافلة بالاستعداد للنزول للراحة، ثم رأينا على البعد غباراً كثيفاً، وبدأ جو من الترقب يخيم على الجميع، فقد تكون قافلةً أخرى وقد تكون عصابةً من قطاع الطرق، بقينا ننتظر في يقظة وخوف، حتى قال قائد القافلة: «استريحوا، إنها قافلةٌ أخرى، فلا بد أن تكون قافلةً كبيرةً تلك التي تثير هذه الكمية من الغبار!»

اقتربت القافلة الأخرى ثم توقفت على مقربةٍ منا قرب عين الماء، وذهب الرجال لملاقاتها، وتم الاتفاق على أن تبيت القافلتان في المكان نفسه تلك الليلة، وفي الصباح الباكر تتابع كلٌّ رحلتها. في المساء تحلق الجميع جماعاتٍ حول النيران المشتعلة ودارت الأحاديث، فجلست في حلقة للنساء والتي كانت الأقرب إلى الحلقة التي يوجد فيها قائدا القافلتين، وحاولت أن أستمع إلى ما كانا يقولانه، لكن صخب الجمع الكبير وحديث النساء لم يمكنني من متابعة ما يتحدثون فيه، ولم أتمكن سوى من التقاط بعض الكلمات، فجأة بدا لي أني سمعت كلمة قافلة عبيد، لكني لم أفهم بالضبط ما كانوا يقولون، فلم أستطع الصبر، واقتربت من قائد القافلة الأخرى وسألته: «عفواً أيها القائد، هل سمعتك تتحدث عن قافلة عبيد؟»

فالتفت إلي بذهولٍ مستغرباً ظهوري فجأة، وأجاب: «نعم، التقينا قبل أسبوع تقريباً بقافلة عبيد متجهةٍ إلى عدن».

فسألت باستغرابٍ: «عدن في اليمن؟»

ضحك وقال: «لا أعرف عدناً في مكان آخر سوى التي هناك»، وأشار للسماء، فتجاهلت طرفته وتابعت بجدية اضطرته أن يتخلى عن بقية ضحكته: «وهل سمعت عن قافلةٍ أخرى متجهةٍ من المغرب إلى مصر منذ حوالي أسبوعين؟»

فقال: «أعتقد أنها القافلة ذاتها، فقد قال لي قائدها أنه مرض أثناء الرحلة وأنه اضطر للتأخر حوالي عشرة أيامٍ حتى يتعافى ليتمكن من إتمام الرحلة».

فقلت بإلحاحٍ: «قلت عدن يا سيدي؟»

فقال: «نعم لقد قلت هذا، فقد أخبره أحد التجار المسافرين معه بأن أسعار العبيد أعلى في عدن منها في مصر، فقرر أن يغير مسار رحلته، سيكون الآن حسب تقديري قد شارف على الوصول إلى الحبشة».

فشهقت وأخذت أبكي : «الحبشة! يا إلهي! وهل رأيت في القافلة رجلاً وابنته؟ لقد أسروا في تحطم سفينةٍ في البحر، رجلٌ اسمه أحمد المغربي وابنته اسمها نجمة، وهي تلبس عقداً كهذا وعلى عنقها شامةٌ كحبة التوت و...»، ثم أخذتني نوبة البكاء ولم أكمل.

فقال الرجل محاولاً أن يهدأني: «استريحي يا سيدتي»، وصرخ منادياً: «يا غلام أحضر للسيدة بعض الماء»، ثم انتظر حتى شربت وبدأت أبكي بصوتٍ خفيضٍ، فقال باهتمام: «والآن يا سيدتي أخبريني ما قصتك بهدوءٍ وروية حتى أفهم».

فأخبرته عن السفينة قاهرة البحار وعن غرقها، وكيف عرفت أن بعض الناجين أسروا ليباعوا عبيداً، وكيف ركبت هذه القافلة لأتبع قافلة العبيد لأجد زوجي وابنتي. ران الصمت على الجميع، ثم قال الرجل وهو يضرب يداً بيد: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

فعدت أسأله: «أخبرني بربك هل رأيت بنتاً في حوالي الخامسة من عمرها معها أبوها واسمه أحمد؟»

قال: «لقد رأيت عدداً من الرجال والنساء والأطفال ولكني لم أنتبه جيداً، أعني، لا ينظر أحدٌ بدقةٍ إلى العبيد، عفواً سيدتي، لا أقصد...»، وأطرق برأسه خجلاً، فقلت بإصرار: «رأيت رجالاً وأطفالاً! أرجوك حاول أن تتذكر، طفلة وأبوها».

قال: «لست متأكداً أرجو معذرتك، تعرفين يا سيدتي، في القوافل لا يختلط الناس الأحرار بالـ...»، ولم يكمل.

فأكملت عنه وأنا أبكي: «بالعبيد»، ثم سألته: «هل أنت متأكدٌ من أن القافلة قد غيرت مسارها إلى عدن؟ هل أنت متأكدٌ أنك تتحدث عن نفس القافلة التي كانت متجهةً إلى مصر؟ ألم يخبرك مثلاً أن جزءاً منها قد تابع رحلته إلى مصر؟»

قال: «هكذا فهمت منه، من قائد تلك القافلة، قال إن العبيد يجلبون له أسعاراً أعلى هناك، وأنه سيبيع العبيد ويشتري توابل وبخوراً».

فقلت: «وكم يوماً بالضبط مضى على رؤيتك تلك القافلة؟»

«حوالي ثمانية أيامٍ بالضبط، ستكون الآن قد قاربت على الوصول إلى الحبشة إن سار كلُّ شيءٍ على ما يرام. لقد قال القائد شيئاً عن شراء بعض العبيد من هناك قبل أن يبحر إلى عدن».

«الحبشة، الحبشة»، بدأت أردد، ثم سألت قائد قافلتنا: «هل هناك أحدٌ من قافلتنا متجهٌ إلى الحبشة؟»

فقال: «لا يا سيدتي، فهذه قافلة حجاجٍ ومعظمهم سيواصلون رحلتهم إلى جزيرة العرب».

سألته: «هل تمر قوافل من هنا إلى الحبشة؟»

«ليس كثيراً، ربما مرةً كلَّ عدة أشهر».
فقلت: «كيف لي إذاً أن ألحق بهم إلى الحبشة قبل أن يصلوا إلى اليمن؟ أرجوك أيها القائد ساعدني، ساعدني لأجد زوجي وابنتي».

فقال وقد بدا حزيناً: «بودّي جداً أن أساعدك، فقصتك مؤثرة جداً، ولكني لا أعرف سبيلاً إلى ذلك، إلا إذا...»، ونظر إلى قائد القافلة الأخرى كأنه يطلب مشورته، ولما لم يجبه الآخر أكمل: «إلا إذا ذهبت مع الحجاج إلى جزيرة العرب ومن هناك تركبين قافلةً إلى اليمن».

«هذا سيستغرق وقتاً طويلاً! ربما يكون قد فات الأوان، أرجوك فكر، هل هناك من طريقةٍ أخرى؟» سألته متوسلة.

نظر القائد حوله إلى الرجال وكأنه يبحث في وجوههم عن حلٍّ، ثم قال لي: «أريد أن أساعدك لكن ما اقترحته هو الطريقة الوحيدة»، وساد صمتٌ بين الجميع، بعضهم ينظر للنار وبعضهم ينظر إلى بحزنٍ وشفقةٍ، ثم فجأةً قال رجلٌ لم أنتبه إلى وجوده من قبل: «أنا سأوصل السيدة إلى الحبشة»، فسرت همهمةٌ بين الجمهور، وتابع موجهاً كلامه إلي: «عفواً يا سيدتي، هل قلت إن زوجك هو أحمد المغربي من جزيرة الكهرمان؟»

فقلت: «نعم، نعم»، وقد بدأ بصيص أملٍ يظهر أمامي، «وهل تعرف زوجي؟»

فقال: «رجلٌ شهمٌ وشجاعٌ، لقد أنقذ حياتي وما زلت أدين له بذلك، وسأفعل أيَّ شيءٍ لأرد له هذا الجميل».

فتدخل قائدنا: «هذا مؤثرٌ جداً، لكني لن أسمح للسيدة بمغادرة القافلة مع رجلٍ غريب، أنا قائد هذه القافلة وكل فردٍ فيها هو مسؤوليتي حتى نصل إلى مصر».

فقال الرجل بغضبٍ: «أنا زين الدين الغافقي من القيروان ولن أسمح لك!»

فقاطعه القائد: «نعم، أنا أعرفك, من لا يعرف كبير التجار في القيروان؟ لكني لا أستطيع أن أسمح للسيدة، هناك خطرٌ كبيرٌ وهذه صحراء شاسعةٌ، لن تستطيعا وحدكما تجاوزها، لا، لا، هذه مخاطرةٌ لا تحمد عقباها».

فقال زين الدين الذي صرت أتعلق بكل كلمةٍ يقولها: «من قال لك إننا سنسافر وحدنا؟» ثم وقف وقال بصوتٍ عالٍ: «أيها الرجال، سأدفع خمسمائة درهمٍ لكل رجلٍ يرافقنا إلى الحبشة».

فوقف رجلٌ وقال: «أنا أرافقك».

وقال آخر: «خمسمائة درهمٍ وكسوةٌ جديدة».

فقال زين الدين: «خمسمائة درهمٍ وكسوةٌ جديدة».

فقام رجل: «ستمائة درهم».

فقال زين الدين: «ستمائة درهمٍ لكلِّ رجل».

في نهاية المطاف وافق ستة رجالٍ على مرافقتنا، فقال قائد القافلة: «هذا جنونٌ يا سيد زين الدين، ما زال هناك خطر! هذه صحراء شاسعةٌ وستضلون طريقكم، وإن لم تضلوا سوف يقتلكم قطاع الطرق».

فقال زين الدين: «إن خادمي من الحبشة وهو يعرف الصحراء جيداً وسيكون دليلنا».

أراد قائد القافلة أن يقول شيئاً وقبل أن يكمل تدخلت بالكلام قائلة: «أرجوك يا سيدي أن تسمح له أن يأخذني إلى زوجي وابنتي، أنا مستعدةٌ لتحمل كل المشاق والمخاطر».

نظر قائدنا إلى قائد القافلة الأخرى، فرفع الأخير يديه للمساء وكأنه يسلم أمره لله، فقال قائدنا: «حسناً، فليشهد الجميع أنني لم أرد أن أسمح للسيدة بمغادرة القافلة، وأنه إن حدث لها شيءٌ فإني بريءٌ من دمها».

في فجر اليوم التالي ودعنا القافلة وبدأنا نتجه جنوباً نحو السودان. كان سيرنا أسرع بكثير من سير القافلة، فعددنا أقل ولم يكن معنا نساءٌ وأطفال، وقد صرت معتادةً على ركوب الجمل ركوبًا جيدًا ، وكنت كلما اقترح السيد زين الدين أن نستريح أرجوه أن نواصل وأقول إني لست متعبة. في الطريق حدثني زين الدين كيف أنقذ زوجي حياته، قال إنه كان مسافراً في سفينةٍ إلى جنوة لأجل التجارة، وأنه التقى زوجي فوق السفينة التي هبت عليها عاصفةٌ هوجاء كادت تقلبها، وأنه سقط عن ظهرها في البحر وكان متأكداً من موته، لكنه فجأة أحس بيدين تمسكان به وتنتشلانه من الماء، وكان أحمد قد لاحظ سقوطه فربط نفسه بحبلٍ وألقى نفسه في الماء مخاطراً بحياته لينقذ زين الدين، ثم قال لي: «لقد أنقذ زوجك حياتي مرتين، فقد تلفت بضاعتي في مياه البحر وكانت كلها من التوابل وخسرت كل شيء، وعدت إلى بلدي مفلساً لا أعرف ماذا سأفعل، وكنت على حافة اليأس وفكرت أن أقتل نفسي لأتخلص من مرارة الحياة، وفجأةً، وكأنها هبةٌ من السماء، جاءني رسولٌ يحمل مالاً وقدمه لي قائلاً بأنه هديةٌ من أحمد المغربي لأبدأ تجارتي من جديد، وأنه لا ينتظر مني سداده، فهو هديةٌ من صديقٍ لصديقه، وهكذا يا سيدتي لقد أنقذ زوجك حياتي من الموت مرتين»، ثم قال وهو يضحك: «بعد تلك الحادثة لم أركب البحر قط».

مشت قافلتنا الصغيرة بسرعة، وكان السيد زين الدين خير رفيق، كانت أحاديثه مسليةً وقد ساعدني على استعادة الأمل، ولم يكن يثقل علي إذا رآني حزينةً ومتوحدةً، وعندما تطول فترة حزني كان يقول: «سنجدهما إن شاء الله، بقي القليل، سنجدهما وسيلتئم شملكم ثانيةً»، ثم يقول ضاحكاً: «وسوف أتخلص أنا من ثقل هذا الدين».

كنت أود لو كان بإمكاننا أن نسير أسرع، وأن نجعل الجمال تطير، كنت أستعجل الساعات وأستعجل الجمال. أخيراً وصلنا إلى الحبشة، وأحسست أن الطريق منها إلى البحر الأحمر كان أطول من كل ما قطعناه حتى الآن، ولكنا أخيراً وصلنا. رفض السيد زين أن أرافقه إلى الميناء ليسأل عن قافلة العبيد المتجهة إلى اليمن، وبقيت أنتظره في الخان حتى عاد بعد وقت ليقول إن سفينةً محملةً بالعبيد قد غادرت قبل ثلاثة أيام إلى عدن، فطلبت منه أن يجد لي مكاناً على أول سفينةٍ تذهب إلى هناك.

في اليوم التالي ودعت الرجل الشهم وقلت له: «أشكرك يا سيد زين الدين على شهامتك وكرمك ومساعدتك لي، لن أنسى لك هذا المعروف»، ثم قلت له ضاحكة: «فليشهد الجميع أنني أحررك من دينك لزوجي، فعد إلى بلادك حراً طليقاً، وسأبقى مدينةً لك مدى الحياة».

فضحك وقال: «ما هذه الحكاية مع الدين؟ أدين لك وتدينين لي! أحمد الله على سلامتك، وأتمنى أن تجدي زوجك وابنتك وأن تعودوا إلى وطنكم سالمين، هيا ارحلي، ستقلع السفينة بعد قليل»، وبقي واقفاً على الشاطئ يلوح لي حتى ابتعدنا في البحر.

وصلت السفينة إلى شاطئ عدن ونزلت منها وبدأت فوراً بالسؤال عن سفينة العبيد، لكني لم أجد جواباً، إلا أن أحدهم أشار إلي بأن أذهب إلى الخان حيث ينزل التجار، ولا بد أن يكون أحدهم قد سمع شيئاً عنها. توجهت إلى الخان واكتريت غرفةً وسألت صاحب الخان عن التجار، فأشار إلى رجلٍ كان واقفاً ويدير ظهره لي يتحدث مع شخصٍ آخر، ويبدو على هيئته الثراء.

قال صاحب الخان: «هذا التاجر عبد الله، إنه كثير الأسفار ويعرف كل التجار الذين يمرون من هنا».

فاقتربت من التاجر وقلت: «عفواً يا سيدي، هل لي أن أسألك سؤالاً؟»

فالتفت إلي، وعندما رأيت وجهه شهقت وكدت أن أقع مغشياً علي، ولكني تمالكت نفسي وقلت: «عنفرة! مستحيل، لا يمكن!»

فقال الرجل باستغرابٍ: «لم ينادني أحدٌ بهذا الاسم منذ سنوات! هل السيدة تعرفني؟»

فقلت له: «عنفرة، إنها أنا!»

فظل ينظر إلي باستغرابٍ شديدٍ وقال: «إن اسمي عبد الله يا سيدتي، هل أستطيع مساعدتك؟» ثم أضاف: «وكيف تعرف السيدة اسمي الآخر؟ لا يعرفه أحد هنا سوى...»، ولم يكمل.

تذكرت أنني الآن سيدةٌ ولست عجيباً القرصان، فكيف له أن يعرفني؟ قلت له: «هل يسمح السيد أن نتحدث على انفراد؟»

فطلب الإذن من الرجل الذي كان يحادثه وقادني إلى زاويةٍ فيها مقاعد وقال: «تفضلي يا سيدتي بالجلوس، أنا رهن إشارتك، مع أنني أعتقد أنك ربما تريدين شخصاً آخر».

فقلت له: «بل أريد عنفرة الذي كان نائب القرصان علاء الدين فوق سفينة الملاك الأسود، والذي صار قائداً لها بعد وفاة علاء الدين رحمه الله».

فقال وهو يلتفت حوله لئلا يسمع كلامنا أحد: «وكيف عرفت كل هذا؟ هل أنت قريبة القرصان علاء الدين؟»

فقلت وأنا لا أستطيع التوقف عن الابتسام: «أنا عجيب!»

فقال: «عذراً!» كمن بوغت.

فقلت: «حسناً، سأبدأ من البداية، وأرجوك ألا تقاطعني. اسمي قمر، وقد لبست ملابس الرجال لأنضم إلى سفينتكم، لكن سأبدأ من البداية»، وحكيت له عن قريتنا في فلسطين وقصة أهل القرية ، وكيف حلت أمي اللغز ، وكيف مات والدي وتركت القرية وعشت مع أختي شمس وزوجها وأولادها، وعن أم نجم في القدس، وحكيت له عن القافلة وعن قطاع الطرق وكيف باعوني عبدة، وحكيت له عن نور الهدى والمؤامرة ضدها، وذهابي إلى المغرب والمعلم الذي طردني، وكيف لبست ملابس الرجال وانضممت إلى سفينة القراصنة، الملاك الأسود، وتركتها عندما مات علاء الدين، وعندما انتهيت من هذا المقطع في روايتي قال: «الآن فهمت! كانت هناك أشياء في مظهرك وتصرفاتك لم أستطع فهمها، تابعي، تابعي، إن قصتك مثيرةٌ جداً».

حكيت له عن اعتزالي بعد موت علاء الدين وكيف فتحت حانوت الكتب بالأموال التي أعطاني أياها: «أتذكر أنك أعطيتني كيسين مملوءين بالقطع الذهبية؟»

فقال: «أذكر، أذكر، وأرى أنك فعلت بهما خيراً، لكن تابعي».

فحكيت له عن زواجي من أحمد وعن نجمة وعن سعادتي التي وجدتها أخيراً، ثم حكيت له عن غرق السفينة، وعندها بدأت أبكي، فقال: «هوني عليك»، وطلب من خادم الخان إحضار الماء والشاي، وحاولت جهدي أن أهدأ، فقال عنفرة باهتمامٍ بالغ: «هل تشعرين بتحسن؟»

أومأت رأسي بالإيجاب، فنظر إلي يشجعني أن أواصل الحديث، فأكملت قصتي عن غرقي وكيف تمكن بعض الصيادين في إحدى الجزر الإسبانية من إنقاذي بعد أن رأوني عائمةً فوق خشبةٍ مغمىً علي، وبعدها كيف وصلت إلى طنجة وقصة القافلة إلى مصر وزين الدين الذي ساعدني حتى أصل إلى عدن، وأنهيت كلامي: «لكن كانت المفاجأة أنني رأيتك وعرفت أنك من كبار التجار».

فقال: «بعد أن مات علاء الدين بقينا نمارس القرصنة لفترة، ثم قررت أن أتركها وأن أجد لي عملاً مستقراً وأتخذ لي زوجة».

فقلت: «هذا رائع! وهل لك أولاد؟»

فقال: «نعم، علاء الدين وهبة، وزوجتي حامل».

«عظيم! وماذا حدث لبقية الأصدقاء من الملاك الأسود؟»

« شيخون ، تذكرينه؟»

فقلت: «طبعاً، طبعاً».

فأكمل: «قرر أن يذهب ويبقى مع والدته المريضة في قريته، ولم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك، أما «ملفوفة» الطباخ فقد توفي بعد أن تركنا بعدة أشهر، وابنه يعمل معي في التجارة، وعبدون واثنان آخران قررا المضي في القرصنة، وتفرق الباقون في هذه الحياة».

فقلت: «نعم، هذه هي الحياة».

نظر إلي بجديةٍ وقال: «الآن يا سيدتي قمر، أم أناديك عجيب؟»

فقلت: «إذا صرت عبد الله فأنا قمر».

«حسناً يا قمر، أعدك، بل أقسم لك بحياتي التي أنقذتها مرة ألا أوفر جهداً ولا مالاً لأجد لك زوجك وابنتك، أما الآن فاستريحي قليلاً وسأعود بعد أن أسأل بعض التجار عن سفينة العبيد». وبالفعل عاد في المساء وقال: «لقد وجدت لك التاجر الذي اشترى العبيد، وهو بالمصادفة صديقٌ لي، هيا لنذهب إليه».

كدت أطير من الفرحة، لا بد أن أجد أحمد ونجمة هذا المساء. وصلنا إلى بيت

التاجر صديق عنفرة واستقبلنا الرجل بحرارة، فحكى له عنفرة عني ولكن لم يقل له إني كنت قرصانة، وأخبره عن السفينة التي غرقت ورحلتي الطويلة في البحث عن زوجي وابنتي. أصغى الرجل باهتمامٍ، وبعد أن أنهى عنفرة روايته قلت للرجل: «إن زوجي في أواخر الأربعينات من عمره»، ووصفته له بدقة، «وابنتي في حوالي الخامسة واسمها نجمة، تلبس عقداً كهذا وفي عنقها من الناحية اليسرى شامةٌ على شكل حبة التوت، أرجوك خذني إليهما».

فقال الرجل: «لقد اشتريت يا سيدتي كل العبيد الذين وصلوا من طنجة والحبشة ولم أبعهم بعد، لكني لا أذكر رجلاً ولا طفلة بهذه المواصفات، فصرخت باكية: «لا يمكن! لا بد أن زوجي وابنتي معهم، أرجوك خذني إليهم الآن».

ارتبك الرجل من بكائي ونظر إلى عنفرة الذي قال: « اهدئي يا قمر وتماسكي، سنذهب إليهم ولكن أرجوك كفي عن البكاء».

فقلت وكأني لم أسمع كلامه: «خذوني إليهم الآن»، ووقفت، فوقف الرجلان.

قال التاجر: «حسناً، تفضلي لكن أرجوك ألا تعلقي آمالاً كبيرة، فقد يكون زوجك وابنتك ممن غرقوا في السفينة».

فقلت: «لا، لا، لا يمكن، إنهما هنا».

قال: «أتمنى أن تجديهما يا سيدتي، أتمنى من الله ذلك».

سرنا خلف البيت وتوجهنا إلى شارعٍ شديد الضيق، ووصلنا إلى بابٍ فأخرج الرجل رزمة مفاتيحٍ وفتح الباب ببطءٍ، فلم أعد أصبر وقلت أستعجله: «أرجوك أسرع»، كنت أتخيل نجمة تركض إلي وتضمني بذراعيها الصغيرتين وأحمد بابتسامته العريضة يقول: «كنت أعرف أنك ستأتين».

حمل التاجر مصباحاً ودخل قبلنا وهو يقول: «استيقظوا واصطفوا إلى جانب الحائط».

دخلت وراءه فحمل التاجر المصباح وبدأ يمرره أمام وجوه المساكين، وجهٌ حزينٌ إثر وجهٍ مفزوعٍ إثر وجهٍ كئيبٍ، أطفالٌ يبكون وأمهاتٌ يحملن رضعهن ، كم أشفقت عليهم وعاودتني ذكرى وجودي في مكان كهذا في زمنٍ بعيد، ثم قال التاجر: «لم يبق أحد».

لم أجد وجه أحمد ولا نجمة بين هذا الجمع البائس، ورفضت أن أصدق فقلت: «ألا توجد غرف أخرى؟»

فقال التاجر: «هذا كل شيءٍ، آسف...»، ولم أسمع بقية كلامه، كنت قد وقعت مغشياً علي من هول الصدمة. فتحت عيني لأجد وجه عنفرة ينظر إلي بقلق، نظرت حولي فوجدت أنني أنام على فراشٍ وثيرٍ، وأنني في غرفةٍ غريبةٍ لم أرها من قبل، فقررت أنني قد أكون في بيت التاجر.

«الحمد لله على سلامتك، لقد أقلقتنا عليك».

سألته: «أين أنا؟»

فقال: «في بيت جاسم، لقد أغمي عليك وحملناك إلى هنا».

جلست في السرير وأنا أحس بالاختناق: «لم أجدهما يا عنفرة! أحمد ونجمة لم أجدهما!»

فقال عبارةً فيها الكثير من القلق: «أعرف، أعرف، أريدك الآن أن تتحسني ثم سنفكر معاً فيما سنفعل».

كررت كلامي وكأني لم أسمع ما قاله: «لم أجدهما! لم أجدهما ياعنفرة!»

فقال: «أرجوك أن تستريحي الآن ولا تفكري في شيءٍ غير صحتك»، ثم وقف وهو يقول: «سأحضر لك بعض الطعام».

«لا أريد طعاماً، لا أريد أن آكل».

لكنه، وبرغم احتجاجي، خرج وعاد بعد قليلٍ بصحبة التاجر وسيدةٍ في مثل عمر أم نجم تحمل صينية عليها بعض الأطباق.

قال التاجر: «الحمد لله على سلامتك، هذه زوجتي أم سعد».

فاقتربت المرأة مني ووضعت صينية الطعام على منضدةٍ إلى جانبي وجلست على حافة السرير قبالتي وقالت: «الحمد لله على سلامتك يابنتي، ألا تأكلين شيئاً؟»

فقلت: «شكراً لك، لا أريد أن آكل».

فقالت: «إني أقدر حالتك ومصابك العظيم، لكن يجب أن تأكلي شيئاً».

فقلت بإصرارٍ وأنا أدير وجهي إلى الجهة الأخرى: «لا أحس بالجوع».

نظرت السيدة أم سعد إلى زوجها الذي كان يبدو متألماً: «حسناً، ارتاحي قليلاً، قد تحسين بالجوع بعد قليل، سنتركك الآن لترتاحي»، وأومأ لامرأته أن تخرج، فخرجت المرأة بعد أن ربتت على يدي بحنان، وخرج زوجها على إثرها. بقي عنفرة بقربي وقال: «استريحي الآن يا قمر وسأعود لأراك في المساء»، وخرج.

أستريح؟ كيف أستريح؟ لا أستطيع حتى البكاء! استلقيت على ظهري وبقيت ساهمةً أنظر للسقف لا أحس بشيءٍ، فقط أحس بفراغٍ كبيرٍ وكأن جسدي قد أفرغ من كل شيءٍ حتى الروح، ولم يبق لي سوى هذه القشرة التي لا تحس شيئاً. لم ألحظ مرور الوقت ولا العتمة التي بدأت تسود الغرفة، سمعت طرقاً على

الباب وضوء مصباحٍ يتسلل وصوت خطواتٍ، لم أتحرك، لم أنظر حتى باتجاه المصباح لأعرف من القادم، كنت فقط أنظر إلى السقف المعتم الذي بدأت تتراقص عليه ظلالٌ من ضوء المصباح، ثم سمعت صوت السيدة أم سعد تقول: «قمر، هل أنت نائمة يابنتي؟» فلم أجبها، وبقيت أنظر إلى السقف وكأن هناك حبلاً غير مرئيٍّ يربط عيوني به، اقتربت أم سعد من السرير وأحسست بأنفاسها فوق وجهي تتفحصني: «قمر، قمر، هل تسمعينني؟ ردي علي يابنتي!»

لم أتحرك، فجلست إلى جانبي وأمسكت يدي وقالت بصوتٍ خائفٍ: «يا إلهي! إن يديك باردتان كالثلج!» لم أرد، ليس لأني لا أريد ولكن لأني لم أستطع ذلك، عيناي ما زالتا معلقتين بالسقف وكأن شيئاً ما هناك يمنعني من أن أتحرك أو أتكلم، هزتني من كتفي بقوةٍ ثم أحسست بلطمةٍ قويةٍ فوق خدي، حركت رأسي تجاهها بفعل اللطمة ونظرت إليها فقالت: «ماذا حدث لك؟ لقد أخفتني! أرجوك قولي شيئاً».

لم أجب، لم أستطع إجبار لساني على التحرك أو حلقي على إخراج الكلام، وكأن شيئاً قد عطل دماغي كلياً ولم أعد أسيطر على أي عضوٍ من جسدي، ولا حتى التفكير... لا شيء، فقط لا شيء، وعادت عيناي من تلقائهما للنظر إلى السقف. خرجت السيدة مذعورةً من الغرفة، وعادت ومعها زوجها الذي سمعته يقول: «قمر، ردي علي، هل أنت بخير؟ أرجوك قولي شيئاً، أيَّ شيء!» لكني لم ألتفت إليه، أحسسته يراقبني مدةً ثم خرج مع زوجته، وعادا بعد قليلٍ بصحبة عنفرة الذي وقف إلى جانب السرير وبدأ يتحدث إلي: «قمر، ما بك؟ يا قمر قولي شيئاً، لا يصح هذا!» وقال برجاءٍ: «أرجوك يا قمر، أرجوك!» ثم ضرب يداً بيد وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، الأفضل أن نحضر لها الطبيب»، وخرج ثلاثتهم من الغرفة.

عندما عادوا سمعت صوتاً غريباً يقول: «السلام عليكم»، ثم شعرت به يجلس على حافة السرير ويمسك يدي، ثم وضع يده على عيني يحاول أن يفتحهما

أكثر واقترب بوجهه من وجهي وبدأ يتفرس فيه، لم أر من وجهه سوى عينين حمراوين، وكأنه صحا من النوم لتوه، ثم عاد وأمسك يدي بيده وقال: «هل تسمعينني؟ أنا الطبيب عبد العظيم، هل تحسين بشيءٍ يابنتي؟ انظري إلي وقولي لي ماذا تحسين». لكنني برغم سماعي لكل ما قاله لم أستطع أن أجبر جسدي على فعل أي شيءٍ، وكأنه يتصرف وحده وكأن روحي في مكانٍ آخر، وبقيت أحملق في السقف، نظر في وجهي فترة ثم أحس نبضي وسأل: «هل أكلت شيئاً؟»

فقالت السيدة: «لم تأكل شيئاً منذ البارحة، وهي هكذا منذ الصباح تحملق في السقف ولا تتحرك ولا ترد!»

فوقف الطبيب وقال: «إن هذه السيدة تعاني من صدمةٍ شديدةٍ!»

قال عنفرة: «نعم، لقد فقدت زوجها وابنتها، لكن هل هناك علاج لحالتها؟ إننا قلقون عليها».

سمعت الطبيب يقول: «والله ليس هناك علاجٌ معينٌ لحالة كهذه، فكل إنسانٍ يدافع عن نفسه تجاه صدمةٍ قويةٍ بردة فعلٍ مختلفة، أعني أنه ليس هناك دواءٌ يمكن أن تتناوله سوى بعض الأعشاب لتنبه أعصابها، لكن أنصحكم أن تسقوها أي شيءٍ، ماءً، حليباً، عصائر، وأن تبقوا إلى جانبها، وبعدها الأمر بيد الله».

فسأله عنفرة: «ولكن هل ستطول حالتها هكذا؟»

فقال الطبيب وهو يقف: «العلم عند الله، لا أدري، أياماً، أسابيع، العلم عند الله، والله لطيفٌ بعباده»، وسمعته يخرج، ثم أحسست عنفرة يجلس إلى جانبي ويمسك يدي ويقول بصوتٍ واهنٍ: «لا حول ولا قوة إلا بالله! ألا تستهدين بالله يا قمر؟» ثم قال بعد فترة صمتٍ: «أنت الوحيدة التي تستطيعين علاج نفسك، هيا يا قمر أخرجي نفسك من هذه الحالة وعودي إلينا»، ولكني بقيت أحملق في السقف، فوقف وقال للسيدة أم سعد: «حاولي أن تسقيها بعض الماء، سأعود

لأطمئن عليها في الصباح»، وخرج الجميع. بعد قليلٍ عادت أم سعد وجلست إلى جانبي وأمسكت رأسي بيدها اليسرى ووضعت كوب الماء فوق شفتي، وقالت: «اشربي قليلاً، ولو جرعةً واحدةً، هيا، هيا يابنتي، لقد حرقت قلبي عليك!» ولما لم أستجب وضعتني ثانيةً بوضع الاستلقاء ثم فتحت شفتي بأصابعها وبدأت تنقط الماء في فمي، فبدأت أحس بالاختناق واضطررت لابتلاعه، فقالت بارتياح: «هذا أفضل، سيعطيك بعض القوة»، وابتعدت عن السرير، ثم سمعتها تهمس لزوجها الذي لم أحس بوجوده في الغرفة: «لقد شربت قليلاً من الماء، الحمد لله»، وخرجا.

لا أعرف كم من الأيام بقيت على هذه الحالة، وكانت السيدة أم سعد تواظب على إجباري على تناول بعض الماء أو العصير والقليل من الأعشاب، وقد عرفت الخدعة: تنقط قليلاً في فمي فيجبرني الاختناق على الابتلاع، وجربت ذات مرةٍ أن تعطيني بعض الماء بملعقةٍ لكنها لم تنجح، فعادت لتنقيط الماء والشراب في فمي. وكنت أحس بعنفرة الذي كان يأتي عدة مراتٍ في اليوم يسأل أم سعد عني، وكانت تجيبه دائماً: «لا جديد، ما زالت على حالها!» وأسمعهما يتحدثان ويتساءلان متى ستنتهي هذه الحالة، ثم يخرج عنفرة.

كنت أحس بوجود أم سعد دائماً في الغرفة، حتى عندما لم تكن تقدم لي الماء والشراب، تجلس إلى جانبي صامتةً، وفي بعض الأحيان كانت تتحدث وتحكي عن أشياء كثيرة: عن نفسها وعن زوجها وعن أولادها، وعن مدينة عدن وعن الطقس وعن البحر والحديقة، وكأنها تحاول أن تخرجني بحديثها المتواصل من حالة اللاشيء التي أمر بها.

كنت أسمعها لكني لم أستطع إجابتها أو الرد على كلامها، وبالرغم من عدم صدور أية ردة فعلٍ مني استمرت بالتحدث إلي وهي تطعمني أو تغسلني أو تمشط شعري. وذات يومٍ جلست أم سعد إلى جانبي تثرثر كعادتها: «انظري، إنه

صباحٌ جميل! أتسمعين صوت الطيور تغني؟ لقد تفتحت الأزهار في الحديقة ووضعت لك بعضها في الغرفة»، ثم قالت: «حان موعد الاستحمام»، وبدأت تخلع لي ملابسي وتمسح جسدي بقطعة قماشٍ مرطبةٍ بماءٍ معطر، ثم وقالت وهي تلبسني ملابس نظيفة: «إن هذه القلادة التي تلبسينها جميلة جداً، هي التي أهداك إياها زوجك قبل سفرك، أليس كذلك؟ وقال لي عبد الله إنك حكيت له أن زوجك صنع اثنتين، واحدةً لك والأخرى لابنتك نجمة الصباح، لا بد أنه كان يحبكما كثيراً، رحمه الله...». نظرت إليها وبدأت الدموع تنزل من عيني، فضمتني إلى صدرها وقالت: «ابك، ابك يابنتي...».

فقلت بصوتٍ وكأنه ليس لي: «لقد رحلا...!» وبدأت بالبكاء بكاءً ممضاً وموجعاً، بكاء الثكالى، ثم بدأت أصرخ بكل ما بقي في رئتي من قوة ، وأبعدتها عني وبدأت أصرخ وأنادي، وبعد أن أنهكني الصراخ عدت للبكاء بكاءً فاجعاً، بكاءً لم أعرف أن جسدي الهزيل يقوى عليه.

لا أذكر الآن كم من الوقت بقيت وأنا أبكي، ساعةً أضع رأسي على كتف أم سعد، وساعةً أبعدها عني ، ثم أظلمت الدنيا ورحت في غيبوبة. عندما استفقت كانت أم سعد لا تزال إلى جانبي، ووجدت عنفرة يقف إلى جانب السرير والسيد جاسم يقف قريباً منه، فبادرني عنفرة عندما فتحت عيني: «هكذا أحسن، الحمد لله على عودتك، لقد خفنا عليك كثيراً وأنت لا تتحركين، لقد هزلت كثيراً! ما رأيك ببعض الطعام؟»

فقلت له بصوتٍ واهنٍ: «لقد ضاعا مني!»

حاول أن يشجعني: «لا، أنت لا تعرفين بكل تأكيد، ربما أنقذا، ربما تجدينهما، توكلي على الله».

فقلت بعد مدةٍ من البكاء: «وماذا سأفعل الآن؟ أخبروني، ماذا سأفعل؟»

فقال عنفرة وقد عاد بعض المرح إلى صوته: «أول شيءٍ يجب أن تفعليه هو أن تتحسني وتردي صحتك، فأنت في غاية الهزال والضعف ولن تستطيعي التفكير وقواك خائرة»، ثم قال: «هيا اشربي هذا»، ومد لي صحن حساءٍ تناوله عن المنضدة التي كانت بجانبي، فقلت باحتجاجٍ: «ليس لي رغبةٌ في الطعام».

فقال بإصرارٍ: «يجب أن تأكلي شيئاً، لأجلي ولأجل هذه السيدة الطيبة التي جلست إلى جانبك ولم تفارقك لحظةً واحدةً، هيا، هيا، أرجوك»، فشربت ملء ملعقتين أو ثلاث من الحساء وأعدت له الطبق، فقال: «نعم، هكذا أحسن».

فعدت لسؤاله: «ماذا سأفعل الآن؟»

فقالت أم سعد : «ما رأيك لو تتمشين معي في الحديقة؟ إن الجو رائعٌ في الخارج وأنت لم تخرجي من هذه الغرفة منذ أكثر من ثلاثة أسابيع، وجسمك بحاجةٍ إلى هواءٍ نقيٍّ، هيا»، وأمسكت بيدي لتساعدني على الوقوف، فقال جاسم: «وسأتناول أنا عبد الله الشاي معكما في الحديقة».

حاولت أن أقف لكن ساقيّ كانتا ضعيفتين فكدت أقع، لكن يد أم سعد أسندتني وساعدتني أن أقف بثباتٍ أكبر، ثم بقيت تسندني حتى وصلنا إلى الحديقة وأجلستني على أحد المقاعد ووضعت على ركبتي قطعة قماشٍ صوفيةً لئلا أبرد. كان الضوء شديداً بحيث اضطررت إلى أن أغلق عيني قليلاً حتى أعتاد الضوء، جلست أم سعد إلى جانبي وجلس قبالتنا كلٌّ من السيد جاسم وعنفرة، جلسنا بصمتٍ نستمع إلى صوت الطيور وصوت حفيف الأشجار، لم يقل أحدٌ شيئاً لفترةٍ طويلةٍ وكأنهم يخافون أن يتفوهوا بأية كلمةٍ فأعاود البكاء، أو لأنهم أرداوا إعطائي فرصةً لكي أرتاح في جلستي وأعتاد الضوء والأصوات من حولي. وعندما طال الصمت تنحنح عنفرة وبدأ يحدث السيد جاسم عن التجارة وعن مشاريعه القادمة، فسأله السيد جاسم: «سمعت أنك ذاهب إلى الهند، متى ذلك؟»

فقال عنفرة: «ربما خلال شهرين، فأنا ما زلت أقوم بتحضير البضاعة وتجميعها، ما رأيك أن تشاركني؟»

فقال السيد جاسم: «لا، لا، شكراً يا صديقي، أنا رجلٌ كبيرٌ ولا طاقة لي على السفر، إن الجلوس في الحانوت ومتابعة أشغالي الأخرى يتعبني، فكيف بالسفر؟ لا، اعفني يا صديقي من هذا الشرف، إن كنت تقصد أن أشارك في البضاعة فعلى الرحب والسعة، هذا شيءٌ أقدر عليه».

فقال له عنفرة ممازحاً: «ما الذي تقوله يا رجل؟ ما زلت شاباً يا أبا سعد، وتستطيع أن تتزوج من ثلاث صبايا في العشرين في آنٍ واحد، ما رأيك يا أم سعد؟»

فضحكت أم سعد وقالت: «إذا كان الأمر هكذا فأنا أفضل أن يسافر»، وضحك الجميع، ثم نظروا إلي، كنت أستمع إلى حوارهم ولكني لم أستطع المشاركة في مرحهم.

بقيت شهراً آخر في بيت التاجر جاسم وزوجته الطيبة أم سعد، والحق أنهما كانا في غاية الرقة واللطف معي، كنت أقضي الساعات أبكي أو أتجول في الحديقة دون أن أغيب عن عين أم سعد الساهرة، والتي ما إن تراني بدأت بالبكاء حتى تهب إلى جانبي تحاول أن تخفف عني. لم تكن لدي رغبةٌ في فعل أي شيءٍ حتى التفكير، كانت الأيام تمضي لا طعم لها، وتبدو الساعات والأيام الواحدة مثل الأخرى، يأتيني الحزن وأحس بالفاجعة، فيضطرب قلبي وأحس بألمٍ يعصر كل جسدي، وأتجول في الحديقة فيأتيني الألم كالصاعقة، فأبكي وأبكي: «ماذا سأفعل؟ أين أبحث عنهما؟ لا أثر لهما في طنجة ولا أثر لهما في عدن! أين هما؟» وكنت أرفض أن أصدق أو أقتنع بأنهما غرقا، وعندما أصل إلى هذه المرحلة من التفكير يعاودني البكاء والإحساس بأنني وحيدةٌ وغريقةٌ ولا يوجد من يساعدني في أن

أجد جواباً أو أجد قشة أملٍ أتعلق بها.

تلك كانت أقسى وأصعب أيام حياتي. وذات يومٍ جاء عنفرة وسألني السؤال الذي كنت دائماً أتهرب من التفكير به أو الإجابة عنه : «ماذا نويت أن تفعلي؟ هل ستعودين إلى طنجة؟»

فقلت: « لم يعد لي شيءٌ هناك».

فقال: «هل ستعودين إلى فلسطين؟»

«لا أدري!»

في الحقيقة بات كل شيءٍ أفعله سيان، فقد ماتت الرغبة لدي في فعلٍ أي شيء، ولم تعد للحياة قيمةٌ أو معنىً، ما معنى الحياة من دون الذين أحبهم؟ ما طعم الحياة إن فقدت كل شيء؟ لن أستطيع أيضاً البقاء هنا إلى الأبد، لا بد أن أذهب إلى مكانٍ ما، لا يهم أين، فقلت: «أعتقد أنني سأعود إلى فلسطين، فلم يعد لي أي شيءٌ في أي مكانٍ آخر».

قال: «لتكن مشيئة الله و...»، وسكت، ثم قال بترددٍ: « هل...؟» ولكنه لم يكمل ولم أحثه على ذلك.

تحسنت صحتي قليلاً بفضل مثابرة أم سعد وبدأت أحس أنني قادرةٌ على السفر والعودة إلى بلادي، فقلت لأم سعد ذات مساء: «لقد قررت العودة».

شهقَت أم سعد ووضعت يدها فوق فمها وقالت: «بهذه السرعة؟ ابقي قليلاً حتى تتعافي».

فقلت: «أعتقد أنني قادرةٌ على السفر».

قالت: «لا أعرف كيف ستكون حياتي من دونك؟ لقد اعتدت عليك كثيراً! سيكون

البيت موحشاً، ابقي قليلاً».

«الحقيقة أنني لا أعرف كيف أشكركما على تحملي كل هذه الفترة، وعلى ضيافتكما وكرمكما، لكن آن الأوان لأن أغادر وأن أعود إلى وطني».

حاولت السيدة أم سعد أن تقنعني بأن أغير رأيي أو أن أطيل فترة وجودي معها، لكني طلبت من عنفرة عندما جاء ليزورني في المساء أن يجد لي مكاناً في قافلةٍ متجهةٍ إلى فلسطين، فقال: «هل أنت متأكدةٌ من أنك تريدين العودة إلى فلسطين؟»

قلت له بمرارةٍ: «وأين أذهب إذن؟ ما عاد لي شيءٌ في أي مكانٍ آخر! سأعود إلى قريتي وأبقى هناك حتى أموت».

قال: «إنك تتكلمين كأن عمرك مائة عام!» وأعاد كلامي بنفس لهجتي: «وسأبقى هناك حتى أموت»، ثم تابع: «أنت ما زلت صغيرةً لتفكري بمثل هذه الطريقة».

قلت له: «ليس العمر هو المهم، لقد انتهت حياتي، ألا ترى ذلك؟ ولم أعد أريد شيئاً من هذه الدنيا، ستكون هذه آخر مرةٍ أسافر فيها عائدةً إلى وطني ولست أريد أي شيءٍ آخر، لقد تعبت وعانيت الكثير وفقدت ما لا أستطيع تعويضه في أي مكان».

فقال: «حسناً كما تشائين! إن أردت أن تدفني نفسك وأنت حيةٌ في تلك القرية المعزولة فهذا شأنك».

قلت بغضبٍ: «نعم هذا شأني وهذا ما أريد أن أفعله».

قال: « إذًا سأسال لك في الغد عن القوافل المتجهة إلى فلسطين». وبالفعل عاد في اليوم التالي ليقول أن هناك قافلةٌ مغادرةٌ إلى فلسطين بعد أسبوعين، وأنه أخذ لي مكاناً فيها.

مر الأسبوعان وجاء موعد السفر، وكنت قد بدأت أرتب ملابسي في الحقائب عندما جاء عنفرة: «ستغادر القافلة بعد غدٍ فجراً، وسيلتقي المسافرون عند الخان في وسط المدينة، سآتي قبل ذلك لأودعك»، ثم قال بعد تردد: «هل ما زلت مصرةً على السفر والعودة إلى وطنك؟ ألن تغيري رأيك؟ ما زال أمامك وقت لذلك».

فقلت: «وماذا أفعل غير ذلك يا عنفرة؟ لقد فقدت كل شيء!»

فقال: «لكنك لم تفقدي نفسك، ما رأيك...؟» وسكت.

«رأيي في ماذا؟»

فقال بسرعة وكأنه يخاف أن تخونه الكلمات: «ما رأيك أن تسافري إلى الهند؟» وتابع قبل أن أرد عليه: «إن سفينتي مسافرةٌ إلى هناك بعد أسبوعين، ولا يوجد شيءٌ في فلسطين لتسرعي في العودة من أجله، أعني...، لم أقصد...، تتعرفين على بلدٍ جديدٍ ثم تعودين إلى وطنك بعد ذلك، ما رأيك؟»

«هذا لطيفٌ جداً منك يا صديقي، لكني لا أستطيع، ليست لدي رغبةٌ في السفر أو تعرّف بلادٍ جديدة».

فقال: «أين القرصان عجيب الذي كان دائماً يتوق إلى كل ما هو جديد؟ هيا، لا بد أنه موجودٌ في مكانٍ ما في داخلك، أخرجيه».

فقلت له بمرارةٍ شديدةٍ: «لقد مات عجيب يا عنفرة، وأمامك الآن حطام امرأة».

لكنه قال مشجعاً: «لا أعتقد ذلك، فأنت إنسانةٌ شجاعةٌ وقويةٌ وتستطيعين التغلب على أي شيء».

قلت: «لم أعد كذلك، لقد هدتني الأيام وقتلت فيَّ المصائب المتتالية كل شجاعة!»

«هذا ليس صحيحاً، بالإضافة إلى أن لديك داء السفر، ومن يصيبه هذا الداء لا يمكن أن يتعافى منه».

«لقد اضطرني الأمر لأن أتعافى».

فقال مغيراً لهجته في الكلام: «لكني أحتاجك».

سألته: «تحتاجني؟ أنا؟»

«إنها سفينةٌ كبيرةٌ وعليها الكثير من البحارة والتجار، وكما تعرفين نحتاج طبيباً ليكون معنا باستمرار، أعني، هذه ليست سفينة قراصنة، ولا أعرف طبيباً أفضل منك، هيا قولي نعم».

فقلت له: «أشكرك كثيراً على هذا الإطراء، ولكني لا أعتقد أنني أستطيع ركوب البحر مرةً أخرى».

«حسناً، لا تعطيني جواباً الآن، معك حتى الغد، خذي وقتك في التفكير وسأقبل أي قرارٍ، لكن عديني أن تفكري».

«أعدك».

فقال بإلحاحٍ وكأنه يتمسك بآخر قشةٍ: «ألم يعاودك الحنين إلى الأيام الخوالي؟»

فقلت له: «لقد كنا قراصنة وقتها يا عنفرة».

«لا أقصد القرصنة، أقصد السفر والترحال والمغامرة واكتشاف أشياء جديدة!»

فابتسمت بمرارة: «لقد فقدت الرغبة في كل ذلك».

«لا بد أنها موجودةٌ في مكانٍ ما في داخلك، ابحثي عنها، فالسفر وسيلةٌ جيدةٌ للنسيان والتغلب على الألم، لن ألح عليك، فقط عديني أن تفكري».

«سأفعل».

فكرت كما وعدته، لكني لم أصل إلى نتيجةٍ، ولم أستطع أن أستعيد ذلك الإحساس بالمغامرة، وكأن كل مشاعري قد ماتت، من ناحيةٍ كنت أريد مكاناً أدفن فيه نفسي مع أحزاني، وقريتي هي المكان المثالي، هناك أعيش بقية أيامي بعد أن فقدت طعم الحياة. لا شيء يمكن له أن يخفف هذا الحزن الهائل الذي أحس به، ولا يمكن للسفر أن يسلي هذه النفس المفجوعة، لو عرض علي شيءٌ مثل السفر إلى الهند قبل سنواتٍ، أعني قبل أن أجد السعادة والهدوء مع أحمد ونجمة، لقفزت من الفرح وذهبت دون ترددٍ، لكن الآن...!» لم أنم تلك الليلة وأنا أفكر.

جاء عنفرة: «ها، ماذا قررت؟ هل حصلت على طبيب؟

قلت: «الحقيقة، الحقيقة أنني لم أصل إلى قرارٍ نهائيٍّ بعد، لقد بقيت طوال الليل ساهرةً أفكر في الأمر، القافلة ستتجه غداً إلى وطني وربما من الأفضل أن أسافر معها. صدقني ليست بي رغبةٌ إلى مغامرةٍ جديدةٍ، لقد اكتفيت، فكل مغامرةٍ أودت بي إلى مزيدٍ من الألم والحزن، ولم يعد لي طاقةٌ على ذلك!»

فقال بخيبة أمل: «كما تشائين، لكن هذا يعني أنني سأبحث لنفسي عن طبيب».

فقلت له: «حظاً موفقاً، أنا متأكدةٌ من أنك ستجد طبيباً بارعاً».

فقال وقد بان على وجهه الأسى: «نعم، نعم، إذاً سأكون هنا باكراً في الغد لآخذك إلى القافلة وأودعك، من يدري إن كنا سنلتقي ثانيةً».

كان وداع السيدة أم سعد حزيناً مثل وداع أم نجم قبل سنوات، كان من الصعب علي فراق هذه السيدة التي أحاطتني بحنانها وحبها ورعايتها. أمر السيد جاسم

خادمه أن يحمل الحقائب، فودعته وسرت مع عنفرة بصمتٍ نحو الخان حيث سيلتقي المسافرون.

عندما اقتربنا من الخان ورأيت الجمال وحقائب المسافرين المرتبة بعنايةٍ فوقها وجموع المسافرين قلت لعنفرة: «ناد على الخادم»، فناداه، فقلت له: «احمل هذه الحقائب إلى سفينة السيد عبد الله»، ثم توجهت إلى عنفرة الذي أضاء وجهه بابتسامةٍ كبيرةٍ: «لم أسألك حتى عن اسم السفينة».

فضحك بفرحٍ وقال للخادم: «احمل حقائب السيدة إلى السفينة اللؤلؤة».

أسئلة الجزء الحادي عشر

1. قررت قمر أن تواصل البحث عن زوجها وابنتها؟ أين كانت بعد أن أفاقت؟ وإلى أين قررت أن تذهب؟
2. لماذا ذهبت إلى المقهى؟ وكيف تعرضت لموقف صعب هناك؟
3. ما مصير ركاب السفينة الناجين؟
4. في أي قافلة ذهبت قمر للبحث عنهما؟
5. ما علاقة زين الدين الغافقي كبير تجار القيروان بزوجها أحمد المغربي؟
6. ما الخدمات التي قدمها زين الدين لقمر؟ ولماذا؟
7. لماذا ذهبت أخيراً إلى عدن؟
8. التقت قمر عنفرة نائب علاء الدين في عدن، لماذا أصبح تاجراً وتخلى عن حرفة القرصنة؟
9. ما المساعدات التي قدمها عنفرة "عبد الله" لقمر في البحث عن زوجها؟
10. لماذا قررت العودة إلى فلسطين؟
11. لماذا غيرت رأيها وقررت الارتحال مع عنفرة إلى الهند؟
12. ما قصة المرأة التي رافقتها مع ابنتها؟

الجزء الثاني عشر
البحر مرة أخرى

وقفت إلى حافة السفينة ألوح للسيدة أم سعد والسيد جاسم وأمسح دموعي، وكانا قد عرفا أنني سأذهب برفقة عنفرة إلى الهند ورحبا كثيراً بالفكرة. كنت خلال الأسبوعين السابقين للسفر أحاول أن أقنع نفسي بأن هذا كان قراراً صائباً، وأرسلت رسالةً إلى شمس مع القافلة التي لم أركب معها إلى فلسطين، وحكيت لها في رسالتي عن كل ما حدث معي.

بدأت السفينة تبتعد عن الشاطئ وكانت أم سعد لا تزال تلوح بمنديلها، ثم غاب الميناء وصرنا في البحر تماماً، عندها بدأت المشاعر والوساوس تجتاحني والذكريات تعاودني، وصورة نجمة وهي تركض وتقفز على السفينة جعلت في قلبي غصةً وألماً، وبدأت دموعي تنساب من جديد، ثم أحسست يداً تلمسني برفقٍ وصوتاً مألوفاً يقول: «مرحباً بك أيتها السيدة عجيب»، فالتفت لأجد حامد ابن الطباخ «ملفوفة» من سفينة القراصنة يقف إلى جانبي ويضحك بفرحٍ ويغمز لي بعينه الواحدة، حيث كانت العين الأخرى مغطاةً برقعةٍ جلديةٍ كنت قد صنعتها له بعد أن فقد عينه في قتالٍ مع إحدى السفن، سلمت عليه بحرارةٍ وسألته عن أحواله، فقال إنه بعد أن ترك القرصنة وباعوا سفينة «الملاك الأسود» إلى قرصانٍ مبتدئٍ استمر في العمل مع عنفرة في التجارة وما زال معه حتى الآن، ثم قال بحزنٍ: «لقد حدثني عنفرة بقصتك، إنه شيءٌ مؤسفٌ ومحزنٌ حقاً»، لكنه عندما رأى الدموع بدأت تتجمع في عيني تدارك الموقف بسرعةٍ وقال بمرحٍ محاولاً أن يمنعني من البكاء: «والآن، ما دمت هنا والتأم شملنا، ما رأيك أن نهاجم سفينةً ما في طريقنا؟»

فضحكت من بين دموعي وقلت: «ألم تتب عن هذه الصنعة؟»

قال: «أتعرفين، الآن وقد أصبحت تاجراً محترماً ما زلت أحس في بعض الأحيان برغبةٍ في القتال، في معركةٍ من مثل تلك التي كنا نخوضها، إن حياتنا مملةٌ كرجالٍ محترمين، آه! أدفع أي شيءٍ ثمن معركةٍ ممتعة».

فقلت له: «وهل كان القتال ممتعاً يوماً؟ كنت أكره اضطراري إلى حمل السيف، كما أني لم أحب العنف يوماً».

فقال: «الآن وقد عرفت أنك امرأة أستطيع أن أفهم ذلك»، ثم تابع: «أتعرفين، عندما نمر بسفينةٍ أقول لعنفرة: «هذا صيدٌ ثمينٌ، ما رأيك؟»».

«وماذا يقول عنفرة؟»

«يقول: «لقد ذهب الشباب وولى»».

سارت الأيام فوق اللؤلؤة بهدوء، كنت أجلس الساعات فوق دكتها أرقب البحر وأتأمل في حياتي وأعيش أحزاني وأبكي على فقدي للسعادة الوحيدة التي عرفتها في حياتي. ذات يومٍ، وكنت قد غفوت على المقعد المريح الذي أحضره عنفرة خصيصاً لي، أحسست بيدٍ تشد كمي، كانت فتاة في حوالي العاشرة من عمرها، شديدة السمرة تنظر إلي بخجلٍ، وعندما نظرت إليها قالت: «هل أنت طبيبةٌ حقاً؟»

فقلت لها: «ليس تماماً، لكن كيف عرفت؟»

قالت: «لقد أرسلني إليك العم عبد الله القبطان».

فسألتها وقد رق قلبي لها: «وكيف لي أن أساعدك أيتها الصغيرة؟»

قالت: «إن أمي متعبةٌ جداً، هل تستطيعين مساعدتها؟»

فقلت لها: «بالطبع، خذيني إليها»، فأمسكت بيدي وقادتني إلى الدرج. كنت أحس بيدها الصغيرة وأتذكر يد نجمة الرقيقة التي كانت تشد على يدي كلما رأت شيئاً يلفت نظرها، وحين وصلنا إلى القمرة مسحت الدموع التي كانت تنساب من عيني. كانت المرأة سمراء البشرة كابنتها وتلبس سارياً هندياً بألوان زاهية، مستلقيةً على السرير واضعةً يدها فوق رأسها، طرقت الباب ودخلت، فقالت الصغيرة، وكانت تتحدث العربية بطلاقة: «أمي، لقد أحضرت لك الطبيبة».

فجلست المرأة معتدلةً في السرير وابتسمت ابتسامةً واهنةً، فسألتها: «كيف حالك؟ ومم تشكين؟»

فقالت بلغةٍ عربيةٍ فيها لكنةٌ: «أحس بآلامٍ في كل جسدي، وشيءٍ كاللهب يخرج من رأسي».

وضعت يدي على جبهتها وكانت حراراتها مرتفعةً، فقلت لها: «إنها الحمى، لا عليك، سأحضر لك بعض الأعشاب». كنت قد اشتريت كميةً كبيرةً من الأعشاب من عدن واحتفظت بها إلى حين الحاجة، فقلت للسيدة: «لا تقلقي، سأعود بعد قليل». خرجت من غرفتها، وأحضرت بعض الأعشاب وقمت بتحضيرها في مطبخ السفينة وسقيتها للسيدة، وقدمت لها نوعاً آخر منها لتساعدها على النوم، ثم قلت: «استريحي الآن، وسأمر عليك لأطمئن لاحقاً»، وخرجت، فلحقتني الصغيرة وسألت: «هل أستطيع المساعدة؟ هل هناك شيءٌ يمكن أن أقوم به لمساعدتها؟»

فابتسمت لها بحنانٍ: «لا عليك، يجب أن نتركها تستريح، ما رأيك أن نأخذ جولةً في السفينة؟» فأمسكت بيدي وخرجنا إلى ظهر السفينة وتجولنا على السطح، وأخذتها إلى غرفة القبطان عبد الله الذي رحب بنا، وشرح لها بالتفصيل كيف يقود السفينة، وبعد أن انتهينا من الجولة عدت وجلست في مكاني على المقعد وجلست الطفلة إلى جانبي، فسألتها: «ما اسمك؟»

فقالت: «فاطمة، وأنت؟»

«قمر».

فقالت: «هذا اسمٌ جميلٌ»، وصمتنا فترةً ثم نظرت إلي وقالت: «هل القبطان عبد الله زوجك؟»

فوجئت: «لا، كيف خطر لك هذا؟»

فسألت: «أليس لك زوجٌ؟»

«يا للصغار، ليست لديهم أية محظورات! يسألون ببراءةٍ عن كل الأشياء دون أن يدركوا أن بعض الأسئلة تنكأ الجراح»، فقلت لها: « بلى، كان لي زوجٌ وطفلةٌ لطيفةٌ مثلك، لكنهما ضاعا مني وما زلت أبحث عنهما».

فقالت: «وكيف أضعتهما؟»

فقلت: «هذه قصةٌ طويلةٌ قد أحكيها لك يوماً».

«أنا أيضاً ليس لي أبٌ، مات أبي قبل عام».

أحسست أن هذه الصغيرة بحاجة إلى حنانٍ، وبأنها أيضاً تعاني الفقد كما أعانيه، فأمسكت بيديها الاثنتين وقلت لها: «هذه هي الحياة، لكن علينا أن نكملها في بعض الأحيان من دون الذين نحبهم». كنت أحاول أن أخفف عنها بكلامي هذا، وكنت أتمنى لو أني مقتنعةٌ به، فأنا عاجزةٌ عن أن أكمل حياتي دون الذين أحبهم. بدأت الصغيرة بالبكاء فقلت لها: «أرجوك، لا تبكي، لأنني سأبدأ أيضاً بالبكاء»، وضممتها إلى صدري، فقالت: «لقد كان والدي لطيفاً جداً ويحضر لي الهدايا، لكن بعد أن مات طردتنا جدتي من البيت، سمعتها تقول لأمي: «عودي إلى البلاد التي أحضرك منها ابني»»، فقلت باستغراب: «معقول!»

تابعت: «بعد أن طردتنا جدتي عملت أمي خادمةً عند بعض العائلات، لكنها في النهاية قررت أن تعود إلى الهند وإلى أهلها». ضممتها أكثر إلى صدري ولم أدر ماذا أقول لها سوى: «تعالي لنطمئن على والدتك».

دخلنا غرفة السيدة وكانت لا تزال مستلقيةً مغمضة العينين، وما أن أحست بدخولنا حتى فتحت عينيها وجلست على السرير، فسألتها: «استريحي، كيف حالك الآن؟»

فقالت: «أنا أفضل بكثير، شكراً لك»، ثم مدت يدها لابنتها التي جلست إلى جانبها وأمسكت بيد أمها بحنانٍ، فقلت: «لقد حكت لي فاطمة عما حدث لكما، إنه أمرٌ فظيعٌ! كيف يمكن أن يبلغ الإنسان هذا المبلغ من القسوة؟»

فردت بحزنٍ: «وأكثر يا سيدتي، صدقيني».

فقلت لها: «أرجو أن تصلي إلى بلادك سالمةً وأن تنتهي قصتك نهايةً سعيدة، أما الآن فقد حان موعد الجرعة الثانية»، وسقيتها مزيداً من الدواء وخرجت.

ما إن وصلنا إلى الهند حتى كانت «راجنا» أم فاطمة قد تحسنت تماماً، واستطاعت في الأيام الأخيرة أن تتمشى معنا على سطح السفينة، وكانت علاقتي بها وبابنتها قد توطدت وصارت فاطمة لا تفارقني، وقد أحببتها كثيراً. كم تقرب الأحزان الناس من بعضهم، صارت كلُّ واحدةٍ منا تجد في الأخرى ملاذاً من أحزانها، وكنا نبكي معاً على فقدنا ونمسح دموع بعضنا.

بدأت حركةٌ نشطةٌ على السفينة في اللحظة التي رسونا فيها على الميناء، فجاء عنفرة وقال لي: «سيكون هناك وقتٌ طويلٌ قبل أن ننتهي من إفراغ البضاعة من السفينة، ما رأيك أن تذهبي إلى الخان مع السيدة وسآتي لاحقاً لأطمئن عليكم؟ هنالك عربةٌ بانتظاركم».

لم أر عنفرة حتى صباح اليوم التالي، قال لي: «لقد استغرق تفريغ الحمولة وقتاً طويلاً وما زال أمامي الكثير لأقوم به، اعذريني، فقد كنت أود أن آخذك في جولةٍ في المدينة».

فقلت له: «لا عليك، اذهب وأتم عملك وسأذهب إلى المدينة بصحبة راجنا وفاطمة، وربما نشتري بعض الأشياء».

تجولنا في المدينة طوال النهار واشتريت بعض الملابس، واشتريت الكثير لفاطمة وراجنا، وفي المساء، وقبل أن يأتي عنفرة، سألتني راجنا: «ما رأيك لو تأتين معي إلى قريتي؟»

فقلت: «لا، لا، ماذا سأفعل هناك؟»

كنت قد حكيت لها قصتي فقالت: «وماذا ستفعلين هنا في هذه المدينة وحدك؟ تأتين معي وتتعرفين على البلاد وتكونين رفيقةً لي ولفاطمة».

فتشبثت بي فاطمة قائلة: «أرجوك أن تقبلي، فأنا لا أطيق فراقك».

وقالت راجنا بإلحاح: «أرجوك أن تقبلي، ستموتين من الملل هنا وحدك، هيا، قولي نعم».

فكرت: «حقاً ماذا سأفعل في هذه المدينة وحدي؟ لقد جئت إلى الهند ولا يمكن أن أرى مدينةً واحدةً فقط!» فقلت: «حسناً، سآتي معكما، لكن سأعود قبل أن تغادر السفينة إلى عدن»، ففرحت راجنا وصفقت فاطمة بيديها وعانقتني. عندما جاء عنفرة في المساء أخبرته بقراري فقال: «لكن...!»

فقلت له: «لكن ماذا؟ هل تخاف علي؟»

فقال: «أنت لا أخاف عليك حتى لو وضعتك بين السباع، لكن ستعودين قبل أن

ترحل السفينة إلى عدن أليس كذلك؟ بعد شهرٍ من اليوم، أرجوك ألا تتأخري».

فقلت: «بعد شهرٍ من اليوم سأكون على متن اللؤلؤة، لا تخف».

فقال: «حسناً، سأجهّز لكنّ وسيلةً للسفر وحراسةً لأطمئن على سلامتكن».

«وهل نحتاج إلى حراسة؟»

«نعم، ستمرون بغاباتٍ واسعةٍ وهناك يكثر قطاع الطرق، ناهيك عن الحيوانات المفترسة، ولا أريد أن يحصل لكنّ مكروه».

فقلت له: «شكراً لك، إنك نعم الصديق».

في اليوم التالي كانت مفاجأتي شديدةً عندما رأيت فيلاً يقف على رصيف الميناء وحوله أربعة حراسٍ مدججين بالسلاح، فقال عنفرة وهو يبستم: «عربتك جاهزةٌ يا سيدتي».

فقلت: «أين؟» فأشار إلى الفيل.

«هذا! لا، لا، أنت تمزح!»

فقال: «في هذه البلاد الفيل أحسن وسيلةٍ للتنقل، لا تخافي سيكون ممتعاً».

فقلت: «ولكنه فيل!»

فضحكت راجنا التي كانت تستمع إلى حوارنا، وقالت: «لا تخافي، لن يكون ركوبه أصعب من ركوب الجمل صدقنيني».

نزلت من السفينة وكان سائس الفيل يقف ويمسك بإحدى أذنيه، وفجأة نزل الفيل إلى الأرض وكان على ظهره صندوقٌ، فأشار إلي الرجل أن أجلس في الصندوق، الذي تبين لي أنه واسعٌ من الداخل وفيه مقاعد مريحةٌ، فصعدت راجنا وفاطمة

التي كانت مندهشةً ومتحمسةً، فلقد كانت مثلي ولم تر في حياتها فيلاً من قبل.

قال عنفرة: «لا تنسي أن تكوني هنا في الموعد لأن الرياح لن تكون مواتيةً بعد ذلك».

فقلت له: «لا تخف يا رجل، سأكون هنا».

مشينا بين الحقول الخضراء، وكان المشهد من فوق ظهر الفيل خلاباً، مع أنني كنت خائفةً من أن أسقط عن ظهره لكنه كان فعلاً يمشي بهدوء، وبدأت أحس براحةٍ أكثر كلما تقدمنا في السير مما مكنني من التمتع بالمشاهد حولي، ورؤية الناس يعملون في حقولهم، إنها حقاً بلادٌ رائعة الجمال! كنا نستريح بين الفترة والأخرى وهم يواصلون أعمالهم غير مكترثين لنا.

في الطريق حكت لي راجنا قصتها وتأثرت جداً، قالت إنه كان لأبيها عددٌ كبيرٌ من البنات والأولاد وكان يعمل أجيراً لدى المهراجات، كان يكسب القليل رغم عمل أبنائه الصغار معه، ومع ذلك كان يطعم بصعوبةٍ هذا الجيش من الأفواه، كانت راجنا أكبر البنات وأجملهن، في الخامسة عشرة من عمرها، وكانت تعمل أيضاً في الحقل، فمر ذات يومٍ ابن المهراجا، وكان ولداً سميناً ومدللاً وأكبر من راجنا بسنتين، فرآها وأعجب بها، وأمر بعض حراسه أن يحضروها له فرفضت، فهدد الصبي أباها بأنه سيفقد عمله إن لم تذهب راجنا إليه، وهكذا قررت الهرب إلى المدينة حيث البحر، وكان هذا أبعد مكانٍ عن ابن المهراجا. في المدينة عملت خادمةً، وذات صباحٍ كانت تشتري بعض الخضار لمخدومتها، فمرت عربةٌ مسرعةٌ وكادت تسحق راجنا تحت عجلاتها، فوقعت على الأرض وتبعثرت الخضار من سلتها، فنزل من العربة رجلٌ عربيٌّ من بلاد الحجاز واعتذر لها، وسألها أين تسكن، وفي اليوم التالي جاء السيد إلى بيت مخدومتها وطلبها منها، فأعطته إياها مقابل مبلغٍ كبيرٍ من المال، وحملها معه إلى السفينة المتجهة إلى اليمن وهناك

فوق السفينة تزوجها، وعندما وصل إلى بيته في الجزيرة العربية رفضت أمه قبولها، وظلت ترفضها طوال فترة زواجها، وبعد أن ولدت فاطمة وكبرت بقيت الجدة على حالها وموقفها رافضةً أن تزور بيت ابنها.

تابعت راجنا الكلام بعد أن صمتت قليلاً: «لقد كنت سعيدةً معه، كان رجلاً طيباً وكريماً، لكن أمه...»، ثم تابعت قصتها: «وبعدها مرض زوجي ولم تنفع معه كل الأدوية ومات بين يدي، فجاءت أمه قبل أن ندفنه، وقالت لي: «لم يعد لك شيءٌ في هذه البلاد، ارحلي عن هذا البيت»»، وبعد أن انتهت قالت: «وأنت تعرفين البقية. لا أعرف إن كان أهلي ما زالوا في مكانهم أم طردهم المهراجا، فأنا لم أسمع منهم شيئاً منذ هربت»، ثم نظرت إلي بحزنٍ وقالت: «أخشى أنني قد تسرعت في دعوتك للقدوم معي، فأنت الآن تقومين معي برحلةٍ لا تعرفين مصيرها، أنا آسفة».

فقلت لها: «مهما يكن أنا معكما، سنواجه ما سيأتي معاً، ومن يدري؟ قد تجدين أهللك ما زالوا في مكانهم ينتظرون عودتك!»

فقالت وهي تداعب شعر فاطمة النائمة في حضنها: «يا رب».

سرنا يومين بين الحقول، نأكل تحت الشجر وفي الليل ننام أيضاً تحت الشجر، وفي اليوم الثالث كنا قد اقتربنا من حافة الغابة وكان الظلام قد حل، فتناولنا طعامنا والتففنا بأغطيتنا للنوم، وكان الحراس يتهامسون فيما بينهم. غفوت قليلاً ثم فتحت عيني فجأةً وكأن هاجساً أيقظني، نظرت حولي، كان الصمت والظلام مخيمين على المكان، لم أجد أحداً من الحراس ولا سائس الفيل ولا الفيل الذي نمت وكان ما زال يمضغ ورق الشجر، أحسست بالوحشة وناديت على الحراس فأجابني الصمت، صحت راجنا على صوت ندائي وصحت فاطمة وهي تفرك عينيها.

سألت راجنا: «ماذا بك؟ ما الذي حدث؟»

فقلت لها: «لقد اختفى الحراس والسائس والفيل!»

«وأمتعتنا؟»

«لقد سرقوا كل شيء!»

كنا على حافة الغابة دون متاعٍ أو طعامٍ أو مالٍ أو مأوىً. بدأت راجنا تصرخ وتبكي، فاقتربت منها فاطمة وأحاطتها بذراعيها وصارت الاثنتان تبكيان معاً، أما أنا فوقفت في مكاني مذهولةً، كان الموقف في غاية الحرج، لقد أصبحنا الآن بلا شيءٍ، وكان الحري بي أن أبكي لكني بدأت أضحك وأضحك ونزلت دموعي من الضحك، فتوقفت راجنا وفاطمة عن البكاء ونظرتا إلي باستغرابٍ شديدٍ، كنت أنظر إليهما وأمسك خاصرتي من ألم الضحك وهما مذهولتان تنظران إلي كمن مسّني عفريتٌ، فقالت راجنا: «كيف تضحكين؟ نحن في موقفٍ جد سيء!»

لكني لم أستطع أن أجيبها، وجلست على الأرض لأنني لم أستطع التماسك من الضحك، وقلت لها بصوتٍ متقطعٍ: «لقد سرقوا كل شيء!»

فقالت: "نعم، لقد سرقوا كل شيءٍ وهذا ليس مضحكاً، هل جننت؟"

وعدت للضحك من جديد، فبدأت راجنا تهزني بكلتا يديها، أبعدت يديها عني وبدأت أمسح الدموع عن خدي وقلت: "ألا ترين الموقف مضحكاً؟"

"الحقيقة أنني أرى الموقف محزناً جداً ولا أفهم سبب الضحك!"

فقلت لها وأنا أحاول الوقوف على قدمي وهي تمد يدها لتساعدني على الوقوف: "حتى الآن، وفي كل رحلةٍ قمت بها حدث شيءٌ فظيعٌ، كأنه قد كتب عليّ في كل خطوةٍ أقوم بها أن أواجه أمراً صعباً، لقد كنت أتوقع مثلاً أن تحدث عاصفةٌ

تضرب السفينة التي كنا عليها، ثم عندما لم يحدث شيءٌ استغربت، والآن لقد سرقنا من كان يجب أن يحمينا! أليست هذه مفارقة غريبة؟ ألا تجدين هذا مضحكاً؟"

"حتى الآن لا أجد شيئاً مما قلته مضحكاً، أرجوك أن تعودي إلى صوابك لنرى ماذا سنفعل".

"حسناً، حسناً، دعينا نرى ماذا سنفعل"، نظرت حولي وكان الظلام دامساً، فقلت لها: "لن نتمكن من اجتياز الغابة في هذه العتمة، أرى أن نبقى هنا حتى الصباح، لنحاول أن نشعل ناراً".

جمعنا ما استطعنا من الحطب وبعض الأعشاب الجافة، وأمضينا وقتاً طويلاً نفرك خشبةً بأخرى لنشعل شرارة، كما كان يفعل الناس في العصور القديمة، وأخيراً تمكنا من إشعال النار وجلسنا حولها. وضعت فاطمة رأسها على فخذ أمها وغطت في النوم، فقلت لراجنا أن تحاول النوم هي الأخرى على أن أقوم أنا بالحراسة، فأسندت راجنا ظهرها إلى الشجرة وأغمضت عينيها. بقيت ساهرةً أنظر حولي بتوجسٍ، لم أعد خائفةً من لصوصٍ أو قطاع طرقٍ، كنت خائفةً من أن يهاجمنا حيوانٌ مفترسٌ، فقد سمعت أنها موجودةٌ بكثرةٍ في غابات الهند. كنت منذ أن غادرت طنجة على القافلة الأخيرة قد تعودت على أن أحمل سكيناً صغيراً في حزامي تحسباً لأي شيءٍ، وكان الخوف من قطاع الطرق وقتها هاجسي وفكرت أني قد أستطيع الدفاع عن نفسي، لا يترك المقاتل نفسه بغير سلاحٍ حتى ولو كان خنجراً صغيراً، فحملته بيدي ثم وجدت غصناً جافاً قريباً مني فوضعته بجانبي لأضرب به أي شيءٍ يقترب، وواظبت على إلقاء الحطب في النار، فقد قرأت في مكان ما أن الحيوانات المفترسة لا تقترب منها. حاولت أن أبقي عيني مفتوحتين وأن أبقى متيقظة، لكن عينيّ بدأتا تغلقان رغماً عني، وكنت أحاول أن أفتحهما بقوة لئلا أغفو لكني لم أستطع الاستمرار فترةً طويلةً، فقلت لنفسي: "سأغلق

عيني حتى أريحهما لكني سأبقى متيقظةً"، لكن، كما يقولون، فإن النوم سلطانٌ، فقد غفوت وأنا جالسة في مكاني، وفجأةً سمعت صوت فاطمة تصرخ وتتلوى، فاستفقت مذعورةً وركضت إليها مسرعةً ورأيت أفعى سامةً تهرب من المكان، لقد لدغتها الأفعى في ساقها! كانت فاطمة تصرخ من الألم ومن الرعب وكان عليّ أن أفعل شيئاً، وللحظة وقفت مرتبكةً، ربما من خوفي عليها، وكأني أصبت بالشلل، فصرخت راجنا: "افعلي شيئاً ستموت، أرجوك".

جرحت ساق فاطمة بالخنجر وبدأت أضغط بجانب مكان اللدغة لأخرج السم والدم، ثم وضعت شفتي فوق مكان اللدغة وبدأت أمتص السم وأبصقه، وبعدها ربطت ساقها بشالي فوق الجرح وشددت الرباط حتى لا ينتشر ما تبقى من السم في جسمها، ثم أخرجت قطعة جمرٍ من النار وقلت لفاطمة: "هذا سوف يؤلمك، هل ستتحملين؟" فأومأت برأسها، عندها قلت لراجنا: "أمسكيها جيداً"، فأمسكت أمها بها ووضعت الجمر الملتهب مباشرةً فوق الجرح، فصرخت فاطمة وأغمي عليها، وخرج من الجرح دخان ورائحة جلدٍ محترق. كانت اللحظة فوق احتمال المسكينة وفوق احتمالي، فقد كنت أداويها ودموعي تنزل على وجهي، وبعدها رحت وراجنا نبكي وقد رأيت جسدها الصغير المكوم في حضن أمها التي كانت تهزها برفق كأنها تحاول أن تجعلها تنام.

قلت لراجنا: "ربما من الجيد أنه قد أغمي عليها، فهي لم تكن لتحتمل كل هذا الألم، وسنحاول العودة إلى آخر قريةٍ مررنا بها مع أول ضوءٍ للنهار".

لم ننم ما بقي من ساعات الليل، فقد كنا في غاية القلق والخوف على فاطمة التي كانت تئن أنيناً متواصلاً. ومع أول ضوءٍ حملت راجنا فاطمة وبدأنا نركض عائدين إلى القرية، كنت حين تتعب راجنا أحملها أنا ولم نتوقف للراحة، ومع ذلك خيل إلي أن الطرق قد امتدت إلى ما لا نهاية. وأخيراً وجدنا بيتاً صغيراً عند حافة حقل ورأينا سيدةً تنشل ماءً من بئرٍ وتضعه في جرةٍ نحاسيةٍ بجانبها، نادت

عليها راجنا عن بعدٍ فاقتربت المرأة، وشرحت لها راجنا الأمر بينما كنت أحمل فاطمة وأهمس في أذنها بألا تخاف: "ها قد وصلنا، سنجد لك مساعدةً، لا تخافي يا حبيبتي".

فتحت المرأة باب بيتها بسرعةٍ وأشارت لي أن أدخل، فوضعت فاطمة على فراشٍ على أرض غرفةٍ متواضعةٍ وطلبت ماءً، نقطت منه عدة نقاطٍ فوق شفتي فاطمة وطلبت من راجنا أن تترجم للمرأة ما أقوله تماماً، وشرحت لها عن بعض الأعشاب التي لا بد أن تكون متوفرةً في منطقةٍ حارةٍ كهذه، فهزت المرأة رأسها وخرجت وعادت بعد قليل ومعها بعض الأعشاب، فغليت بعضها وصرت أنقط منها في فم فاطمة، وطحنت الجزء الآخر ووضعته فوق الجرح، وبقيت بجانبها أمسح العرق الذي كان ينزل بغزارةٍ من جبينها.

حكت راجنا للمرأة قصتنا منذ أن غادرنا السفينة وحتى سرقنا الحراس، وقد بدا على وجه المرأة تعاطفٌ شديدٌ وأحضرت لنا بعض الطعام الذي أكلنا القليل منه. في ساعات بعد الظهر بدأت فاطمة تهذي من الحمى وبدأت أحس بالقلق الشديد عليها، فسألت المرأة إن كان هناك طبيبٌ في الجوار، لكنها أخبرتنا بأنه لا يوجد أطباء سوى في المدينة وهي بعيدةٌ، خرجت إلى الساحة أمام البيت أفكر فيما يجب أن أفعله، نظرت إلى الأشجار التي كانت تنمو حول الساحة ثم حانت مني التفاتةٌ فوجدت نوعاً من النباتات المتسلقة التي كنت قد رأيت صورة أوراقها في أحد الكتب، فتذكرتها تماماً لأنها كانت قد لفتت نظري وقتها لشكلها الغريب، وتذكرت ما كان يقوله الكتاب لكثرة ما جعلتني أمي أردد الوصفات في الكتب، فصرخت: "وجدتها!"

خرجت راجنا على صوتي وقد وجدتني قطعت بعض الأوراق وبدأت أمضغها، فأعطيتها منها وطلبت منها أن تمضغها دون أن تبتلعها لأنها سامةٌ، وضعنا الورق الممضوغ فوق الجرح الذي كان قد بدأ يشكل طبقةً صفراء، وبقيت راجنا إلى

جانب فاطمة التي ظلت تهذي وهي بين الصحو والنوم. خرجت وجلست في الساحة أحاول أن أتذكر إن كان هناك شيءٌ يمكن أن أفعله لأنقذها، وبعد فترة أحسست يداً على كتفي، كانت راجنا تمسك كتفي وتطلب مني أن أتبعها، فتبعتها ووجدت فاطمة تجلس في الفراش تحاول الابتسام برغم الألم، فأمسكت راجنا بيدي وقالت: "لقد نجحنا! الحمد لله، أنت أروع طبيبةٍ عرفتها في حياتي"، وبدأت تقبّل يدي. سحبت يدي من يدها واقتربت من فاطمة وأحسست جبينها فوجدت أن حرارتها قد انخفضت قليلاً. كانت لا تزال تتألم، وكان منظر ساقها مكان اللدغة مخيفاً، ولكن ما زال من المبكر معرفة ما إذا كانت قد تخلصت من السم تماماً أم لا. كنت ما زلت خائفةً عليها ولم أستطع النوم تلك الليلة، كنت أتابع تنفسها لئلا يحدث لها شيءٌ أثناء نومها، لكن عندما جاء الصباح كان وضعها قد تحسن وجعلناها، برغم رفضها، تأكل القليل من الطعام، عندها أحسست براحةٍ شديدةٍ بعد أن اطمأن قلبي إلى أن الخطر قد زال.

جاءت المرأة التي استضافتنا وقالت شيئاً لراجنا وكانت تشير إلي، فقالت راجنا:

"هناك جارةٌ للسيدة تقول إن زوجها مريضٌ وتريدك أن تعالجيه".

فقلت: "لكني لست حقاً طبيبة".

فقالت: "تقول المرأة إنه إذا أمكنك علاج لدغة أفعى سامةٍ فإنك تستطيعين مساعدة زوجها".

قلت لها: "حسناً، قولي لها أن تأخذني إليه".

كان الرجل نائماً في الفراش، وللوهلة الأولى شككت أن يكون مرضه مرض أمي نفسه، فحاولت أن أسأله بالإشارة إن كان هناك دمٌ يخرج مع السعال أشار لي بالنفي، فأحسست ببعض الراحة، وبعد أن نظرت إليه جيداً وتفرست في عينيه كما علمتني أمي التي كانت تقول: "راقبي العينين مهما كان مكان العلة في

الجسد"، فأشرت إلى الزوجة أن تتبعني وطلبت إلى راجنا أن تترجم ما أصفه، كما رسمت على التراب شكل العشبة التي أريدهم أن يستعملوها.

كانت صحة فاطمة تتحسن وصارت تستطيع الخروج إلى الساحة بمساعدة أمها، لكنها ما زالت لا تستطيع أن تضغط على قدمها لأن الضغط كان يؤلم ساقها، إلا أن اللون بدأ يعود إلى وجهها.

كانت المرأة التي استضافتنا تتلقى هدايا بسيطةً مقابل خدماتي لأهل القرية، بعضهم يحضر بيضاً وبعضهم يحضر قليلاً من القمح. بعد أن استطاعت فاطمة أن تمشي بشكل أفضل وصارت قادرةً على مواصلة الرحلة، شكرنا السيدة التي استضافتنا وقدمت لنا الطعام، وقد بدت آسفة على فراقنا لأن سيل الهدايا سوف يتوقف، لكنها على أية حالٍ أعطتنا صرةً مليئةً بالطعام.

سرنا في طريقنا نحو الغابة التي حاولنا أن نجتازها في النهار ونحن في حالة خوفٍ وتوجسٍّ، وكنا كلما سمعنا حركةً نتجمد في أماكننا خوفاً ورعباً من حيوانٍ مفترسٍ. لم نتوقف للراحة في الغابة، وتناوبنا على حمل فاطمة التي تعبت من السير، وكنا نتحدث همساً. كنا تقريباً نركض حتى لا يدركنا الظلام ونحن في الغابة، وأخيراً بدأت كثافة الأشجار تخف وبدأنا شيئاً فشيئاً نرى الأفق، ومشينا باتجاه الشمس الغاربة. بعد أن اجتزنا الغابة جلسنا قليلاً لنرتاح ونأكل ما وضعته لنا السيدة من طعام، وفجأةً سمعنا صوت حوافر خلفنا ورأينا مصباحاً على البعد، ثم عربةً يجرها اثنان من الخيول، فوقفت راجنا أمام الخيول التي فزعت من رؤيتها تقف أمامها فجأةً. كانت العربة من تلك العربات التي يستعملها المزارعون لنقل منتوجاتهم، فصرخ عليها الحوذي: "هل أنت مجنونةٌ؟ لقد أفزعت الخيل!" فحكت له راجنا عن وضعنا وطلبت منه أن ينقلنا في عربته إلى أي مكانٍ بعيدٍ عن الغابة، وأشارت إلي أن أحضر فاطمة وأن نصعد إلى العربة. صعدنا إلى العربة

الفارغة ومشى بنا الرجل، ولما سألت راجنا ماذا قال الرجل فقالت: "سيضعنا الليلة في بيته".

وصلنا بعد وقتٍ قليلٍ إلى بيتٍ أكثر تواضعاً من بيت السيدة التي كنا عندها، وقدمنا الرجل إلى زوجته التي رحبت بنا وكان الاثنان عجوزين يعيشان وحدهما، وقدما لنا بعض الطعام، وقامت راجنا بترجمة الحديث فقالت: "إنه يعمل لدى مهراجا المنطقة، يأخذ مع العمال الآخرين المنتوجات الزراعية ويوصلونها إلى القرى، كل عاملٍ له عدة قرىً يبيع المنتوجات فيها".

حكت له راجنا قصتنا باختصار وسألته إن كان يستطيع أن يوصلنا بعربته إلى قريتها، فاعتذر العجوز بلطفٍ وأسفٍ قائلاً إنه لا يستطيع التصرف بالعربة، وأنه إذا انتبه رئيس العمال لغيابه فسوف يخبر المهراجا الذي حتماً سيطرده من عمله ومن بيته، فطلبت من راجنا أن تترجم: "لا عليك، شكراً لأنك سمحت لنا بالمبيت عندكم ومشاركتكم طعامكم"، ثم طلبت إليه أن يحدثنا عن المهراجا فقال: "إنه عادلٌ لكنه صارمٌ جداً مع العمال الذين يعملون لديه، وله قصرٌ كبيرٌ وابنةٌ متزوجةٌ في المدينة وابنٌ يعمل معه في مزارعه الكثيرة، والابن متزوجٌ وله عدة أولادٍ ويسكن في القصر مع والديه".

سألت: "وزوجة المهراجا؟"

فقال وقد بان بعض الانزعاج على وجهه: "أما هذه فقصةٌ أخرى، إنها سيدةٌ متسلطةٌ وسليطة اللسان، تكره كل شيءٍ حتى نفسها، دائمة الشكوى وتتمارض لتحصل على اهتمام زوجها، يحاول الجميع تجنبها حتى زوجها الذي يقضي معظم وقته مسافراً ربما هرباً منها، وتمضي كل وقتها في النوم والتبرج، وإن بقي لديها وقتٌ فإنها تتسلى بتعذيب الخادمات".

فسألته: "وماذا أيضاً؟"

بان على وجهه الاستغراب لاهتمامي بزوجة المهراجا، فقال: "أنا لم أرها قط ولم يرها أحدٌ من الفلاحين، لكن قصصها يتداولها الجميع، فهي مثار سخريةٍ للكل، تحب الحفلات والاستعراض أمام صديقاتها اللواتي لا أستطيع أن أقول أنهن حقاً صديقاتٌ بقدر ما هن متطفلاتٌ. أتعرفين يا سيدتي، يقال إن حفلةً واحدةً من حفلاتها تكفي لتطعم كل أهالي القرية لمدة أسبوع"، وسكت كأنه يحاول أن يتذكر ثم قال: "ويقال يا سيدتي أنّ المهراجا تزوجها لأموال أبيها، فهذه الأراضي الشاسعة لها".

سرحت بفكري، ربما تستطيع زوجة المهراجا أن تساعدنا فقلتُ: "نعم هذا جميل"، فنظر الجميع إلي باستغرابٍ وقالت راجنا: "وما هو الجميل في ذلك؟"

فقلت لها: "إن شاء الله ستعودين إلى قريتك في عربةٍ فاخرةٍ".

قالت: "وكيف ذلك ونحن لا نملك سوى الملابس التي على أجسادنا؟"

قلت للرجل: "هل لك أن تأخذنا غداً إلى بيت المهراجا؟"

وفي اليوم التالي حاولت أن أحسن من هندامي ما استطعت وذهبنا إلى بيت المهراجا، قلت لراجنا أن تقول للخادمة التي فتحت لنا الباب بأن تخبر سيدتها صاحبة القصر أن هناك سيدةً عربيةً بالباب تعالج كافة الأمراض بالأعشاب وترجع العجوز صبية، ثم قلت لها: "أنتما مساعدتاي، افعلا ما آمركما به، اتفقنا؟" فابتسمت راجنا وانحنت لي باحترام. عادت الخادمة بعد قليلٍ وطلبت إلينا الدخول. كان القصر على فخامةٍ لا توصف، السقوف والجدران من خشبٍ محفورٍ، والثريات الثمينة والسجاد الفاخر والستائر الحريرية، كل شيء يدل على ثراءٍ فاحشٍ وذوقٍ رديءٍ، فالأثاث كان فخماً ووثيراً لكنه كان مكتظاً بشكلٍ يسبب الاختناق. قادتنا الخادمة إلى الحديقة فإذا بنا في قطعةٍ من الجنة، العشب الأخضر يغطي الأرض والأزهار في كل مكانٍ تبث روائح ترد الروح للجسد الميت،

والأشجار التي تحيط بالمكان خضراء بأزهى ما تكون. كانت السيدة ممددةً على مقعدٍ وثيرٍ وإحدى الخادمات تحرك مروحةً فوق رأسها، رأيت أن السيدة بدينةٌ جداً، حتى أن أطراف جسدها كانت تتدلى على جانبي المقعد، وعندما اقتربت منها وجدتها في غاية القبح، امرأةٌ في الخمسينيات، وجهٌ سمينٌ كثير التبرج، والكثير الكثير من الذهب في عنقها ومعصميها وأذنيها وكاحليها، وتساءلت كيف يمكن لها أن تحمل مثل هذه الأثقال وكيف تتحرك بها. اقتربنا منها، فنظرت إلينا بتمعنٍ من أقدامنا إلى رؤوسنا، ثم استقر نظرها فوق وجهي وقالت شيئاً ترجمته راجنا: "إنها تسأل إن كنت أنت السيدة العربية"، فاقتربت من السيدة بثقةٍ لم أكن أحس بها حقاً، ونظرت إليها كما ينظر الطبيب إلى المريض وطلبت إلى راجنا أن تترجم: "يا إلهي، لم أر في حياتي مثل هذا الجمال وهذه الرقة وهذه الفخامة والعظمة!" فبدا على وجه راجنا أنها ستنفجر من الضحك، فقلت لها: "أمسكي نفسك وترجمي حرفياً ما أقول"، ولما فعلت ابتسمت السيدة ابتسامةً عريضةً وطلبت إليَّ الجلوس إلى جانبها وقالت: "وهل حقاً تعالجين الأمراض بالأعشاب وتردين الشباب؟"

فقلت: "نعم، ولكني أرى أن السيدة لا تحتاجني".

فقالت: "كيف لا أحتاجك؟"

"إن السيدة ما زالت في مقتبل العمر وبصحةٍ جيدةٍ، أنا أرد الشباب للعجائز يا سيدتي".

فاتسعت ابتسامتها وبانت كل أسنانها وقالت: "إنك تتحدثين جيداً"، وعندما ترجمت راجنا ما قالته أضافت: "وتكذبين جيداً"، ثم تابعت ما تقوله السيدة: "إن بي أمراضاً كثيرةً وزوجي لا يهتم بي، لا أحد يهتم بي ويحس بآلامي الفظيعة، لا يحضر لي زوجي الأطباء، يا له من ناكرٍ للجميل! إنني أعاني الكثير".

فقلت: "وهل هذا معقولٌ؟ هذا الجمال والعظمة تعاني! هذا لا يصح، لا بد أن نفعل شيئاً".

فقالت بطريقة جعلتني أشفق عليها: "هل تستطيعين مساعدتي؟"

فقلت وقد أحسست أن السيدة أصبحت طوعي: "سأفحص حالتك، لكن الآن أحتاج إلى بعض الأشياء".

قالت: "اطلبي أي شيءٍ".

فقلت بلهجةٍ آمرةٍ لم أعتد عليها: "لقد سرق اللصوص ملابسي ومتاعي، أريد أن أستحم وأريد ملابس نظيفةً، وغرفةً لي وأخرى لمساعدتيّ".

فقالت: "أنا تحت أمرك، هل هناك شيءٌ آخر؟"

فقلت لها وأنا ما زلت أتحدث بنفس اللهجة: "سأطلب ما أحتاجه عندما أحتاجه".

نادت خادمتها ذات المروحة خادمةً أخرى، وقبل أن أتبع الخادمة قلت للسيدة: "بعد أن أستحم وأرتاح قليلاً سأفحص وضعك".

كانت الغرفتان متلاصقتين، وكانتا فعلاً من أجمل وأفخم ما رأيت، وستائرهما وملاءات الأسرة من الحرير. حضرت لي الخادمة حوض الاستحمام ووضعت فيه ماءً ساخناً ومعطراً تطفو فوقه بتلات الورد، وبعد أن استحممت وجدت سارياً من الحرير الزهري على السرير ساعدتني راجنا في ارتدائه بلفه فوق جسدي، وكانت هي الأخرى وفاطمة تلبسان ساريين جديدين.

قالت راجنا وهي تلف طيات الساري حول جسدي: "ما الذي فعلته؟ كيف سنخرج من هذه الورطة؟ كيف ستردين الشباب إلى هذه المرأة القبيحة

والبدينة؟ أرى أن نهرب الآن قبل أن ينكشف أمرنا و..."، وقبل أن تكمل كلامها دخلت خادمتان تحملان صينيةً عليها أصناف الطعام فأكلنا، وكانت فاطمة أكثرنا سعادة، وبعد أن غسلنا أيدينا في طستٍ نحاسيٍّ مملوءٍ بالماء المعطر قلت لراجنا: "هيا إلى العمل يا صديقتي".

قالت: "وماذا سنفعل الآن؟"

فقلت لها: "سنعيد الشباب للسيدة"، وضحكنا.

كانت زوجة المهراجا بانتظارنا في غرفةٍ واسعةٍ يكسو أرضها السجاد وتكسو حيطانها صورٌ لرجالٍ بعماماتٍ ملونةٍ لها أطرافٌ طويلةٌ، وكان للرجال فيها شوارب تصل إلى الأذنين. قالت السيدة عندما رأتني أتفحص الصور: "أجدادي، إنني أنحدر من عائلة مهراجاتٍ منذ القدم".

كانت تجلس على مقعدٍ وثيرٍ والخادمة نفسها تحرك مروحةً فوق رأسها، وقالت: "أرجو أن تكون قد أعجبتك الغرفة".

فقلت لها: "لا بأس بها".

قالت بنوعٍ من الرجاء: "ألن تفحصيني الآن؟"

فاتخذت طابعاً جدياً وضعت يدي فوق جبينها، ثم فوق قلبها بعد أن تمكنت من الوصول إلى تلك المنطقة بين طيات لحمها وقد كدت أختنق من عطرها، وقلت بجدية: "هم...!"

فقالت: "ماذا؟ ماذا؟"

وضعت يدي فوق يدها، ثم أمسكت برسغها وأحسست النبض وأغمضت عيني، ثم طلبت إليها أن تفتح فاها لأنظر إلى حلقها، فقالت: "ماذا؟ ماذا بي؟"

فقلت لراجنا أن تقول للسيدة ألا تتكلم أثناء الفحص.

في الحقيقة كنت مستمتعةً جداً بهذه العملية وبالغت في تفقد السيدة التي صبرت كثيراً، فأشفقت عليها وسألتها: "الآن قولي لي ما هي الآلام التي تشكين منها؟"

فقالت: "آه، لا أعرف من أين أبدأ؟ إنني أتعب بسرعةٍ عندما أمشي، وظهري يؤلمني باستمرار، الحقيقة أنني متعبةٌ دائماً، يا لهذه الحياة التعيسة! هل تستطيعين مساعدتي؟"

فقلت لها بجديةٍ وحزنٍ، وكانت راجنا تكاد لا تستطيع أن تمسك نفسها من الانفجار في الضحك: "هممم! أما علاجك فأقدر عليه، لكنني لا أعتقد أنني أستطيع القيام بذلك".

"لا أفهم، لماذا؟ قلت أنك تقدرين على علاجي!"

"نعم، لكن يا سيدتي إن علاجي قاسٍ جداً ولا أعتقد أنك تستطيعين اتباعه".

"أرجوك، إن الآلام تقتلني، سأحاول أن أتبع العلاج".

"أنا طبيبةٌ صارمةٌ جداً وأحب أن تتبع أوامري بدقة".

"سأتبع كل أوامرك، أرجوك".

"سيكون قاسياً عليك وسيأخذ مدةً من الزمن ولن تتحملي، وإن لم تتبعي أوامري سأغادر القصر".

فقالت برجاء: "أعدك".

وعندما خرجنا من الغرفة قالت راجنا: "وكيف ستعالجين السيدة؟ إننا حقاً في ورطة!"

فقلت لها: "اسمعي يا صديقتي، إن آلام السيدة وكل ما تشكو منه هو بسبب البدانة والملل، فإن تمكنا من أن نخفف بعض الأرطال من اللحم والشحم المتكوم فوق جسدها ستقوى ساقاها على حملها، أما الملل فسنعطيها قضيةً تشغل نفسها بها".

أعطيت الأوامر للطاهي أن يقدم للسيدة خضاراً مسلوقةً فقط دون أرزٍ وبكمياتٍ قليلةٍ، وعندما ذاقت السيدة طعامها صرخت باحتجاجٍ: "ما هذا الطّعام الذي آكله؟ أحضروا الطباخ سوف أعاقبه".

قلت لها: "إنها أوامري، هل هناك اعتراض؟"

فسكتت المسكينة وأكلت طعامها بانزعاجٍ لكن بصمت.

بعد أن خففت كميات الطعام التي تلتهمها السيدة بدأت أطلب إليها أن تسير حول الحديقة مرتين في اليوم، وكانت حديقةً كبيرةً.

في اليوم الأول بدأت بالاحتجاج: "ما هذا العلاج؟ إن ساقاي لا تحملاني وأنت تريدينني أن أسير كل هذه المسافة! لم أسر مثل هذه المسافة طوال حياتي!"

لكني رمقتها بنظرةٍ جعلتها تقول: "حسناً، سأمشي، سأمشي، سأمشي".

كنت أعطيها قبل كل وجبةٍ شراباً من الأعشاب ليخفف شهيتها للأكل، وآخر للتقوية، وبعد مدةٍ صارت تعتاد على الكمية القليلة من الطعام وصارت أكثر قدرةً على المشي، لكن مزاجها أصبح حاداً وعنيفاً، فقلت لها ذات مساءٍ: "إن كان علاجي لا يناسبك عودي إلى نظامك السابق، لكني لن أحتمل معاملتك السيئة ومزاجك، خاصة مع الخدم!"

"لكنهم خدم!"

فقلت: "هم أناسٌ أيضاً، وإن كنت في مزاجٍ سيءٍ عليك بالمشي، لكن لا أريد أن أراك تصرخين على الخدم".

بعد فترةٍ صارت السيدة تمشي بنشاطٍ أكبر، وبدأ الألم في ساقيها وظهرها يخف تدريجياً، وبدأت طبقات الشحم المتكومة فوق جسدها تقل، بل بدأت أرى بعض خطوط جسدها بعد أن كانت كتلةً لحميةً واحدةً، فقلت لها ذات مساءٍ: "عندما يعود المهراجا من سفره لن يعرفك".

ففرحت وقالت: "حقاً! هل هذا صحيح؟"

فقلت لها: "طبعاً، ألا تشعرين بالفرق؟ عندما أنتهي منك ستركضين كالغزالة".

فصفقت بيديها وقالت: "وسأقيم حفلةً كبيرةً وأدعو إليها كل صديقاتي، سيمتن من الغيرة!"

فقلت لها: "سيمتن من الغيرة؟" ثم سألتها: "أخبريني يا سيدتي الجميلة، ماذا تفعلين في أوقات فراغك غير النوم والأكل؟"

"وماذا يمكنني أن أفعل؟"

فقلت: "متى زرت الحقول آخر مرةٍ وألقيت التحية على الفلاحين؟"

فقالت باستهجان: "أنا أزور الحقول؟ أنا ألقي التحية على الفلاحين؟ هل جننت؟ أنا ابنة مهراجا!"

فقلت لها لأخفف ثورتها: "هل ستقولين لي أن أحداً لم ير هذا الجمال سوى زوجك وخدم القصر؟"

فقالت بمرارةٍ: "إن زوجي لا يراني!" وبدأت تشكو من إهمال زوجها لها وعدم اهتمامه بها:

فقلت لها لأغير الموضوع: "سأحكي لك قصة".

"نعم، نعم، أحب الحكايات، فهي تسليني كثيراً".

قلت: "كانت في بلادي سيدةٌ غنيةٌ جداً تملك من الأموال ما لا يحصى، ولها من الحقول والأراضي ما لا ترى نهايته العين، كانت هذه السيدة طيبةً جداً، مثلك تماماً، وكانت تعطف على الصغير والكبير، كانت تزور الفلاحين في الحقول وتقدم لهم الطعام بيديها، وفي الأعياد تقدم لهم الهدايا والأثواب الجديدة".

فعلقت السيدة قائلة: "يا لها من مسرفة تبذر أموالها على الفلاحين!"

فرمقتها بنظرةٍ جعلتها تنكمش في مكانها وتابعت: "كان الفلاحون يحبون السيدة كثيراً، وعندما ماتت لم يبكها أحدٌ كما بكاها الفلاحون، وصار قبرها من كثرة ما زرعوا الزهور حوله حديقةً غنّاء، وأصبح الفلاحون يزورون قبرها كل يومٍ. لقد ماتت السيدة منذ أعوامٍ طويلةٍ، لكن ما زال الناس يذكرونها ويزورون قبرها ويدعون لها في صلواتهم حتى اليوم".

لم تعلق السيدة بشيءٍ، لكنها بقيت غارقةً في التفكير فتركتها تتأمل وحدها.

في اليوم التالي نادت علي الخادمة وقالت إن سيدتها تنتظرني في العربة، وجدت السيدة تجلس بكل بهائها وثرائها وقالت لي: "هيا، سنزور الحقول اليوم، ما رأيك؟"

فقلت في نفسي "عجباً"، وقلت لها: "حقاً! إن هذا شيءٌ جميلٌ!"

وصلنا إلى الحقول وتوقف الفلاحون عن عملهم يرقبون وعلى وجوههم ذهول، فهم لم يروا السيدة تذهب إلى هناك قبل الآن، ولا بد أنهم لم يروا السيدة قط، فوضعوا أيديهم متلاصقة كفوفها تحت ذقونهم على طريقتهم في التحية وانحنوا باحترامٍ وقليلٍ من التوجس، ذلك أنهم سمعوا عن أخلاق السيدة ومزاجها السيء

فظنوا أن سبب زيارتها له معانٍ سيئة. وقفت العربة لكن السيدة لم تخرج، بقيت جالسةً تلوح بيديها كما يفعل الملوك، وكان منظرها مضحكاً للغاية حتى لكزتني راجنا أن أراقب تعابير وجهها، ثم أشارت السيدة للخادمة فنزلت وبدأت تخرج صرر طعامٍ من عربةٍ كانت خلفنا وتوزعها على الفلاحين، كان الفلاحون يتقدمون من العربة بخوفٍ، يتناول أحدهم صرة الطعام ويقدم التحية للسيدة ويتراجع، حتى قالت السيدة فجأةً: "لقد تعبت كثيراً والطقس حارٌ هنا وكثير الغبار، هيا لنعُد"، فلم أعترض، لا أريد أن أبالغ في أول زيارةٍ لها، فعدنا إلى القصر، ونظرت خلفي فكان بعض الفلاحين ما زالوا يراقبون العربة وعلى وجوههم ابتساماتٌ حائرةٌ.

كنت قد بدأت أفهم اللغة قليلاً، وساعدتني راجنا كثيراً وصرت أستطيع التحدث بها ولكن ليس بطلاقةٍ، إلا أني صرت أستطيع أن أعبر عن نفسي في غالب الأحيان. وذات صباحٍ كنت أمشي مع السيدة في الحديقة وقد صارت خطواتها أكثر سرعةً وجسدها أكثر رشاقةً، توقفت السيدة عن السير فجأةً وقالت: "يا إلهي! ما تاريخ هذا اليوم؟"

فقلت: "لا أعرف"، وبدأت أحسب في ذهني ثم قلت: "إنه السابع من أيار! يا إلهي، السفينة!"

قالت: "أية سفينةٍ؟ عن ماذا تتحدثين؟ إن زوجي وابني سيعودان اليوم ويجب أن أعد نفسي"، وتركتني وعادت مسرعةً إلى القصر.

وقفت مكاني وأنا في غاية الحزن: "لقد مضى على وجودي في هذا القصر قرابة شهرٍ ونصفٍ، وعشرة أيامٍ أخرى في بيت العجوز ويومان في الطريق، يا إلهي! لقد سافرت اللؤلؤة منذ خمسةٍ وعشرين يوماً، كيف لم أنتبه للوقت؟"

ناديت راجنا: "لقد فات موعد السفينة العائدة إلى عدن، لقد مضى أكثر من شهرٍ

ونصفٍ ونحن في هذا القصر، أعتقد أنه آن الأوان لأن نرحل".

فقالت: "نرحل؟ ولم العجلة؟ لقد مضت السفينة".

فقلت لها: "أنا أعرف أنك تؤخرين عودتك لأنك تخافين ألا تجدي أهلك، لكن عليك أن تواجهي ذلك على أية حال"، وقلت لها: "اسمعي، لن نستطيع البقاء في هذا القصر إلى الأبد، والمهراجا سيعود اليوم وقد لا يعجبه وجودنا".

فقالت: "أنت على حقٍّ، يجب أن أواجه مصيري عاجلاً أو آجلاً، ولا جدوى من إطالة الوقت".

فقلت لها: "سنطلب الإذن غداً بالمغادرة من السيدة ونطلب إليها عربةً تقلنا".

فقالت: "ستأتين معي أليس كذلك؟ لقد وعدتني".

"سآتي معك".

وفي المساء كان هناك هرجٌ ومرجٌ وجلبةٌ، فقد عاد المهراجا وابنه وحدثت حركةٌ كبيرةٌ في القصر فبقيت في غرفتي، وفي المساء جاءت الخادمة تطلب إلينا الحضور، فالمهراجا يريد أن يرانا. سرنا خلف الخادمة وقد كنت في حالة توجسٍّ شديدةٍ، أدخلتنا إلى قاعة الطعام الكبرى، وهي غرفةٌ لم نأكل فيها من قبل، فقد كنا نتناول الطعام في الحديقة مع السيدة، كانت الغرفة ضخمة الحجم وفي وسطها طاولةٌ منخفضةٌ حولها مقاعد فاخرةٌ، يغطي جدرانها وسقفها خشبٌ محفورٌ وستائر من الحرير، ولم تكن مكتظةً بالأثاث كبقية غرف القصر، تجعل المرء يحس بالراحة فيها، وكانت رائحة بخورٍ تنبعث من مكانٍ ما. كان المهراجا يلبس ملابس حريرية: سترةً من الحرير الذهبي وعلى صدره قلادةٌ ذهبيةٌ ضخمةٌ، وفي أذنيه قرطان كبيران وعلى رأسه عمامةٌ عليها بعض الريش ومرتبةٌ ترتيبًا أنيقًا ، وكان شارباه ضخمين يصلان إلى أذنيه، وكانت هيئة ابنه شبيهة بهيئته.

أشار إلي المهراجا بيدٍ يلبس في كل إصبعٍ فيها خاتماً ذهبياً بأن أجلس، جلست إلى جانب الزوجة وجلست راجنا التي كانت مرتبكةً على بعد.

قال المهراجا: «يسرني التعرف إليك يا سيدتي».

فقلت له بلغته: «هذا الشرف لي يا سيدي المهراجا».

فقال بابتسامةٍ: «ما هذه الأعجوبة التي فعلتها بزوجتي، كدت لا أعرفها!»

لم أفهم كلمة أعجوبة فاقتربت راجنا وهمست في أذني معناها فقلت: «إن هذه الأعجوبة من صنع السيدة، أنا لم أفعل شيئاً»، فابتسمت السيدة بفخر.

قال: «وكيف أقنعتها أن تذهب إلى الحقل؟ هذه حقاً معجزة!»

فقلت: «إن السيدة طيبة، وهي التي أرادت أن تساعد الفلاحين».

ابتسم المهراجا ثم أشار بأن نبدأ الطعام، فأكلنا بصمتٍ وكان يتبادل الحديث مع ابنه حول العمل. بعد أن انتهينا من العشاء أشار المهراجا للخدم أن يرفعوا الطعام وأحضروا الأوعية المليئة بالماء الدافئ المعطر، ثم قال: «أريد أن أتحدث إلى السيدة، اتركونا وحدنا»، فقام الابن والزوجة وبقيت راجنا، فأشار لها أن تخرج أيضاً واتجه إلي قائلاً: «ستتدبرين أمورك من دونها».

جلست قبالته بصمتٍ أنتظر أن يبدأ الكلام، فقال: «والآن احكي لي قصتك، لقد فهمت أنك ظهرت على باب القصر فجأة».

فحكيت له بلغتي البسيطة المليئة بالأخطاء عن السفينة التي غرقت في بحر الأندلس والقافلة وعدن وسرقة متاعنا».

استمع إلي بصمتٍ ولم يقاطعني سوى مرتين يستوضح بعض الأشياء التي لم أعبر عنها جيداً بلغتي المتواضعة، وقال: «هذه حقاً قصةٌ مؤثرة»، وسكت، ثم قال:

إنني أعيش مع زوجتي منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وهذه هي المرة الأولى التي لم تشك فيها من شيءٍ، هذه حقاً معجزة»، فابتسمت ولم أجب.

فسأل: «والآن ماذا تريدين أن تفعلي، تستطيعين البقاء هنا وتبعدي تلك المتذمرة عني».

فضحكت وقلت له: «إن السيدة فعلاً طيبةٌ لكنها تحتاج إلى كثير من الاهتمام. إن سمح لي سيدي سأغادر في الغد، أريد أن أطمئن أن راجنا قد وصلت إلى قريتها بأمان».

فقال: «ألا أستطيع إقناعك أن تغيري رأيك؟»

«لقد وجدت هنا كل الطيبة والكرم، لكن آن الأوان يا سيدي المهراجا أن أتابع طريقي».

«حسناً، سآمر بتحضير العربة وأوفر حراسةً لك، وأعدك أنهم لن يسرقوك هذه المرة، فهم من حرسي الخاص». شكرته على لطفه وخرجت.

في الصباح التالي كانت العربة جاهزةً ومحملةً بالكثير من الهدايا وصناديق مليئةٍ بالأشياء الثمينة. ودعتني السيدة عند العربة وضمتني إليها حتى كدت أختنق من عناقها ومن عطرها، وكانت تبكي فقلت لها: «أرجو أن تتابعي ما بدأته وألا تتكاسلي عن ذلك فتعود الآلام ثانية».

فقالت: «أعدك، أعدك» .

ركبنا العربة، فجاءت خادمةٌ تركض وقالت وهي لاهثة: «هذا من سيدي المهراجا»، وكان كيساً من النقود الذهبية. انطلقت العربة يسوقها حصانان وحولنا أربعة حراس يلبسون الملابس الخاصة وعليها إشارة المهراجا، أما المهراجا نفسه فلم أره. وسرنا باتجاه الشرق حيث قرية راجنا.

أسئلة الجزء الثاني عشر

1. ما الهدف من سفر قمر إلى الهند؟
2. لماذا تغير ملفوفة ولم يعد قرصاناً؟
3. كيف تعرفت قمر على الطفلة فاطمة وأمها راجنا؟
4. لماذا وافقت قمر على دعوة راجنا؟
5. ما المهلة التي أعطاها عنفرة لقمر حتى تعود إلى السفينة من قرية راجنا؟
6. أمّن عنفرة وسيلة الركوب والحراس؟ ماذا كانت وسيلة الركوب؟ وماذا فعل الحراس؟
7. كيف نجت فاطمة من لدغة الأفعى؟
8. كيف استطاعت أن تجد هي وراجنا وفاطمة مكاناً في بيت إحدى الفلاحات؟
9. كيف استطاعت دخول بيت المهراجا؟
10. كانت زوجة المهراجا تشكو من البدانة والملل، كيف عالجتها قمر؟
11. قررت قمر وراجنا متابعة السفر. كيف ساعدهما المهراجا؟

الجزء الثالث عشر

نهاية المطاف

عندما اقتربنا من أراضي المهراجا التي يسكن عندها أهل راجنا، أمسكت راجنا بيدي وكانت خائفةً جداً وكانت يداها باردتين، فقلت لها: «ما بك؟ لقد وصلت إلى ديارك!»

فقالت: «لا أعرف إن كانوا هنا، لا أعرف ماذا ينتظرني، لقد غبت اثنتي عشرة سنة!»

رأتنا سيدةٌ تعمل في طرف الحقل ورفعت ظهرها ونظرت إلينا، ثم استقر نظرها على وجه راجنا وتأملتها بعمقٍ، فوضعت يدها على فمها وصرخت: «راجنا! راجنا، لقد عادت!»، وبدأت تركض باتجاه وسط الحقل.

كنا نسير وراءها بالعربة ببطءٍ وكانت راجنا تضم فاطمة إليها كأنها تحتمي بها من المجهول وتتمتم، لا بد أنها كانت تتلو سورةً ما. كانت المرأة تخبر كل من تراه في طريقها من الفلاحين بعودة راجنا فيتوقفون عن العمل وينظرون ويهمسون: «راجنا عادت!»

وقفت العربة وسط الحقل وترجلت راجنا وأمسكت بيد فاطمة، نظرت حولها فاقتربت منها امرأةٌ وضمتها: «راجنا، لقد عدت!»

فسألتها راجنا التي كانت تبكي من شدة الانفعال: «كيف حالك يا خالة؟ هل...؟» ولم تكمل، فقد أجهشت بالبكاء.

فقالت لها المرأة: «نعم، نعم، إنهم هنا».

بعد قليلٍ صار حولنا جمعٌ من الناس يسلمون على راجنا ويرمقونني بنظرات

الفضول حيث كنت أقف بجانب العربة، ثم جاء رجلٌ عجوزٌ ابتعد الناس له، وقف أمامها والدموع على خديه ثم اقترب منها وضمها إلى صدره وقال: «راجنا، ابنتي، لقد عدت!»

نزلت راجنا إلى الأرض لتقبّل قدميه وتبدي الاحترام كما هي العادة، فرفعها أبوها، ثم جاءت أمها، وهي عجوزٌ أيضاً ويبدو على وجهها التعب، ركضت إلى راجنا وضمتها وقبلتها بشدة، فنزلت راجنا إلى الأرض ثانية لتقدم الاحترام بتقبيل قدمي أمها، فرفعتها أمها وضمتها من جديد.

قالت راجنا مشيرةً إلى فاطمة التي كانت تقف وراءها ودموعها أيضاً تنزل: «هذه ابنتي فاطمة، وهذه...»، وقبل أن تكمل جملتها هجم العجوزان على فاطمة يضمانها ويقبلانها والدموع تغمر وجهيهما، فنظرت راجنا إلي كأنها تعتذر لي فابتسمت لها. وبعد قليلٍ جاء إخوتها وأخواتها وأولادهم، وكان مشهداً مؤثراً جداً، وكان الجميع، بمن فيهم أنا، يبكون بشدة.

قال رجلٌ يقف بين الجموع: «اذهبوا إلى بيتكم، لا بد أن لديكم أشياء كثيرة لتتحدثوا به»، ونظر إلى راجنا التي احمر وجهها حين رأته.

«أهلاً بعودتك يا راجنا».

فقال أبوها: «لكن، العمل...!»

فقال الرجل: «اذهبوا، اذهبوا، سنقوم نحن بالعمل»، واستدار، فذهب البقية معه بعد أن ألقوا التحية، وركبنا نحن في العربة مع أمها وأبيها ومشى الباقون خلفنا.

كان بيتهم متواضعاً جداً، دخلنا أولاً ساحةً أرضها ترابيةٌ لكن نظيفةٌ، في وسطها بئرٌ كما في بيت العجوز التي استضافتنا والشيخ الذي أخذنا بعربته، والبيت من

الداخل مكونٌ من غرفتين وسقيفةٍ تستعمل كمطبخ. جلسنا على الأرض، وكانت راجنا ما زالت تبكي، فأمسكت بيدي وبيد فاطمة وقالت: «لقد عدت، حقاً لقد عدت!»

ثم قالت لأهلها عندما تحلقوا حولنا: «هذه صديقتي قمر من بلاد العرب، لقد أنقذت حياتي وحياة فاطمة»، فرحب الجميع بي بعد أن ظننت أنهم نسوا وجودي لانشغالهم بابنتهم وحفيدتهم، ثم قالت: «لقد كنت خائفةً من ألا أجدكم، أعني أن ابن المهراجا قد...».

فقال أحد الإخوة: «لقد مات ابن المهراجا بعد أن رحلت بيومين، سقط عن حصانه ودقت عنقه ومات ولم يعرف المهراجا بقصتك معه، لو انتظرت قليلاً...».

فقاطعته راجنا: «لو انتظرت قليلاً، لقتلني «.

فقالت الأم: «حدثينا ماذا حدث معك طوال هذه السنوات».

استغرقت راجنا وقتاً طويلاً وهي تحدثهم عن قصة هربها وعملها خادمة وزواجها، وكانت تبكي وتضحك في نفس الوقت، وبعد أن انتهت أخيراً عند قصة المهراجا وزوجته البدينة ضحك الجميع، وعندها ركضت راجنا إلى العربة في الخارج وعادت بعدة صررٍ وصناديق من الهدايا التي أعطتنا إياها زوجة المهراجا وبدأت توزعها على الجميع. وفي المساء كان هناك احتفالٌ حقيقيٌّ ورقص الجميع وغنوا فرحاً بعودتها. جاء الرجل الذي التقانا في الحقل فاحمر وجه راجنا ثانيةً، وقدرت أنه ربما كانت هناك في الماضي قصة ما.

أما فاطمة فرغم أنها كانت تفهم اللغة التي علمتها إياها أمها لكنها كانت لا تزال تحس بغربةٍ فالتصقت بي، وفي اليوم التالي اكتشفت بناتاً وأولاداً في مثل عمرها وأصغر قليلاً، من أبناء خالاتها وأخوالها، فانطلقت تلعب كأية طفلةٍ

تحتاج إلى من هم في مثل عمرها، وشاهدتها من الباب وهي تري الأولاد والبنات المدهوشين أثر لدغة الأفعى في ساقها.

بقيت مع راجنا وفاطمة أسبوعاً، ثم قلت لها أنه قد آن أوان الرحيل، فبكت وسألتني إلى أين سأذهب، فقلت: «إلى بلادي، الميناء ليس بعيداً عن هنا، سأذهب وأجد سفينةً تتجه إلى عدن ومنها سأخرج في قافلةٍ إلى فلسطين. أعتقد أنه آن الأوان لي كي أعود إلى أهلي أيضاً».

فقالت: «لن أراك بعد الآن، أليس كذلك؟»

فقلت لها: «سأكون دائماً معك».

«أعتقد أنه لا فائدة من محاولة إقناعك بالبقاء».

«ها قد قلتها، لا فائدة، لكني سأحملك وفاطمة في قلبي أينما ذهبت».

اقتسمت معها المال الذي أعطانا إياه المهراجا وودعت العائلة الطيبة وراجنا وفاطمة التي تعلقت بي رافضةً أن تتركني، وكان وداعاً مليئاً بالدموع، كم أكره الوداع! لماذا عليّ دائماً أن أودع الذين أحبهم؟

ركبت العربة والتفتُّ إلى الخلف ورأيت من بين دموعي راجنا وفاطمة وأهلها يلوحون لي، ثم عدلت من جلستي وقلت في نفسي: «هذه رحلةٌ جديدةٌ، من يعلم؟»

وصلت إلى مدينة مدراس الكبيرة واستأجرت غرفةً في الخان واستلقيت على السرير، استغرقت الرحلة ثلاثة أيامٍ دون أية مشاكل أو صعوباتٍ، وعندما وصلت إلى الخان صرفت العربة والحراس وطلبت منهم أن يحملوا شكري وامتناني للمهراجا وزوجته.

الآن انتهى عهد المغامرات، سأعود إلى وطني، فقد أثّرت عودة راجنا إلى أهلها قد أثرت في كثيراً وصرت أتخيل شمس وأولادها يستقبلونني بالدموع، انتهيت من الركض والسفر والترحال، سأعود أخيراً إلى الوطن، ثم أحسست بتلك الوخزة المؤلمة في قلبي وقد تذكرت أحمد ونجمة: «يا رب اجعلهما سالمين أينما كانا، يا رب سامحني لقد تعبت من البحث».

في صباح اليوم التالي سألت عن السفن، فقيل لي إن هناك سفينةً ستبحر بعد ثلاثة أيامٍ إلى عدن فأخذت لي مكاناً فيها ودفعت للقبطان ثمن القمرة، وعدت لأتعرف المدينة. كانت كبيرةً وجميلةً وفيها من الأسواق والبضائع ما لا يخطر على بالٍ، ذكرتني كثيراً بطنجة واستغرقت يومين لأتعرف جزءًا منها. في اليوم الثالث ذهبت للركوب في السفينة، وقبل أن أصعد لفت نظري في مقدمتها حوريةٌ عملاقةٌ من الخشب لها جسم سمكةٍ ورأس امرأةٍ جميلةٍ يغطي شعرها كل صدرها، كانت في غاية الروعة والإتقان وكأنها على وشك أن تنفلت من مقدمة السفينة لتنطلق إلى البحر، لا بد أني وقفت طويلاً أتأملها، فقد سمعت البحارة ينادون: «المسافرون إلى الأعلى، المسافرون إلى الأعلى، ستبحر السفينة»، فصعدت على السلم المتأرجح إلى ظهرها، وبعد فترة وجيزة رفعت المرساة وفكت الحبال وبدأت السفينة تبحر، وقفت قليلاً على حافتها ونظرت إلى الميناء وقلت بصوتٍ هامسٍ: «الوداع يا راجنا، الوداع يا فاطمة، أتمنى لكما حياةً سعيدةً»، ثم ذهبت إلى قمرتي واستلقيت على الفراش وغفوت.

استيقظت على صوت طرقٍ على الباب، ففتحته ووجدت امرأة تقول: «إن مولاتي الأميرة تدعوك إلى مائدتها لتناول العشاء، أرجوك ألا تتأخري».

فقلت لها وأنا ما زلت تحت تأثير النوم: «الأميرة؟ أية أميرة؟»

قالت: «مولاتي الأميرة «هاتا»، أميرة جزيرة سيلان، وهي على متن السفينة وتدعوك إلى العشاء على مائدتها».

فقلت لها: «حسناً، اشكري سمو الأميرة وأخبريها أنه يشرفني أن أتعشى على مائدتها».

استحممت وبدلت ملابسي، وكنت بالمصادفة قد وجدت في مدراس حانوتاً يبيع ملابس كالتي أرتديها في العادة، ففرحت كثيراً لأني بالرغم من وجودي في الهند قرابة شهرين إلا أنني لم أتعود ولم أتقن لف الساري كما تفعل راجنا بالرغم من كل محاولاتها في تعليمي، فعدت إلى لباسي العربي وخرجت إلى ظاهر السفينة وسألت أول بحارٍ رأيته إن كان يعرف أين قمرة الأميرة فأشار لي، نزلت الدرج مرةً أخرى ولم تكن قمرتها بعيدةً جداً عن قمرتي، طرقت الباب ففتحت لي نفس المرأة وأدخلتني. في الحقيقة لم تكن غرفتها تماماً في مثل حجم غرفتي، كانت واسعةً وفيها فراشٌ وثيرٌ، فشعرت وكأنني في غرفة قصرٍ حقيقية. قالت الأميرة بالهندية لكن بلكنةٍ قوية: «أهلاً بك وشكراً لأنك لبيت دعوتي، تفضلي بالجلوس».

جلست على المقعد الذي أشارت إليه. كانت الأميرة في مثل عمري تقريباً، وكانت في غاية الجمال والبهاء. قالت بعد أن انتهت من دراسةٍ معمقةٍ لشكلي: «لا بد أنك استغربت دعوتي!»

فقلت: «في الحقيقة...».

لكنها تابعت: «أنا لا أحب أن أتناول الطعام وحدي، لذلك سألت القبطان إن كانت هناك سيداتٌ محترماتٌ على ظهر السفينة، فاقترح علي أن أدعوك».

فقلت بأدب: «هذا شرفٌ لي يا سيدتي».

قالت: «الآن سنتناول الطعام وبعدها نتحدث»، وصفقت بيديها فبدأ الخدم يدخلون بصمتٍ ويصفون الأطباق على المنضدة الفضية أمامنا، بدأنا نأكل، وكانت الأميرة خلال الطعام تتحدث عن مدراس وجمالها وحوانيتها وأشياء

أخرى، وكنت أنا أثناء ذلك أؤكد ما تقوله بأدب الضيف. وبعد أن انتهينا صفقت للخدم فأخذوا أطباق الطعام وأحضرت خادمتان وعائي الماء المعطر ومنديلين معطرين، ثم دخل الخدم ثانيةً ومعهم أنواعٌ مختلفةٌ من الفاكهة وضعوها على المنضدة وذهبوا.

بقيت المرأة التي فتحت الباب لي، فقد كانت تجلس بجانب قدمي الأميرة كالقط رهن إشارتها، فذكرتني كثيراً بالجارية مواهب، جارية نور الهدى، بجلستها هذه.

التفتت إلي الأميرة وقالت: «الآن حدثيني عن نفسك».

بوغت من الطريقة المباشرة في السؤال وقلت: «في الحقيقة ليس لدي الكثير لأقوله».

فقالت بمرحٍ: «هيا، كل إنسانٍ له قصةٌ، وحياة كل إنسانٍ حكايةٌ».

فقلت: «لا أعرف ما الذي سأقوله يا سيدتي، إنني مسافرةٌ من مدراس إلى عدن».

فقالت: «هذه بدايةٌ جيدةٌ، واضحٌ من لباسك أنك عربيةٌ، ماذا تفعل امرأةٌ عربيةٌ تسافر وحدها؟ هيا، هيا، لا بد أن وراء ذلك حكايةً مسليةً وأنا أحب الحكايات».

فحكيت لها عن راجنا وعن رحلتنا، وعندما حكيت لها عن زوجة المهراجا ضحكت كثيراً حتى كادت تختنق، فصبت لها خادمتها الماء.

قالت: «هذه حقاً حكايةٌ مسليةٌ جداً»، ثم نظرت إلي بجديةٍ وهي ما تزال تمسح دموعها، جديةٍ لا تتناسب مع الموقف: «هل حقاً تعالجين بالأعشاب، أم كانت تلك بدعةً لإقناع زوجة المهراجا؟»

فقلت وقد أحسست أنني ورطت نفسي: «في الحقيقة أنا أعرف القليل عن الأعشاب».

فتأملتني برهةً وكأنها تراني بعينٍ مختلفةٍ وسألت: «وكيف تعلمت؟»

فقلت: «من الكتب».

قالت باستغرابٍ: «وهل تقرئين».

«نعم».

قالت: «هذا شيءٌ جميلٌ، لقد بدأ والدي يعلمني القراءة لكنني كنت كسولةً وسريعة الملل فنفض يديه مني، أما زوجي فإنه يقضي الساعات في القراءة»، ثم قالت بجديةٍ مرةً أخرى: «وهل تعالجين كل الأمراض بالأعشاب؟»

فقلت: «ليس كلها، هناك كثير من الأمراض التي لا أستطيع علاجها بالأعشاب أو بغيرها».

فقالت وقد بدا الاهتمام الشديد على وجهها: «مثل ماذا؟»

قلت: «لا أعرف! أعني هناك كثير من الأمراض العادية التي يمكن علاجها بالأعشاب، وهناك أشياء لم يعرف لها علاجٌ بعد، وأنا لست...».

لكنها قاطعتني بسرعة: «العقم، هل تعالجين العقم؟»

«العقم؟»

قالت: «نعم، نعم، العقم».

فقلت: «والله يا سيدتي لا أعرف تماماً، لقد سمعت عن عشبةٍ تساعد في الإخصاب، لكن لم تواجهني مشكلةٌ مثل هذه من قبل، أعني لم أحاول البحث عن هذه العشبة ولا أدري بالقطع إن كانت نافعةً، أذكر أنها مرت في أحد الكتب ولكني...».

فقالت بلهفةٍ: «ما هي؟ ما اسمها؟ أين توجد؟»

فقلت: «والله يا سيدتي لا أذكر الآن، لقد مضت مدةٌ طويلةٌ ولا أستطيع التذكر».

فقالت: «هيا تذكري»، ثم لا حظت أنها كانت قاسيةً نوعاً ما، وأن لهجتها كانت آمرةً أكثر مما يجب، فقالت: «أعني، هل لك أن تتذكري؟»

تأملت وجهها الجميل وقد بدا عليه القلق والحزن، ومع ذلك رأيت في عينيها بعض الأمل، «يا إلهي ما الذي أوقعت نفسي فيه؟»

«كم مضى على زواجك يا سيدتي؟»

فقالت: « سنوات مرّت وأنا أحاول أن أنجب طفلاً يناديني أمي...!» وأسلمت نفسها للبكاء، ثم عادت تقول: «هل تعرفين كم هو مؤلمٌ ألا يكون لك طفلٌ تلاعبينه وتضحكين معه؟ لماذا لا أرزق بطفلٍ ككل النساء؟ لماذا يكون هذا الأمر طبيعياً لديهن وأحرم أنا منه؟ أريد طفلاً واحداً فقط يناديني أمي!»

فقلت لها وقد بدأت بالبكاء أيضاً: «هناك أشياء تؤلم أكثر، أن يكون لك طفلٌ تلاعبينه وتضحكين معه ويناديك أمي، ثم تفقدينه!» وبكيت، بكيت طويلاً وأنا أذكر نجمة ومرحها وضحكتها وضمتها وعناق يديها الصغيرتين.

قدمت لي الأميرة كأس ماءٍ، وبعد فترة صمتٍ طويلةٍ كنت مازلت أبكي وأمسح دموعي ولم أستطع أن أجبر نفسي على التوقف، فقالت الأميرة بصوتٍ متعاطفٍ: «لا بد أن في حياتك مأساةً! احكي لي...».

حكيت لها عن أحمد ونجمة وكيف فقدتهما، فانفجرنا نحن الاثنتان معاً في البكاء، وبعد فترةٍ قلت لها: «أستأذنك يا سيدتي، لكني أريد العودة إلى قمرتي».

فقالت: «تفضلي، لكن أرجوك، أن تساعديني، تذكري تلك الأعشاب»، ولكني عدت إلى غرفتي راكضةً باكيةً.

قضيت اليوم التالي بصحبة الأميرة هاتا التي كانت في غاية المرح، وحكت لي عن حياتها وزواجها من الأمير الذي كان مخلصاً لها ولم يتزوج بغيرها، ولكنه كما قالت: «بدأ يبدو عليه الحزن، ولا بد أنه يتساءل من سيرث الإمارة من بعده، وأنا لا أستطيع أن أمنحه طفلاً!»

قلت لها: «لكن هناك كثيراً من النساء اللواتي لا يلدن، هذه ليست نهاية العالم».

فقالت بحدةٍ: «بل هي نهاية العالم بالنسبة لي، وأنت آخر أملٍ في الحياة، فأنا أحاول الإنجاب منذ أن تزوجت قبل أربعة عشر عاماً، هذا كثيرٌ علي ولم أعد أحتمل!»

فقلت لها: «هذه مسؤوليةٌ كبيرةٌ قد لا أستطيع تحملها».

أصبحت ضيفةً دائمةً على مائدة الأميرة، تحدثنا في كل شيءٍ وفي كل مرةٍ كان الحديث يعود بنا إلى موضوع الأعشاب.

في اليوم الرابع قالت: «غداً سترسو السفينة في جزيرتنا، تعالي معي، لدى زوجي مكتبةٌ كبيرةٌ في القصر وقد تجدين كتاباً يساعدك على تذكر الأعشاب»، وتابعت برجاء: «تعالي معي، وإن ساعدتني فسآمر بسفينةٍ خاصةٍ لك تحملك إلى عدن»، ثم قالت بتنهيدةٍ حزينةٍ: «لا تعرفين كم أتمنى أن أمنح زوجي طفلاً».

فقلت وقد سلمت أمري لله: «أستطيع أن أتصور ذلك يا سيدتي».

فقالت: «سأمنحك جواهر وأموالاً لم تري مثلها».

فقلت لها وقد شعرت بالإهانة: «سيدتي، إن كنت سأساعدك فلأنك أصبحت

صديقتي، وليس طمعاً في جواهر وأموال».

قالت: «أنا آسفة لم أقصد إهانتك، لكني يائسةٌ وأنت أملي الأخير!»

في اليوم الخامس وصلنا إلى جزيرتها واقتربت السفينة من الميناء، فأمسكت الأميرة بيدي وقالت: «ها هو زوجي هناك هل ترينه؟ ذلك الذي يلبس عمامةً خضراء، وأخذت تلوح له بمنديلها. نزلنا إلى الشاطئ وسلمت عليه بحرارةٍ، ثم قالت له: «هذه صديقتي قمر من بلاد العرب، ستكون ضيفتنا لبعض الوقت»، فانحنى الأمير لي وقال بعربيةٍ سليمةٍ: «أهلاً وسهلاً بك في جزيرتنا».

فوجئت، فابتسمت الأميرة وقالت: «ألم أقل لك إنه رجلٌ رائعٌ!»

فضحك الأمير وقادها إلى العربة ثم انحنى لي ثانيةً وقال: «تفضلي يا سيدتي».

انطلقت بنا العربة، وأثناء الطريق حدثت الأميرة زوجها عن رحلتها إلى مدراس وكيف التقت بي، وهو ينظر إلي تارةً وإليها تارةً أخرى، حتى وصلنا إلى القصر، فاتجهت الأميرة إلى الخدم المصطفين أمام القصر وألقت عليهم التحية وبعض الأوامر، ثم قادتني خادمةٌ إلى غرفتي. كنت ما زلت أتأمل أثاث الغرفة الجميل عندما طرق الباب وأحضرت خادمتان متاعي. ارتحت قليلاً وبدلت ملابسي، فجاءت خادمةٌ تدعوني إلى الطعام على مائدة الأمير والأميرة. كانت الأميرة متألقةً جداً وقت ارتاحت من عناء السفر.

قال الأمير موجهاً كلامه لي: «لقد أخبرتني زوجتي قليلاً عنك، لا بد أنك مررت بتجارب شائقةٍ في حياتك!»

فقلت: «لا أستطيع أن أسميها شائقةً، فقد لاقيت من المصاعب ما يكفي لثلاث حياواتٍ أخرى!»

فأحس أنني لا أريد إطالة الحديث في الموضوع، فسأل: «وهل أنت حقاً خبيرةٌ بالأعشاب؟»

فقلت: «بعض الشيء، لكني أحتاج إلى تنشيط ذاكرتي».

فقال: «إن مكتبتي تحت أمرك، تستطيعين أن تستعمليها وقت تشائين».

فسألته: «إن لم يكن هذا تطفلاً، ولكن كيف تعلمت العربية، وبهذا الإتقان؟»

فقال: «لا، أبداً، هذا ليس تطفلاً يا سيدتي، كان والدي محباً للعلم والقراءة وعندما كبرت قليلاً بدأ يعلمني ثم أرسلني إلى بغداد، وهناك قضيت خمس سنواتٍ من العلم والدراسة، فبلادكم يا سيدتي هي مركز العلم والمعرفة، وقد عدت إلى وطني أيضاً محملاً بالكتب، لكن من أي بلدٍ أنت؟»

فقلت: «من فلسطين حيث القدس».

فقال: «آه، القدس! لقد سمعت كثيراً عنها».

وسار الحديث من موضوعٍ إلى آخر، نتحدث قليلاً بالعربية ونترجم ما قلناه بالهندية، وقد بدا الضيق يظهر على وجه الأميرة فقلت للأمير: «من الأفضل أن نتحدث بالهندية كي لا تشعر الأميرة بالملل».

في الصباح التالي توجهت إلى المكتبة، كانت كبيرةً حقًا، فبدأت أتفحص الكتب بالعربية، والحق أنها كانت مصنفةً تصنيفًا مرتبًا جدًا، فكل لغةٍ تحتل مكاناً، وكل موضوعٍ كتب باللغة نفسها له مكانٌ خاصٌ، صرت أتفحص وأقلب الكتب وأبحث بين أوراقها عن الأعشاب والطب، كنت قد قرأت بعضها فيما مضى فأحسست بالحنين إلى الوطن، وإلى زمنٍ كنت أعيش فيه بهدوءٍ بين الكتب. حانت مني التفاتةٌ إلى رفٍّ في الأعلى وحافة حمراء لكتابٍ، فبدأ قلبي يدق بسرعةٍ... هل يمكن؟ مددت يدي وأمسكت بالكتاب، إنه هو، كتاب «الرحلات العجيبة»، لا

أصدق! هذا كتابٌ صاحبني في كل رحلاتي وضاع مني في البحر حين غرقت قاهرة البحار، صرت أقلب صفحاته وأبكي وأبتسم في ذات الوقت كمن التقى بصديقٍ قديمٍ، ثم سمعت سعلةً خفيفةً، ولم أكن قد انتبهت إلى دخول الأمير إلى الحجرة، التفت لأجده قد جلس على أحد المقاعد وهو ينظر إلي بابتسامةٍ، فقلت: «لم أنتبه لوجودك يا سيدي».

فقال: «لا عليك، هل وجدت شيئاً؟» قال وهو ينظر إلى كتاب العجائب في يدي، فقلت: «إنه كتابٌ عزيزٌ، وقد ضاعت نسختي منه عندما...».

«أقصد الأعشاب».

«لقد كانت هناك عشبةٌ في ذهني ولا أتذكر اسمها، لكني ما زلت أحاول»، ثم قلت لأتحلل من الموقف المحرج: «لديك مكتبةٌ رائعةٌ هنا!»

فقال: «نعم، سنواتٌ طويلةٌ قضاها والدي وأنا من بعده نجمع الكتب»، ثم أشار إلى كتاب الرحلات وقال: «لقد أحضرت هذا الكتاب من أحد حوانيت بغداد، وقد قال لي الوراق أنه لم ينسخ منه سوى خمس نسخ، أرى أنك حصلت على واحدةٍ منها».

«في الحقيقة لي قصةٌ طويلةٌ معه».

«وأنا لدي وقتٌ، وستجدينني مستمعاً جيداً، هل نتمشى في الحديقة؟»

وقبل أن نخرج نظر إلي وابتسم وأشار إلى أنفه فلم أفهم، فقال: «أنفك ملطخ».

مسحت أنفي بمنديلٍ وقد صار وجهي أحمر، فقلت محرجةً: «إنه الحبر، عندما تمر فترةٌ طويلةٌ يصبح الحبر...».

فقال: «لا بأس، لا بأس، هل نمشي؟»

فسألته: «أين الأميرة؟»

فقال: «إنها تأخذ قيلولة».

بدأنا نمشي في الحديقة فقال الأمير: «والآن، ما قصتك مع هذا الكتاب؟»

فقلت له: «وهل الأمير مستعدٌّ لسماع قصةٍ طويلةٍ؟»

فقال: «ستجدينني كلي آذانٌ صاغيةٌ».

فبدأت أحكي له قصتي من بدايتها في القرية حتى وصلت إلى الجزء الذي التقيت فيه مع الأميرة: «والبقية تعرفها يا سيدي».

صمت الأمير، وبقي وقتاً ينظر إلى العشب تحت قدميه، ثم قال: «يا إلهي! كل هذا مررت به؟ لا أعرف ماذا أقول سوى أنني أتمنى لك من كل قلبي أن تجدي الراحة والهدوء».

تحدثنا عن أشياء كثيرة، عن العرب وعلومهم وعن الكتب، كنا نتحدث كصديقين قديمين ولم ننتبه إلى الوقت يمر، حتى جاءت خادمةٌ مسرعة وقالت: «إن مولاتي تدعوكما للطعام».

كانت الأميرة تنتظرنا في قاعة الطعام ويبدو على وجهها الغضب، فقال الأمير مداعباً: «من أغضب زوجة الأمير سأقطع رأسه».

فقالت بابتسامةٍ حردةٍ: «وهل يستطيع الأمير أن يقطع رأس نفسه؟ لقد تركتني وحيدةً كل هذا الصباح!»

فقال: «أنا آسف وأعتذر، لكن أخذنا الكلام ولم ننتبه، هل تسامحينني؟»

وقبل يدها فقالت: «حسناً، سأسامحك هذه المرة».

بدأ الأمير يقضي أوقاتاً أطول معي، ويأتي إلى المكتبة ونجلس هناك ساعاتٍ نتحدث عن كل شيءٍ، ولم يفت الأميرة ذلك وصارت تمر بثورات غضبٍ، وفي بعض الأحيان ترفض أن تتناول الطعام، فقلت للأمير وقد بدأت أقدر أن ثورات غضب الأميرة سببها الغيرة: «الأفضل ألا نلتقي ونتحادث كثيراً، فالأميرة غاضبة».

قال: «إنها تعرف أنني لن أتخلى عنها، وأنا متشوقٌ جداً للحديث مع إنسانةٍ خارقةٍ مثلك، وبصراحةٍ بدأت أنزعج من غيرتها!»

صرت أتفادى رؤية الأمير ولا أذهب إلى المكتبة سوى لأخذ بعض الكتب وقراءتها في غرفتي، وصرت أحاول ألا أكون في مكانٍ واحدٍ معه، حتى كنت أدعي المرض كلما أرسل خادمةً للسؤال عني. وأخيراً، وبعد أن قاربت من اليأس وجدت العشبة مرسومةً بوضوحٍ في صفحات أحد الكتب، وعرفت مكان وجودها واسمها، فذهبت راكضةً إلى الأميرة وقلت لها بفرحٍ وأنا أفتح الكتاب: «لقد وجدتها، وجدت العشبة وأعتقد أنه يمكن الحصول عليها بسهولة، انظري ها هي!»

فنظرت الأميرة إلى الكتاب بفتورٍ وقالت: «هذا جيدٌ، سأطلب من طبيبي الخاص أن يحضرها».

الآن وقد انتهت مهمتي يجب أن أغادر هذا المكان، خاصة وأنني بدأت أشعر أنه لم يعد مرحباً بي من قبل الأميرة ، وبقيت تعاملني بفتورٍ، إن لم أقل بنفورٍ أيضاً، وتقضي الساعات في غرفتها مدعيةً المرض، وقد حاول الأمير مراراً أن يشرح لها وأن يصالحها ولكن عبثاً، فهي لم تكن تريد أن تستمع إلى حججه.

ذات صباحٍ كنت قد عزمت على أن أخبر الأميرة عن نيتي في السفر، وقد وجدت فعلاً سفينةً ستتوقف في الجزيرة ليومٍ واحدٍ وتتابع السفر إلى عدن. جاءتني خادمة الأميرة وقالت إن الأميرة تحب أن تتنزه معي في المدينة.

«هذا شرفٌ لي، وأخبري الأميرة أنني سعيدةٌ جداً بتحسن صحتها»، وعزمت على أن أنتهز فرصة خروجنا لأخبرها بنيتي في السفر بعد يومين. عندما نزلت الأميرة من غرفتها كانت في غاية الإشراق وقد استعادت حيويتها ومرحها، ففرحت لأنني استعدت صديقةً افتقدتها بسبب سوء فهمٍ، وقلت لها: «إنني سعيدةٌ جداً أنك عدت إلى مرحك وحيويتك وسعيدةٌ برؤيتك، لقد افتقدتك كثيراً».

فأمسكت يدي بمرح وقالت: «هيا نتنزه قليلاً في المدينة».

ركبنا العربة، وكانت الأميرة طوال الطريق تثرثر وتشرح لي عن أشياء كثيرةٍ كنا نمر بها، ولم تترك لي مجالاً لأن أتحدث معها وأخبرها بقرار السفر، بقيت تثرثر في كل الأشياء والمواضيع وكأنها تريد أن تعوض لي ما فاتني منها خلال الأسبوعين الماضيين. وصلنا إلى سوقٍ مليءٍ بالحوانيت، كان أصغر بكثيرٍ من سوق مدراس لكنه كان أكثر ترتيباً ونظافة، كان السوق حافلاً بالأشياء الجميلة والمتنوعة وكان كل شيءٍ له قسمه الخاص في السوق، حتى الأسماك لها زاويةٌ، حيث يقف كل بائعي الأسماك في مكانٍ واحدٍ ولا يسمح لهم أن يبيعوا أسماكهم في أماكن أخرى، وكذلك بائعو الخضار والأقمشة والتوابل.

قالت الأميرة: «كانت هذه فكرتي، أليست رائعةً! كنت أشتري الحرير برائحة السمك فيما مضى، أليس هذا رائعاً!»

كانت تتحدث وتتحدث، ثم وقفت أمام حانوت الأقمشة والتفتت إلى خادمتها التي كانت تمشي خلفنا وأعطتها إشارةً بيدها ظانة أني لم أنتبه، فافترضت أنها تريد من الخادمة أن تشتري بعض الحرائر لي كمفاجأة، وتابعنا السير في حين تأخرت الخادمة خلفنا، وبقيت الأميرة تثرثر وتشير إلى الأشياء وتشرح لي أسماءها، ثم فجأةً ظهرت أمامنا امرأةٌ كانت تلبس ملابس متسخةً جداً وعليها كثير من البقع، فاقتربت مني وكانت عباءتها تغطي كل وجهها وجسدها وقالت شيئاً لم

أفهمه، ثم فجأةً ألصقت المرأة وجهها بوجهي فأبعدتها عني بعنفٍ، فابتعدت وغطت وجهها مرةً ثانيةً، فانتبهت إلى يدها التي كانت مغطاةً ببثورٍ بيضاء وإلى أحد أصابعها الذي كان مقطوعاً، ابتعدت المرأة واختفت تماماً كما ظهرت.

أخذت أمسح وجهي بمنديلي وسألت الأميرة: «وماذا كان كل هذا؟»

فقالت: «هذه امرأة تشحذ، لا تعيرها اهتماماً، آسفة لأنها أزعجتك».

فقلت وأنا ما زلت أمسح وجهي: «نعم، أنا بخير، لكنها فاجأتني! أهكذا يطلبون الصدقة في بلادكم؟»

فقالت: «لا، لا، أبداً، إن تصرفها حقاً لغريب، أنا آسفةٌ، هل نعود إلى القصر؟»

في طريق العودة ظهرت الخادمة وسرنا إلى العربة، ولكن الأميرة كانت قد توقفت عن الثرثرة وأخذت تتكلم بشكلٍ مقتضبٍ ومختصرٍ وكأن ليس بها رغبةٌ في الكلام، فعزوت ذلك ربما إلى إحساسها بالإحراج من تصرف المرأة الغريب، وقررت أنه ربما الوقت الأنسب لأحكي لها عن سفري.

«هناك سفينةٌ ستمر من هنا بعد الغد متجهةً إلى عدن، وقد قررت أن أغادر معها عائدةً إلى بلادي».

شهقت الأميرة ووضعت يدها على فمها ونظرت إلى الخادمة التي كانت تجلس إلى جانبها وتستمع إلى كلامي، المسكينة لقد حزنت لأنها ستفارقني، فقلت لها: «أرجوك لا تحزني، لقد اشتقت لبلادي وكنت قد نويت أن أبقى هنا فترةً قصيرةً فقط».

بدأت الأميرة بالبكاء فمددت يدي وأمسكت بيدها لكنها سحبتها بسرعةٍ فاجأتني، فقلت لها: «أرجوك لا تغضبي من سفري».

فقالت: «سوف أحزن لفراقك»، وبقيت صامتةً حتى وصلنا إلى القصر. في المساء أرسلت عشاءً فاخراً إلى غرفتي ولم أرها في اليوم التالي، وعندما سألت خادمتها قالت إن سيدتها متعبةٌ وتطلب العذر مني. في الصباح حمل الخدم حقائبي إلى العربة وكانت هناك عدة صناديق أخرى، فقدرت أنها هديةٌ من الأميرة، وعندما وصلت إلى العربة، وكان أول ضوءٍ للنهار قد بدأ ينبعث، رأيت الأمير بجانب العربة فبادرني: «هل تسمحين لي أن أصطحبك إلى السفينة؟»

فقلت له: «يشرفني ذلك أيها الأمير، لكن أين الأميرة؟ أريد أن أودعها».

قال: «لقد كانت متعبةً البارحة ولم تنم جيداً فتركتها نائمةً»، ثم استدرك: «كانت تود كثيراً أن تودعك، لكنها حقاً متعبة».

عذرتها و صعدت إلى العربة. قبل أن نصل إلى الميناء قدم لي شيئاً ملفوفاً بمنديلٍ حريريٍّ قائلاً: «أرجو أن تقبلي هذه الهدية مني».

فتحته فوجدت كتاب «الرحلات العجيبة»، فابتسمت له ابتسامةً فيها امتنان.

ودعني الأمير بحرارةٍ وشعرت أنني حقاً سأترك أخًا ودودًا، وقال: «إن جاءت بك الرياح إلى بلادنا تذكري أنك ستكونين دائماً على الرحب والسعة».

شكرته بحرارةٍ وصعدت إلى السفينة، وبقي واقفاً حتى ابتعدنا. دخلت إلى قمرتي واستلقيت على الفراش أفكر في موقف الأميرة الغريب، وأحاول أن أفهم ما الذي غيرها فجأةً عندما ذهبنا إلى السوق، ولماذا عادت إلى عبوسها ولماذا لم تودعني.

في الأيام الأولى لم أجد رغبةً في الصعود إلى سطح السفينة، لم يعد هناك شيءٌ يثير اهتمامي حقاً، ثم بعد ذلك بدأت أحس بتعبٍ لم أجد له سبباً، فعزوت ذلك ربما إلى بردٍ أصابني، فأجبرت نفسي على القيام وأخذت بعض الأعشاب إلى مطبخ السفينة وغليتها، وعندما عدت إلى غرفتي كنت في غاية الإرهاق، فاستلقيت

على السرير بعد أن شربت الأعشاب، وحاولت النوم مقنعةً نفسي بأنني عندما أصحو سأشعر بتحسن.

مر أسبوعان وأنا حبيسة الغرفة، وما زالت الحمى والتعب يغزوان جسدي والقشعريرة والآلام يسريان في كل مفاصلي وأعضائي، فبقي ظني بأنها حمى وستزول، حتى استفقت في صباح أحد الأيام على ألمٍ شديدٍ يشد مفاصلي، نظرت إلى يدي فوجدت بعض البقع، فأخذت أفكر في كل الأمراض التي تظهر أعراضها على شكل بقعٍ دون لونٍ ولها حوافٌ بيضاء، وفجأةً تذكرت المرأة في السوق، يا إلهي، إنه الجذام! وبدأت أمر بحالات النفي والتأكيد، لكن كل الأعراض تؤكد بأنه الجذام، ثم بدأت الصورة تتضح بشكلٍ فاجعٍ: لقد دبرت الأميرة أن ألتقي بالمرأة المصابة بالجذام لتنقل إلي العدوى وتتخلص مني! لا، هذا ليس معقولاً! لكني تذكرت التفاصيل بدقةٍ: كيف سحبت يدها بسرعةٍ من يدي أثناء عودتنا، وكيف اختفت ولم أرها بعد رحلة السوق، وكيف لم تودعني، يا إلهي! أيمكن أن يصل الإنسان إلى هذا الحد؟ هل وصلت بها الغيرة إلى أن تتخلص مني بهذه الطريقة البشعة؟ كان يمكن لها أن تطردني، أن تدسَّ السم في طعامي، كان يمكن... ولكن هذه الطريقة! أيمكن أن يصل الحقد بالإنسان إلى هذا الحد؟ يا له من انتقامٍ فظيعٍ!

«ماذا سأفعل الآن؟ عندما أصل إلى عدن سيكون الجذام قد انتشر في كل جسمي، سيتجنبني الناس ويهربون مني، لن يقترب مني أحدٌ! ماذا سأفعل؟»

وبقيت أفكر وأنا أبكي بحرقةٍ: «ما أبشع هذه النهاية، لن يسمح أي قائد قافلةٍ أن يحمل معه امرأةً مصابةً بالجذام، لن أستطيع الوصول إلى فلسطين، وإن عرف قبطان السفينة التي أركبها بالأمر سوف يرميني في البحر خوفاً من أن أنقل المرض إلى بقية المسافرين».

بعدها حزمت أمري وأرسلت رسالةً إلى القبطان أعلمه فيها بأنني سأنزل في أول جزيرةٍ سيتوقف فيها. توقفت السفينة في جزيرة ذيبة المهل[1]، وقفت على الشاطئ وحولي أمتعتي، أرقب السفينة وهي تبتعد وأودع كل أملٍ لي في العودة إلى بلادي: «هنا نهاية المطاف».

---

١ . ذيبة المهل: جزر المالديف.

أسئلة الجزء الثالث عشر

1. كانت راجنا تخشى من عدم وجود أهلها ومن غضب ابن المهراجا، ماذا كانت النتيجة؟
2. صف وداع راجنا وفاطمة لقمر.
3. أرادت قمر العودة إلى عدن من مدينة مدراس. صف بأسطر أهم معالم المدينة.
4. كيف التقت قمر بالأميرة؟ ولماذا؟
5. ما الدعوة التي وجهتها الأميرة إلى قمر؟
6. كانت الأميرة تبحث عن علاج؟ ما هو العلاج؟
7. صف مكتبة الأمير؟
8. لماذا قررت قمر مغادرة القصر؟
9. اصطحبت الأميرة قمر في جولة إلى السوق، وأعدت لها مكيدة. صف ما جرى لها.
10. ما الأعراض التي ظهرت على جلدها، وماذا خشيت؟
11. ما المفاجأة الجميلة التي صادفتها في عدن؟ وكيف حصل ذلك؟
12. بيّن عنصر الأمل والتفاؤل في حياة قمر على الرغم من الصعاب.
13. ما الكتاب الذي كانت تحمله قمر؟ وما أثره في حياتها؟

الجزء الرابع عشر

الطريق نحو الحياة

اشتريت بيتاً صغيراً مطلاً على البحر ووطنت نفسي بأني سأقضي ما بقي لي من العمر هنا. كنت أجلس على شرفته أو أتمشى على الشاطئ أفكر في حياتي وما ضاع مني، ثم قررت أن أعكف على كتابة ذكرياتي على الورق، ربما لأنني أردت أن أسلي وحدتي، وربما أردت استعادتها لحظةً بلحظةٍ، وأردت أن أعيشها مرةً أخرى، فبدأت بالكتابة.

كنت أكتب بسرعةٍ وأستعجل نفسي قبل أن أفقد الإحساس بيدي بسبب الجذام. بعد ثلاثة أشهرٍ فوجئت بأن المرض لم يستفحل وأن يدي ما زالتا بحالةٍ طبيعيةٍ، بل أخذت الأعراض التي كنت أحسها تختفي، واختفت كذلك الحبيبات التي ظهرت على يدي، هل أخطأت في تشخيص المرض؟ هل كان مرضي شيئاً عارضاً وظننته مخيفاً؟ أم أن هواء هذه الجزيرة الهادئة أعطاني هذا الوهم بأني أتعافى؟

كان ما أحس به حقيقةً، لقد بدأت الأعراض تختفي، بل أكاد أقول أنني تعافيت تماماً، هل أخطأت في اعتكافي هنا؟ هل أضعت وقتاً ثميناً؟ هل كان يجب علي الاستمرار في الرحلة إلى عدن؟

قررت الانتظار لفترةٍ ومراقبة ما يحدث لي، لكن بعد مرور ستة أشهرٍ على اعتكافي في هذه الجزيرة تعافيت تماماً وعادت صحتي وعافيتي دون أثرٍ لأي عارضٍ من عوارض المرض، إذن لم يكن ذلك هو الجذام بل كان شيئاً آخر وانتهى! الآن أستطيع مواصلة الرحلة إلى عدن.

ذهبت إلى الميناء وسألت عن السفن فقيل لي إنهم لا يعرفون للسفن مواعيد محددةً، فقد تأتي سفينةٌ ليومٍ تتزود بالماء والطعام وترحل فجأةً. أعطيت ولداً

مبلغاً من المال ووعدته بأكثر منه إذا جاء ليخبرني عندما تتوقف هناك سفينةٌ متجهةٌ إلى عدن، وعدت إلى بيتي ورتبت أشيائي ولملمت أوراقي وبقيت أنتظر. كان الانتظار قاسياً، فقد كان علي أن أكون جاهزةً للمغادرة في أية لحظةٍ، وهذه اللحظة قد تأتي بعد يومٍ أو شهرٍ أو أكثر. بعد ثلاثة أسابيع رأيت الولد يتجه راكضاً نحو البيت ويلوح لي بيديه الاثنتين، فحملنا الأمتعة وذهبنا إلى الميناء حيث وجدت فعلاً سفينةً متجهةً إلى عدن.

واظبت على الكتابة في السفينة لأشغل نفسي عن التفكير، وعندما أصل إلى عدن سأركب أول قافلةٍ متجهةٍ إلى فلسطين.

وصلت إلى عدن وكدت أنزل إلى الأرض وأقبلها، أخيراً انتهى عهد المغامرات! ذهبت إلى الخان الذي التقيت فيه عنفرة وسألت عنه، فقيل لي أن سفينته ستصل بعد ثلاثة أيام.

ذهبت إلى غرفتي ورحت في نومٍ عميقٍ حتى صباح اليوم التالي. استيقظت في الصباح وأنا أحس بالراحة، ونزلت لأسأل صاحب الخان إن كانت هناك قافلةٌ متجهةٌ إلى فلسطين في وقتٍ قريبٍ، فقال إن هناك واحدة ستغادر إلى الديار المقدسة للحج بعد ثلاثة أسابيع، ومن هناك أستطيع أن أركب أخرى متجهةً إلى فلسطين.

يا إلهي، ها هو الحج مرة أخرى! لقد مضى أكثر من عامٍ على غرق السفينة قاهرة البحار! وعدت لأحس ذلك الوخز المؤلم في القلب كلما تذكرت أحمد ونجمة.

قررت الخروج والتجول في المدينة وكانت عيناي ما تزالان مليئتين بالدموع، كنت أمسح عيني بمنديلٍ عندما وصلت إلى باب الخان، ولم أنتبه لرجلٍ كان يدخل إلى الخان لحظتها فكدت أصطدم به، ثم سمعت صوتاً مألوفاً وحبيباً يهتف: «قمر، قمر!»

نظرت إليه وتوقف قلبي عن النّبض، وبدأت الدنيا تدور بي: «أحمد!» وسقطت مغشياً علي من هول الصدمة.

استفقت من إغمائي لأجد نفسي ممددةً فوق سريري، كان أحمد زوجي ينظر إليّ بذهول، فأغمضت عيني ثانيةً: «يا له من حلم! لا أريد أن أستيقظ، أريد أن أرى أحمد ثانيةً»، لكن شيئاً ما في داخلي جعلني أحس أنها الحقيقة، ثم سمعت صوته الدافئ والحنون وشعرت بيده فوق جبيني يناديني: «قمر، قمر».

فتحت عيني ورأيته، إنه هو، أحمد بلحمه ودمه، فصرخت غير مصدقةٍ، هل هذا ممكن! لم أستطع أن أتركه خوفاً من أن يهرب مني ويضيع مرةً أخرى، وبقينا فترةً نبكي، ثم سألته: «لكن كيف وجدتني؟ هل؟ متى؟ نجمة، أين نجمة؟»

فقال: « اهدئي قليلاً» .

«أخبرني!»

فمسح بيده على وجهي وأمسك بيدي الاثنتين وقال: «عندما لم تعودي أثناء العاصفة خفنا عليك، فحاولنا الخروج أنا ونجمة الصباح إلى سطح السفينة لنبحث عنك، كانت السفينة تتأرجح بشدةٍ وتميل إلى جانبها فأيقنت أنها ستغرق، فأمسكت بنجمة وربطت يدها وقدميها بخشبةٍ كبيرةٍ لئلا تقع في البحر، ناديتك لكنك لم تردي، ثم رأيتك مغمىً عليك بجانب الصندوق فسحبتك وربطتك بخشبة الصارية، حاولت أن أساعدك لتعودي إلى وعيك لكن صراخ نجمة واستغاثتها جعلاني أحاول العودة إليها ثانية، حدث كل شيءٍ بسرعةٍ فظيعة، ولا أدري بعدها ماذا حدث، شيءٌ ما أوقعني في الماء ولا أذكر بعد ذلك شيئاً، عندما صحوت وجدت نفسي مرمياً على شاطئ ما لا أعرف أين ولا أتذكر أي شيء. حاولت أن أتذكر لاحقاً من أنا وماذا أفعل على هذا الشاطئ هكذا، ولكني لم أنجح، كان رأسي مليئاً بالضباب، وساعدني بعض الصيادين وبدأت أعمل معهم في

الصيد وأنا لا أذكر شيئاً عن حياتي وماضيَّ ومن أين أتيت، لم أتذكر حتى اسمي، فأعطاني الصيادون اسماً وبقيت معهم أعيش كواحدٍ منهم، واعتدت على حياةٍ جديدةٍ كانت دون ماضٍ. ثم بدأت الصور تأتي إلى رأسي: صورة طفلةٍ تلعب على شاطئ البحر، صورة امرأةٍ تقرأ كتاباً على شرفةٍ، صورٌ كالحلم، ثم بدأت تتزايد وكثير منها كان مشوشاً وغير واضحٍ، كمن وضع فوقها ستاراً، كانت تأتيني الصور فجأةً ثم تختفي، وكنت متأكداً أن لهذه الصور والأحلام علاقة بماضيَّ لكنني لم أستطع أن أجمعها، لم أستطع أن أكون منها شيئاً واضحاً، ثم بدأت تأتيني الأحلام كوابيس أثناء النوم، فأرى سفينةً تغرق وبحراً هائجاً وأناساً يطلبون النجدة والمساعدة، وطفلةً تصرخ أبي، أبي. وذات صباحٍ استيقظت على الحقيقة المرعبة وتذكرت كل شيءٍ دفعةً واحدةً، وكانت تلك أقسى لحظات حياتي، تذكرت السفينة ونجمة وتذكرتك وبدأت أحس بالخوف، لم أعرف مصيركما، لم أعرف هل غرقتما أم بقيتما على قيد الحياة! فبدأت بالسؤال عن السفينة الغارقة لكن أحداً لم يعرف، فقررت العودة إلى البيت في طنجة، وهناك سمعت عن غرق السفينة قاهرة البحار وعن وجود بعض الناجين، فذهبت إلى البيت وكلي أملٌ في أن أجدكما، فأخبرني الخدم بأنك ذهبت في قافلةٍ إلى مصر للبحث عنا، عندها عدت إلى طنجة، وهناك بالمصادفة التقيت صديقًا قديمًا اسمه زين الدين، هل تذكرينه؟ فحكى لي كيف ركبت القافلة وكيف غيرت مسارك إلى عدن، فجئت إلى هنا وسألت عنك في كل خانات المدينة حتى وصلت إلى هذا الخان، فقال لي صاحبه إنك أتيت قبل حوالي عامٍ وأنك التقيت بتاجرٍ يدعى عبد الله، وأنك رحلت معه إلى الهند فبقيت أنتظر لأسأله عنك».

عندما انتهى من روايته كنّا نحن الاثنين نبكي، فسألته: «ونجمة، ألا تعرف ماذا حدث لها؟ هل تكون قد غرقت؟ لا أصدق! أحمد، يجب أن نجد ابنتنا».

فقال: «سنبحث عنها وسنجدها بإذن الله».

كنت أبكي وأنا لا أصدق أنه فعلاً هنا وأنه ما زال على قيد الحياة! كنت أضحك ثم أبكي ثم أضحك: «لا أصدق أنني فعلاً أراك هنا، يا إلهي، هذه مصادفةٌ عجيبةٌ! ماذا لو تأخرت في تلك الجزيرة؟ ماذا لو لم ألتق بك؟»

قال وهو يضحك: «إنني هنا ولن نفكر الآن في ماذا لو، حدثيني عما حدث معك».

حدثته عن كل ما حدث معي بالتفصيل منذ أن وجدت نفسي فوق الخشبة في عرض البحر، وذهابي إلى البيت وركوبي في القافلة وتغيير مساري إلى الحبشة، ثم عدن ولقائي بعنفرة والهند والفيلة، وزوجة المهراجا والأميرة في سيلان، وخوفي من المرض الذي ظننته جذاماً وعودتي إلى عدن.

مر اليومان التاليان ونحن نتحدث ونفكر من أين سنبدأ رحلة البحث عن ابنتنا التي أعاد أحمد لي الأمل بأنها ربما ما زالت على قيد الحياة. سمعنا طرقاً على الباب ففتح أحمد، وكان هناك ولدٌ من الذين يعملون في الخان يقول: «السيد عبد الله يطلب الإذن بأن يرى السيدة في بهو الخان».

نزلت وأحمد ووجدنا عنفرة هناك، فقلت له والابتسامة على وجهي: «هذا زوجي أحمد يا عبد الله، لقد وجدته!» وسلم الاثنان على بعضهما البعض بحرارةٍ، فقد كان كل واحدٍ يعرف عن الآخر من خلالي، وكان لقاءً حاراً، ثم قال عنفرة: «والآن، أخبريني ماذا حدث معك، لقد انتظرتك هناك ثلاثة أيامٍ بكاملها ولم أستطع أن أؤجل السفر، كانت الريح ستغير مسارها».

ولما أخبرته قال: «الحمد لله على سلامتك، ولكن ألن تكفّي عن المغامرات؟» فضحكنا، ثم فجأة ضرب على جبينه بيده وكأنه تذكر شيئاً وقال: «يا إلهي كدت أنسى، لقد سمعت أن بعض الأطفال من قافلة العبيد لم يصلوا إلى عدن، بل بيع بعضهم في الحبشة، ويقال إن الذي اشتراهم هو زعيم إحدى القبائل هناك».

بدأ قلبي يضرب بشدةٍ وأمسكت يد أحمد وشددت عليها وقلت: «نجمة»، فشد أحمد على يدي وقال: «إذن سنذهب إلى الحبشة».

فقال عنفرة: «سآخذكما إلى هناك بنفسي، سأذهب الآن للقيام بالترتيبات اللازمة».

عندما عاد في المساء قال: «كل شيءٍ جاهز وسنرحل صباح الغد، هناك سفينةٌ صغيرةٌ في انتظارنا».

فقال أحمد: «بهذه السرعة؟ إنك حقاً رجلٌ شهمٌ!» ثم قال لي: «لن نترك مكاناً إلا وسنبحث فيه، إن كانت حيةً سنجدها إن شاء الله».

فقال عنفرة وهو يقدم لي صرة ملابس: «وهذه لك يا سيدتي».

سألته: «ما هذا؟»

فقال وهو يبتسم: «إنها صرة ملابس».

فقلت: «لم يفتني هذا، شكراً، لكن لا أفهم!»

«افتحيها».

ففتحتها ووجدت بداخلها ملابس رجالٍ فنظرت إليه باستفهام.

فقال: «هذه المرة ستسافرين كرجلٍ، لا نريد أن تقعي في الأسر»، ونظر إلى أحمد وقال له: «لا نريد أن نجد واحدةً ونخسر الأخرى!»

في الصباح لبست ملابس الرجال ووضعت السيف في المكان المخصص له في الحزام وسألت أحمد: «ما رأيك؟»

فضحك: «الآن عرفت كيف كنت تبدين كقرصانةٍ » ثم تابع: «هل يود السيد

القرصان أن نسطو على سفينةٍ ونحن في الطريق؟»

نزلنا لنرى عنفرة الذي كان ينتظرنا، فانحنى لنا وقال: «صباح الخير يا سيد أحمد، صباح الخير يا سيد عجيب»، وانطلقنا إلى السفينة، فوجدنا حامداً في انتظارنا وقد بادرني قائلاً: «وهل يمكن أن أفوت مغامرةً كهذه!»

كان من الصعب علي أن أصف سعادتي وأنا أقف بجانب أحمد، فأنا لم أكن أصدق أنه حيٌّ يرزق ويرافقني، «يا إلهي ألن تكمل لي سعادتي؟»

كان الماء هادئاً وسارت السفينة تشق الماء كسكينٍ حادٍّ يشطّر الزبد، السماء صافيةٌ وكنت أستطيع أن أعدَّ النجوم فوقي واحدةً واحدةً، حتى لو مددت يدي لاستطعت التقاطها! سارت السفينة بهدوءٍ، وحلت على قلبي سكينةٌ لم أختبرها منذ فترةٍ طويلةٍ. على صفحة الماء رأيت حياتي ترتسم بوضوحٍ، مع كل حركة مجدافٍ كنت أقلب صفحةً جديدةً، كم من الصفحات مرت أمامي؟ كم حركة مجدافٍ قلبتها؟!

رأيتني طفلةً في الثالثة أتسلق شجرة زيتون، وأراقب أشباح القرية تمر من أمامي دون أن تنظر إلي.

رأيتني طفلةً في الثامنة، أصابعي ملطخةٌ بالحبر، أحاول أن أرسم، والأحرف ترقص بتناغمٍ فوق صفحةٍ بيضاء.

رأيت أمي تجلس قبالتي ونقرأ في كتابٍ وعلى وجهها ابتسامة رضىً، وأبي منهمكٌ في حراثة أرضنا الصغيرة يتصبب عرقاً، ولا تفارق وجهه الابتسامة.

رأيت عائشة السمراء تمشط شعري وتهمهم بأغنيةٍ لا أعرف كلماتها.

رأيت قبرين متلاصقين تحت شجرة حور، ونساءً يأتين بصمتٍ، يضئن سراجاً ويرحلن بصمت.

مرت أيامي وابتسامة شمس المضيئة، ويدها تلوح لي والدموع تغسل وجهها.

أحسست ثانية بأول شهقة دهشةٍ أمام انعكاس الشمس الضاربة فوق قبة الصخرة.

وجه العزيزة أم نجم القلق دائماً، نور الهدى ترفع قدميها وتقفز فوق الحصان برشاقةٍ، معلمي في طنجة ينظر إلي بحزنٍ حين جمعت أمتعتي وكتبي كسيرة القلب أمضي نحو مستقبلٍ مجهولٍ.

رأيت وجه علاء الدين يرتسم بوضوحٍ فوق الماء ويغمز بعينه: «أليست الحياة كلها مغامرة؟»

مرت من أمامي وجوه أصدقائي:شيخون، عنفرة، عبدون، ملفوفة...

كم مرت علي من قوافل وسفنٍ، صحارى وبحارٍ... وسفرٍ!

زين الدين، راجنا، فاطمة، زوجة المهراجا، الأميرة هاتا، أم سعد، وجوهٌ كثيرةٌ حبيبةٌ، بعضها غيبها الموت ولكنه لم يغيبها في قلبي.

أحمد زوجي وصديقي يسير معي على شاطئ البحر ويقول بحكمته الدائمة: «الهدوء لا يعني الموت، الهدوء نوعٌ آخر من المغامرة، تتفاعل الحياة فيه نحو النضوج».

نجمة الصباح، حبيبتي، طفلتي، ضحكتها الصافية حين تلمس قدماها ماء البحر البارد تتسابق مع زبد الموج، يقترب فتبتعد، يبتعد فتقترب، ولا تمل من مشاكسة البحر.

ها أنا في قلب العالم مرةً أخرى، أسير نحو مغامرةٍ أخرى!

ستكون هذه مغامرتي الأخيرة، ليس لكشف المجهول، ولا من أجل إشباع رغبةٍ

طالما ألحت علي بالسفر ودفعتني نحو طريقٍ غامضٍ، هذه مغامرتي الأخيرة، والطريق أمامي لا يشوبه الغموض هذه المرة، وفي نهايته أرى شمل عائلتي وقد التأم، وأرانا نخوض ثلاثتنا معاً مغامرتنا الكبرى نحو الحياة.

تـمـت

كم مرّت عليَّ من قوافل وسفنٍ، صحارٍ وبحارٍ وسفر!
ها أنا في قلب العالم مرةً أخرى، أسيرُ نحو مغامرة أخرى!
ستكون هذه مغامرتي الأخيرة، ليس لكشف المجهول، ولا
من أجل إشباع رغبةٍ طالما ألحّت عليّ بالسفر ودفعتني
نحو طريقٍ غامض، هذه مغامرتي الأخيرة، والطريق
أمامي لا يشوبه الغموض هذه المرة!

ISBN 978_9950_26_095_5
9 789950 260955

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education